
الخبز
الأسود



الكتـــاب : الخبز الأسود
المـــؤلـــف : سماح الجلوي
تنسيـق داخلي : سمر محمد
تـدقيق لغـوي: عبدالله أسامة
الطبعة الأولى: ينـــايـــر 2018
رقــم الإيــداع : 2017/26945
978-977-6541-38-2:I.S.B.N

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار



سماح الجلوي



إهداء

لقلب أمي..

سميحة عبده طوسون.

ما يؤلم الإنسان أن يموت

على يد من يقاتل من أجلهم.

تشي جيفارا

-١-
١٩٠٣

الوقت بعد الظهر، شمس يوليو الحارقة تصلي السهب نارًا، والهواء الساخن على مداد النظر يسحب شوبًا من الدخان تكاد العين تراه ولا تراه، في الأفق البعيد في هذا الوقت لا تلقى على طرق «يامنة» الضيقة عابر سبيل أو تسمع صوت إنسان أو حيوان. قد يخطر على المار فلاح عائد من الحقل، أو آخر يتهدج حماره المنهك الصبور الكسول تحت إيقاع أوتار أشعة الشمس الحارقة، وهو يجر عربة كارو قد صف فوقها قلل فخار وطواجن. في هذا الجو لا يحس المار هبة نسيم واحدة، فقط تمايل أطراف ملاءة سوداء يلوح انعكاس الشمس على سطحها اللامع الحريري، ترتديها فتاة تقرع فوق الدرب المتشقق الجاف بخفين خفيفين أحمرين مطرزين بخيط ذهبي رفيع، تكشف خلاخيل قصبة أرجلها للخيال ما حجب حجابها.

هذا الحر الشديد أنهك حتى الصبيان مهلهلي الثياب العائدين من السوق بقلل اللبن الرائب التي تدلت خلف ظهورهم. بعض الفتية تتبع الفتاة، واحد منهم احتك بها مشاغبًا فسكب فوق ملاءتها بعضًا من الرائب. ضحك الصبي ثم هرب يسابق أقرانه. كتمت الفتاة غيظها فلو علا صوتها لفضح أمرها. فما من فتاة تمشي بمفردها في «يامنة» بلا حارس. هو العيب سيلحق برب الدار الذي ترك نساءه بلا رجل يحتمين خلف ظهره.

تحصنت الفتاة بظل السور العريض إلى أن وصلت لبوابة خشبية كبيرة بطول السور كانت مواربة. مشت الفتاة بداخل الفناء الذي كان يعج في الصباح بصغار البط والإوز يقفزون حول أحواض الماء يعلو صياحهم حول صواني الغلال، وقد هربوا الآن محتمين بظل شجرة الجميز العتيقة المربوط بجزعها كلب على ما يبدو

أنه ألف الطيور وتصادق معها، ربما لكبر عمره أو لطبيعته الضعيفة ككلب تربى مع الطيور فأخذ من صفاتها الداجنة الوديعة، ولكن على غير عادته ما إن رأى الكلب الفتاة حتى ضج بالنباح. أسرعت الفتاة تتلاحق رجلاها واحدة تلو أخرى متجهة نحو الباب الحديدي الصغير جدًا مقارنة ببوابة الفناء. فتحت الباب فتاة أخرى تستطلع الأمر. والتي ما إن رأت منظرها حتى صدحت بالضحك، ثم أمالت برأسها مستندة إلى جانب الباب تتأمل حال الزائرة وهي تقول بسخرية:

- حتى الكلب يكرهك يا تهاني.

لم تنطق تهاني بكلمة حتى دخلت بهو المنزل الكبير، وهو عبارة عن ساحة مستديرة انبثق منها حجرة مستطيلة فرشت بسجاد يدوي الصنع، ملتفة الجوانب بمساند ظهر تفصلها عن بعضها البعض وسائد صغيرة. وقد فصل الحجرة عن ساحة المنزل الرئيسية عمودان أسطوانيان أملسان من رخام على شكل زهرة لوتس، على اليمين كان هنالك طرقة مؤدية لباقي دهاليز المنزل تنتهي بسلم يسلم للطابق العلوي وفيه تقطن حجرات النوم، وعلى الشمال طرقة أخرى مؤدية إلى شطر الخدم وهو عبارة عن حجرة كبيرة يوجد بها المطبخ، وهو نفسه المكان الذي تنام فيه بعض الخادمات على حسب دورهن في البيات، يتصل ذلك الشطر بفناء الدار الخلفي ببوابة خشبية عريضة، وكان الفناء الخلفي يحوي عشًا للطيور وزريبة للدواب، أما الفناء الأمامي المواجه للبوابة الرئيسية فكان فسيحًا نظيفًا تتوسطه شجرة ليمون وشجرة جميز عتيقة بالإضافة إلى نخلتين.

وقبل أن تتحرر تهاني من ملاءتها قالت بنبرة حادة:

- هذا الكلب لا يطيقني إنه يشبه أمك يا نعسة.

وضعت نعسة يديها حول خصرها معرضة وجهها عن تهاني تعاتبها غاضبة:

- نسيت أن أخبرك أنه منذ فعلتك المشينة تلك لن تكوني صديقتي، نحن ابنتا عم فقط.

خلعت تهاني ملاءتها وعدلت هندامها ثم قالت لنعسة وهي تطوي الملاءة على مهل متجهة نحو حجرة القعود:

- أحضرت لك هدية.

رفعت نعسة حاجبيها وهي تهز برأسها يمينًا وشمالًا وقد ارتسم على وجهها أمارات الغضب:

- ولو، أنا لا أصاحب السارقات.

- اصمتي أيتها الهبلة ستفضحينني حتمًا.. ها هي أمك آتية.

تأتي من آخر الدار امرأة سمينة، مكتنزة تمشي على الميلين متأرجحة على الجانبين. صمتت لوقعها الفتاتان كأنما حط الطير فوق رأسيهما. افترشت المرأة المجلس متربعة ثم قالت بصوت متململ وهي تلوي شفتيها امتعاضًا، ملقية إلى تهاني نظرة حادة كأنها تعمدت إيصال مغزى ما غير سليم النية للفتاة:

- كيف حالك وحال أمك يا تهاني؟ يا للغرابة إنك لم تعط لنا الفرصة لاستغيابك منذ ليلة أمس.

قابلتها تهاني بابتسامة ماكرة:

- إن أمي بخير يا زوجة عمي، تبعث لك السلام وقد أرسلتني لأطلب منك إقراضنا خضرا يومين لغسل الغلال معنا وطحنها.

تبدلت ملامح المرأة، علا حاجبها وانخفض الآخر وقد انتفخ أنفها الأفطس أكثر وهي تقول:

- إن رئيسة لا تشم عوز داري الدائم، وهل هي بيسيرة خدمة خمسة رجال ووالدهم؟ أم أنه وجب عليها توفير عافيتها، إن كان عدد الخدم في داركم قليلًا وهو ليس كذلك فلتساعد هي إذًا في غسل الغلال، ثم إنكم ألستم المنفردين بجهد جدتكم آمال وبناتها اللائي يزرنكم على الدوام وأنتم المستحوذون على خدمتهن دوننا؟

هزت تهاني كتفيها وهي تقول:

- كما تشائين يا امرأة عمي، لكن لا تنسي كوننا متكفلين بخدمة جدتي وجدي والجدة الكبيرة بالإضافة لعمي أيضًا، لا بأس، نحن لا نحتاج لشيء ولكنني سأنتظر عمي جابر لأخبره.

- وأين يا مخبولة عمك وهو الآن في آخر بلاد المسلمين يشتري العبيد، أم عساك أيتها الحزينة تنوين المكوث إلى أن يرجع عمك؟

- هذا أيضًا رائع أكملي جميلك واطرديني يا زوجة عمي وسوف أقول لعمي أيضًا ولن أرحل.

فاض الغيظ بالمرأة التي تركتهما وهي تهمهم وتغمغم بكلمات غير مفهومة وقد تشنج وجهها بحركات عصبية، منزوية بداخل إحدى زوايا المنزل.

نظرت تهاني لنعسة ثم استطردت وهي تفك عقدة طرحتها فاردة شعرها السارح على كتفيها تساويه:

- إن أباكِ في الطريق.

انتحت نعسة بوجهها عن تهاني للجانب الآخر وهي تقول:

- وكيف عرفت يا ناصحة؟ ثم إنه لم يكن عليك مجاراة زوجة عمك بتلك الطريقة المتكلفة من الحديث.. لا تكوني حمقاء يا تهاني.

بأسى قالت تهاني:

- إنني مهما قلت من سوء عن والدتك فهو قليل، لقد سوأت سمعتي ولن أسامحها في ذلك أبدًا، ثم إنه في رأيك هل وجب علي تصنع تقبل الحديث الذي وارى معايرة لأمي بقلة الإنجاب بسعة صدر وانفراج نفس أيضًا، ليس في ميسوري يا نعسة تقبل الإهانة بابتسامة بل وليس في وسعي التصنع.. أما عن من قال لي فهي العصفورة التي قالت لي.

بنبرة ساخرة قالت نعسة:

- العصفورة أم زيدان.. ألن تكفي عن ألاعيبك وكهنك هذا؟ إنني أقسم لك أنك لولا إتقانك لفنون المكر لكان مصيرك الهلاك، لكن احذري يا تهاني فلو أن أحدًا من أبناء عمك جاءه خبر بأفعالك الطائشة وسلوكك غير القويم فلسوف ينحرون رقبتك لا محالة -سهمت نعسة لثوانٍ ثم أكملت حديثها بنبرة مكسورة- أنت محظوظة يا تهاني فلقد حباك الله بنظرة قاتلة قادرة على قهر كل الرجال فيرضخ لك من أردت منهم.

صدح صوت تهاني ضاحكًا وهي تكتم فمها بطرف طرحتها المزركشة بعدة ألوان وقالت:

- لا تحدثيني عن الشرف في يامنة، في المكان الذي نمت فيه كروش على حساب بطون التصقت بظهور أصحابها من الجوع، وأجساد عراها قلة الكساء في حين خنق بعضها أكوام الثياب، من الصعب أن أكون فاضلة بل إن الفضيلة في هذا الجو الفاسد تتحول لرذيلة إذا ما أجبرت عليها خوفًا ونفاقًا، وقد أصبح الظلم هو الأمر الطبيعي بالنسبة للظالم والمظلوم.

تلفتت تهاني حولها ثم أخرجت من جيبها لفافة صغيرة لتفتحها وبكل حذر أمام نعسة.

- انظري ماذا طلبت من زيدان أن يحضر من السوق اليوم، انظري، انظري يا نعسة.

أخذت نعسة بكفيها على وجهها وهي تنظر لما في قطعة القماش.

- مكحلة ومرود وملقاط يا مصيبتي السوداء.

سمعت الفتاتان صوت نحنحة خشنة آتية من ناحية صحن الدار فعلمتا أن أحدًا من رجال الدار متجه نحوهما، فانتفضت تهاني كالملسوعة وانتزعت نعسة اللفافة بسرعة من يدها وخبأتها أسفل وسادة صغيرة تتكئ عليها. دخل المجلس تحت نظر الفتاتين رجل ذو هيبة وهيئة جليلة يرتدي عباءة سوداء قيمة، فيما تستدير رأسه بعمامة بيضاء ناصعة، ذو وجه أبيض قد لفحته الشمس بسمرة فشربته بحمرة

قانية، وشاربين ثقيلين لا تكاد تميز تقاسيم وجهه من شدة كثافتهما.. فزعت الفتاتان تهرولان الواحدة تلو الأخرى نحو الرجل تقبلان يده.

جلس الرجل المهاب على مقعده الخاص به والمختلف عن باقي المقاعد في الحجم وعدد الوسائد الأثيرة، وكانت باقي الأرائك الصغيرة مخصصة لباقي أسرته المكونة من زوجة وخمسة أبناء متزوج منهم اثنان، وابنتان تزوجت منهما العام الماضي واحدة. جلس الأب بينما ظلت الفتاتان واقفتين تنحنيان برأسيهما ينتظران إشارة السماح لهما بالجلوس، أسرعت الزوجة وقد خفت حركتها ولانت مفاصلها لاستقبال الزوج الذي لم يكترث لوجودها كثيرًا طالبًا منها الغداء غير أن قبل ذهابها لإعداده، استبقها صوت تهاني لأذن عمها:

- انتظري يا امرأة عمي هنالك ما وجب قوله أمام عمي.

نظر العم بملء اتساع عينيه نحو ابنة أخيه وكان لجابر صوت عالٍ ذو وقع ثاقب، في حواراته العادية يظن المتلقي أنه ينهره فيصل به الخوف لأن يجيب بما يعتقد أن جابرًا يريده وترتاح له سريرته مضطرًا، ولو كان على عكس ما أراد أن يتحدث به مخالفًا سريرته لإرضاء الرجل المهاب، وحينما قالت تهاني ما قالت فإن العم ارتاب وقد حدثه حدسه بأن شيئًا عظيمًا قد حدث فنهر ابنة أخيه بالشكل الذي أسقط قلبها أسفل قدميها فضمت بيدها على ثوبها.

- تكلمي يا تهاني.

- هل يرضيك يا عمي أن تطلب أمي خضرا لتساعدنا في البيت، فتعايرها زوجتك بقلة الأولاد؟

أطاحت نظرة جابر بعمائد زوجته التي اختل توازنها وانحلت مفاصل ركبها أثناء وقوفها يدق قلبها بسرعة، فقالت بلهجة معبرة حانية وهي تمد راحتي يديها في تحنن مفتعل:

- هل تصدق يا حاج كلام تهاني؟ لقد فهمت ابنة أخيك حديثي بشكل خاطئ أنا لا أعز عزيزًا على بيت أخيك والغالية زوجته، خذي يا تهاني خضرا وخذي نعسة وإن شئت خذيني معهما، نساء الجبابرة جميعهن خادمات ابنة الكوامل.

لم تكن سنية بالمرأة الهينة إذ أرادت في تحننها تحريك غضب زوجها، وكأن سنية بكلامها ألقت بصدر جابر شرارة فوق وقود، رفع جابر يده مشيحًا في علامة رفض وقال:

- خدامون من أيتها المقبورة؟ يبدو أنك لا تعين ما تقولينه إننا الجبابرة أسياد البلاد، لن تأخذ تهاني خضرا وهنالك مفاجأة لك يا تهاني ستعجبك تنتظرك في الدار الكبير أحضرها لك والدك خصيصًا.

بينما كانت نعسة تعاتب والدها لاستحواذ تهاني على هدية خاصة أسرعت تهاني بوضع الملاءة فوق رأسها لتسرع للذهاب وكلها شوق لمعرفة المفاجأة. أوقفها العم مناديًا على خليل الأجير حتى يصل بابنة أخيه للمنزل الكبير منزل العائلة.

كان جابر في الحقيقة مطرودًا من منزل والده منذ عامين وليس كما أشيع أن الجبابرة اختلقوا نظامًا جديدًا، وهو أن يكون لأكبر الأبناء منزل مستقل إقرارًا باستقلالية وريث الوصاية على الجبابرة، بحيث يكون خروجه من كنف الوالد رمزًا لقوة الشخصية والزعامة، إذ إنه لماذا لم يفعل جابر ذلك مع ابنه الأكبر عبد الجبار وظل الابن بعد زواجه في منزل الوالد؟!

وسبب طرد جابر كان زوجته سنية التي عارضت تزويج تهاني من ابن عمها، متعللة في ذلك بأن غاية كل أم هي البحث لابنها عن فتاة كاملة الخلق والطباع تكون تحت جناحيها فلا تعصي لها أمرًا أو تكسر لها كلمة، وتهاني فتاة ناقصة العقل سيئة الخلق وهل تجلب لنفسها عاهة لن يخلصها منها إلا الموت، وقد ساعدها في تمردها على عادات يامنة مصالح الحاج الكبير عبد الجبار مع إخوانها وأقاربها خاصة خالها صاحب محلج القطن في القاهرة، والذي يشتري تقريبًا النصيب

الأكبر من قطن حقول الجبابرة كل عام، ولولا ذلك لكانت سنية طالقًا والفتاة متزوجة من ابن عمها ولما ترك جابر الدار الكبير ولربما حظي بزوجه ثانية.

أسرعت الزوجة بتنفيذ مطلب الزوج وذلك قبل أن يحلف الزوج يمينًا يضيع به عليها فرصة الفوز بما انتظرته منذ سفره.. الحناء والزيوت العطرية ودهانات الجسد واللبخات القادرة على تحويل الكركوبة لعروسة؛ لذا فإنها ما إن لبثت أن دخلت لحجرة إعداد الطعام حتى خرجت حاملة بين يديها سلطانية فتة رصت فوقها قطع لحم الضأن الدسمة بدهنه، وضعت الصينية أمام الزوج وقد تحسست علامات الرضا على وجهه فارتاح قلبها وإن خانتها الجرأة في سؤاله عما أحضر معه مخافة أن يغضب، فألمحت تلميحًا بعيدًا مدعيةً أن الشيخ بحرًا صاحب المقام الأخضر زارها في منامها ورمى في حجرها ثلاثة أثواب حرير وشالًا قطيفة ومسكًا وعنبرًا فلعله يفهم مغزى الحلم الملفق.



-٢-

في مساء اليوم التالي كان المنزل الكبير يزدحم بالضيوف من القرية والقرى المجاورة، إذ إنه كان من المعروف عن عادات «يامنة» وأهل القرى عامة آنذاك التباهي والتفاخر بالنسب والأرض والخدم، ولم تجد عائلة الجبابرة مناسبة أفخم من مناسبة توزيع العبيد للافتخار والتكابر بين باقي العائلات في القرية والقرى المجاورة. الضيوف كانوا من رجال في أواسط العمر وأرذله وأوله، تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشرة وفوق السبعين بالإضافة إلى النساء والأطفال. وكان الضيوف في الشطر الرجالي فيما يحتسون شايهم الثقيل، يتكلمون عن المحاصيل والتجارة وشئون الأرض ومشاكلهم مع الفلاحين، لكن لب الحديث الذي جمعهم جميعًا كان نوادر عن أحد الأثرياء البخلاء معتبرين أنفسهم أناسًا أجاويد يكادون بالكرم أن يكونوا أندادًا لحاتم الطائي. خرج الجد الكبير عبد الجبار من فناء الدار الداخلي متجهًا لضيوفه يسألهم مجاملًا:

- مرضيون؟

حاول الضيوف من قبيل الاحترام للشيخ أن يكنوا أرجلهم ويجلسوا وفق ما تقتضيه قواعد الأدب لكن الشيخ عجل بالاعتراض:

- اقعدوا على راحتكم يا أجاويد تمددوا ليس أريح من الجلوس على كيف المزاج.

في حضرة الشيخ نضبت الأحاديث الخفيفة المسلية وبدأ الملل يخيم على الجلسة. ولكسر الرتابة مال عبد الجبار على عبد الشكور قائلًا له:

- احك لنا عن أخبار الدنيا يا عبد الشكور.

عبد الشكور رجل نحيف ذو وجه أسمر ذابل وضامر الصدغين في حوالي الخامسة والأربعين، يضع على عينيه نظارة وله شاربان صغيران أتقن فتلهما حتى إن رأسيهما الدقيقين كادا يمسان فتحتي أنفه. لباسه على أحدث طراز وبين الضيوف نستطيع القول إنه الوحيد المتشبه بموضة رجال أهل المدن في ذلك الحين. وهو الذي يمكن القول أنه خطيب ومتحدث، ومما لا شك فيه أنه استمد فصاحته ولباقته ليس من واسع ثقافته فقط بل من رحلاته في أنحاء أقطار مصر وخارجها، إذ كان عبد الشكور يعمل تحت إمرة الأثرياء كتاجر مستورد لكل ما هو مدني وحديث، يتظاهر بأن ليس في جيبه مليم نحاسي مدعيًا التقشف لكنه وعلى حاله في الكلام نطاسي مراوغ، ولم يكن من الضيوف قارئ أو كاتب سواه وربما اثنان آخران. دائمًا ما تجده يحمل جريدة ويتوسط مجالس الأعيان.

أخذ عبد الشكور يسرد أحوال البلاد والعباد في عصر الخديوي عباس الحاكم آنذاك. ثم أخذ الكلام يتجه ناحية نية المسؤولين عن إقامة دار لتعليم الفتية في القرية، والنقاش عن فرمان تسجيل القرى بأسماء بحيث يأخذ الأمر شكلًا رسميًا مدرجًا في دفاتر الحكومة، ومقننًا بسجل فيه حدود كل قرية ومساحة الأراضي الزراعية بها، وقد كانت القرية قبل خمسين عامًا تعرف باسم قرية الجبابرة نسبة للجد الأكبر عبد الجبار المعروف عنه الجبروت الضاري والظلم الفاحش، والذي لم يكن في البلدة صغير أو كبير إلا وكان يخشاه لما بلغ في ذلك من السلطة والقوة حتى وصل منتهاه، إلى أن أتت الحادثة التي قسمت ظهره وسودت وجهه، ثم أردته ميتًا ليتغير بعدها اسم القرية من قرية الجبابرة لقرية يامنة.

وقد أراد عبد الجبار الابن إرجاع اسم البلدة لأصلها معلقًا آماله على قرارات الباب العالي الجديدة، ماحيًا بذلك عهودًا من العار والخزي وثقها اسم يامنة.

قطعت صواني الطعام الحديث على الفور. كل ضيف كان قد أحضر معه خادمًا وربما اثنين مجاملة لأهل البيت في خدمة الضيوف وتحضير الطعام، دخلت صواني الطعام الممتلئة بالفتة ولحم الغنم والعجل، أكل الضيوف حتى امتلأت بطونهم وعلت كروشهم بعدها مرت من أمامهم صواني الفاكهة بأنواعها والحلوى، كانت

الحلوى المغموسة بالعسل وصواني الرواني شهية حتى إن الواحد منهم تمنى لو لم يشبع منها قط، لكن التوق لرؤية العبيد كان أشهى إذ أنهى الضيوف تحليتهم على عجل منتظرين دخول العبيد وتقسيم عبد الجبار لهم على أبنائه الثلاثة.



من الباب الخلفي المخصص للنساء دخلت نعسة مع والدتها ومن ورائهما خضرا، كانت الأم ونعسة تتلفحان كل واحدة منهما بملاءة من الحرير الأسود الناعم البراق، تلمع أساورهن الذهبية العريضة المتراصة حول معصميهما. أما خضرا الخادمة فكحال كل الفقيرات كانت تلتف بعباءة سمراء من النوع الرخيص مقددة ومهلهلة.

دخلت السيدات إلى الحجرة المخصصة لمجلس النسوة وقد فرشت الحجرة الواسعة بالفرش الأثيري الناعم والوسائد الصغيرة، وقد رص على أرضها صواني تحمل أباريق الشاي وأطباق الحلوى والفول السوداني والبلح، ووضع أمام إحدى النساء طبق إضافي من اللوز والزبيب والفستق الحلبي إلى جانب القهوة التركية كضيافة خاصة لها، كانت تلك هي زوجة مأمور نقطة المركز والتي جلست بجانبها وتحت خدمتها رئيسة، زوجة همام الابن الأوسط لعبد الجبار.

كانت الحجرة محاطة بشبابيك مربعة منغرسة فيها من أسفلها إلى أعلاها أسياخ حديدية متقاربة وإن كانت تسمح بمرور يد شخص بالغ من خلالها. تلك الأسياخ لم تمنع بعض أطفال الجيرة الفقيرة في القرية من التعلق بها وهم يصيحون في لهجة تعطف وتحنن:

- أعطونا العادة، الله خليكم، اعطونا العادة.

وحين لم يكترث لهم أحد مضوا في صياحهم بضجيج وصريخ أعلى ضوضائية.

نهرتهم امرأة عجوز هي حجازة زوجة عبد الجبار وهي سيدة الدار، تعلو كلمتها على الأبناء وزوجاتهم والأحفاد والخدم، كان رأيها مسموعًا وخاطرها مجابًا عند

عبد الجبار نفسه، لا ترد لها حاجة أو تخفى عنها حكاية، وكانت عجوزًا لكن عفية، قوية البنيان، جهورة الصوت، سريعة الحركة، بملامح صلبة يابسة كعودها المفرود النحيف. كانت حجازة تطرد الصبية الفقراء فيما كانت يداها تنزح من الحلوى والفول والبلح تملأ بها جيوب أطفال ضيفاتها الجالسات على حجور أمهاتهن أو بالقرب منهن، وهي توجه حديثها لأبناء الفقراء:

- ارحلوا يا أولاد قليلي الرباية.. هنالك فرق بين أبناء الخدم وأبناء الأكابر الذين لم ينطق واحد منهم أو مد يده.

اعترضت تهاني جدتها:

- لهم حق أبناء السادة ألا يشاغبوا وتعلو صيحاتهم إذا ما كان ما يعجبهم ويريدونه يعطى لهم بلا طلب.

رمقتها حجازة بنظرة نارية غير أنها في الوقت ذاته لم ترد الدخول في نقاش مع حفيدتها العنيدة أمام ضيفاتها. هاج الأطفال أكثر وأكثر وغلت نفوسهم لعدم اكتراث أحد بمطالبهم، جالبين التراب مهيلينه على النسوة اللائي ذعرن وصرخن، بعدما عجزت حجازة في رد الأطفال ما كان منها إلا إنقاذ الموقف أمام ضيفاتها الجليلات بأخذ كبشتين من كل طبق ملقية بهم من النافذة، ليلتف حولهم الأطفال الجائعون يلتقطون كفراخ جائعة ما جادت به حجازة وألقت به وتسكن ثورتهم.



في الجانب الآخر حيث جانب مجلس الرجال ووسط ثرثرة الضيوف همس عبد الجبار في أذن جابر ابنه الأكبر بأن يجهز العبيد، مشددًا عليه ضرورة ألا يفتأ طوال طريقه إلى حجرتهم عن تلاوة الرقية عليهم وتبخيرهم. كانت حجازة تمسك بمفتاح حجرة العبيد التي تقطن في الفناء الخارجي بعيدًا قليلًا عن منزل العائلة، وإن كانت محاطة بنفس سور الدوار وهي غرفة مخصصة في الأصل

كمخزن لأدوات الفلاحة، ومنذ استلام عبد الجبار للعبيد تعمد إذلالهم بتغطية وجوههم بأكياس قماشية منقطع منها شق صغير لضمان قدرتهم على التنفس، وحتى تلك اللحظة التي جمعتهم في هذه الحجرة داخل دوار المنزل الكبير لم ترفع الأكياس من على وجوههم قط، لدرجة أنه عندما كان يحضر لهم الطعام كانوا يرغمون على وضعه في أفواههم من تحت الأكياس، ورغم ضجرهم لم يجرؤوا على أن يسيئوا التصرف بفعل قد يعرضهم للضرب كما فعل مع واحد منهم يدعى عابد، اعترض في البداية خالعًا عن رأسه الكيس فجلده جابر بسوط حتى تمزق جلبابه ودمي أديمه وعلى هذا الحال كان حالهم وحتى لحظة وصولهم الحجرة التي كنزوا بداخلها.

وقف جابر أمام الشطر النسائي موليًا وجهه ناحية الجدار المقابل للباب خشية أن يرمق واحدة من النساء المتخففات من ملاءاتهن. وبصوت عالٍ هتف:

- المفتاح يا أمي.

تغامز النسوة فيما بينهن، فقد أتت تلك اللحظة المنشودة التي انتظرنها وهي رؤية العبيد ومشاهدة كبير العائلة أثناء توزيعه لهم على أبنائه الثلاثة، لكن حياءهن منعهن من التصريح عن رغبتهن الملحة. أما حجازة المرأة الداهية فقد كانت تعلم بما يدور في خاطر ضيفاتها، وإمعانًا في إظهار كرمها عليهن سمحت للضيفات بإلقاء نظرة من على سطح المنزل على العبيد بينما جابر يسوقهم من الحجرة لمجلس الرجال قائلة:

- المرأة التي تود مشاهدة العبيد فلتأت معي لسطح الدار.

وما إن صرحت حجازة لهن بذلك حتى تسابقن إلى السلم الخلفي تقصي كل واحدة منهن أختها حتى إن فيهن من نسيت أن تأخذ ملاءتها أو تنتعل حذاءها، وامرأة المأمور التي ظلت محتفظة بتكبرها وتمنعها حتى عن الطعام إلا من بعض حبات الفول في فمها مغصبة، لحقت بالنسوة تزيحهن واحدة واحدة. بعدها أعطت حجازة المفتاح لجابر.

كان العبيد بداخل غرفة مظلمة لا يشع فيها فتيل مصباح ولا ضوء قمر منذ أن أتى بهم عبد الجبار وأبناؤه للقرية، بعدما اشتروهم من حيفا وهي بلدة مشهورة بتجارة الرقيق على الحدود ما بين مصر والسودان. وصل جابر لحجرة العبيد والخوف يحاوطه من أن تهبط فوق رأسه لعنة العبيد التي وقعت قبل خمسين عامًا فوق رؤوس أهل الجبابرة جميعهم.

إن عزوف الجبابرة عن شراء العبيد لم يكن كرهًا أو بغضًا لنوعهم بل في الأكثر كان خوفًا من تجدد اللعنة عاقبة ما فعله جدهم الأكبر، وما لحق به بعد ذلك من لعنة طالته هو وحسنة زوجته. فتح جابر الباب ببطء وحذر ممسكًا بيده اليسرى مصباحًا صغيرًا. وقبل أن تطأ أقدامه الحجرة شيء ما صغير انفلت سريعًا مصطدمًا بقدمه، ذعر جابر وارتدت منه صرخة خوف أعقبها بالاستعاذة من الشيطان وتفجير طلق ناري في السماء. تمالك جابر نفسه ناهرًا العبيد بصوت زاعق متداركًا صرخة الخوف التي بدرت منه.

خرج العبيد مصطفين، ألقى عليهم جابر نظرة تفقدية ثم أمرهم بالسير خلفه منظمين. لم يكن حجم جابر ظاهرًا بالنسبة للعبيد من أطوالهم الفارعة وعرض أجسادهم وضخامة بنيانهم، بشرتهم سمراء جدًا حتى إنك لا تميز الليل منهم وكأنهم قطعة منه، لولا عيونهم البيضاء التي سطعت في الظلام ككشافات صغيرة تتلفت يمينًا وشمالًا لحسبتهم جزءًا من الليل وهو جزء منهم.. كان العبيد مكبلين يسوقهم الأضعف وهو حر فغدا هو الأقوى.

دخل العبيد المجلس واحدًا واحدًا في رتل منتظم، كانوا مشدوهين وخائفين مثلجة أطرافهم مطأطئين الرؤوس خانعين إلا واحدًا منهم ظل بكامل ثباته واستقامته. أوقفهم جابر مصطفين لصق الحائط المقابل لمجلس الرجال، نهض عبد الجبار من مقعده، دس الشيخ قدميه في نعليه الجديدين ومضى بهما متبخترًا في زهو، ممشوق القوام بما لا يناسب عمره وراح يتفقد العبيد ثم طلب منهم التقدم قليلًا. وقف عبد الجبار أمامهم يشع الفخر من عينيه ثم استدار ناحية ضيوفه يختال أمامهم قاصًا عناء رحلة شراء العبيد بصوت جهوري:

- وعدنا التجار بمجموعة عبيد على الشتاء، لكنهم أخذوا يماطلون شهرًا وراء شهر وحتى هذا الشهر، شهر يوليو الصيفي فاقم الحرارة. كان من المستحيل الذهاب للسودان في هذا الجو لكن الرجل مربوط بكلمته، إن كانوا هم قد حلوا رجولتهم ولم يفوا بعهودهم بأن يأتونا بالعبيد في الموعد المتفق عليه فلن يفعل هذا عبد الجبار، وعلى هذا النحو ذهبت مع أبنائي للسودان -تنهد عبد الجبار- احمدوا الله على النعمة التي تتمرغون فيها إن الجو هناك قادر على إذابة الجليد ذاته، وكأن الأرض من شدة السخونة تنضح أسفل قدميك حممًا، أوقفنا التجار في الطلل تتعامد الشمس فوق رؤوسنا وانتظرنا إلى أن جهزوا العبيد وأحضروهم لنا ثم أخذوا يساوموننا. كان كل همي أن آخذ أربعة أزواج من العبيد فينال كل واحد منا عبدين بأرخص الأثمان، لكن مكر التجار جعلني أقبل بأعلى ثمن قبل أن تسيح الشمس أدمغتنا وقد وافقت.

ثم اتجه عبد الجبار إلى واحد من العبيد وكان أطولهم قامة وأعرضهم بنيانًا وأفتلهم عضلًا يكاد عبد الجبار يظهر كالقزم بجواره. ثم أكمل حديثه مخاطبًا ضيوفه:

- ومن مكر التجار أيضًا أن أتوني بعبد تاسع وعبدة، ظننتهما في بادئ الأمر فوق البيعة، وإذا بهم يقولون لي هذا العبد وحده بثمن اثنين من العبيد قادر على حرث خمسة فدادين من الأرض بمفرده فهو يعمل قدر أربعة رجال، وإن اشتريته سيعطونني عبدة أخرى كهدية. الصراحة أنا لم أشتر العبيد للخدمة بل للتباهي وأن أمشي أنا وأبنائي كل واحد منا في حماية عبدين. كنت سأترك العبد التاسع لكن مع ذلك المكر وجدت أنه لا ضرر فلندلل الأرض ونعين لها عبدًا هي الأخرى.

ضحك عبد الجبار ومن بعده انتقلت العدوى للجميع فعج المكان بالضحك، ثم طلب من العبيد التقدم أكثر في إعجاب من الحضور ومباركة منهم. ووسط هذه الأجواء التي عمها الخيلاء والإعجاب، دخلت امرأة عجوز طاعنة في السن تجاوزت

التسعين من العمر قرعاء محدب ظهرها. مسكت المرأة بتلابيب عبد الجبار وبكلام غير مفهوم إلا من كلمة واحدة أخذت تردد «يامنة.. يامنة.. يامنة». احتضنها عبد الجبار وهو يشعر بالحرج أمام ضيوفه مهدئًا من روعها قائلًا:

- أين هي يامنة يا أمي؟ ماتت يامنة منذ خمسين عامًا وتحللت عظامها.

لم تسكت المرأة وأخذت تردد الكلمة تكرارًا ومرارًا وهي تبحلق في العبيد وتشوح بيدها في حركة مرادها أن يخرجوا العبيد أو يطردوهم. أخذ جابر المرأة للخارج متجهًا لمجلس النسوة اللائي وجدن أن الجلوس فوق سطح الدار وأسفل ضوء القمر ملائمًا جدًا لهن كي يثرثرن، عندما جاءهن صوت جابر وهو يهتف على أمه وأهل الدار كلهم. هرولت حجازة مسرعة نحو صوت ابنها الغاضب:

- ألم ننبه على إغلاق الباب على الجدة حسنة يا أمي؟

- الباب كان مغلقًا يا ابني.

- إذًا من الذي أتى بها لمجلس الرجال؟

استلمت حجازة من يده حسنة وذهبت بها لحجرتها مندهشة. وما زاد من اندهاشها أن الباب كان مفتوحًا بالفعل، تعجبت حجازة لأنها أغلقت بنفسها الباب وطالما أن لا أحد يملك مفتاح حجرة حسنة سواها فمن إذًا فتح لها الباب؟ قالت في سرها «لعلي هرمت وأصابني الخرف ولم أغلق الباب جيدًا ونسيت»، ثم رجعت تهمهم «لكنني متأكدة أنني أغلقته وقد أدرت المفتاح مرتين».

خلفن النسوة سيدة الدار تطفلًا منهن لاستطلاع ما يحدث بالأسفل، وظلت الفتاتان تثرثران أسفل ضوء القمر. كانت تهاني في وقت سابق قد حرضت نعسة على سرقة ورقة مالية من خزنة والدها، شعرت نعسة بعدها بالذنب وتأنيب الضمير وكانت سترجعها لولا أن تهاني أخذت منها المال عنوة وهربت سريعًا.

- لماذا جعلتيني أسرق يا تهاني ما كان ينبغي علي اتباعك؟

- جدتك آمال هي من فعلت.

- تضحكين علي، تقولين أن جدتي آمال أخت جدي عبد الجبار هي من حرضتك، معقول! حتى إنها لا تزور دياركم إلا للخدمة وهي طيبة وأمينة.

- أقصد أحوالها، جدتنا آمال لها ما يقارب من ثلث ثروة جدي أو أكثر، وقد أخذ جدي ميراثها كعادة أهل يامنة في أخذ ميراث النساء واستولى هو على الثروة كلها بما أنه قتل إخوته.

وضعت نعسة يدها على فم تهاني طالبة منها الالتزام بالصمت لكن تهاني أزاحت يدها سريعًا لتكمل:

- ابعدي يدك عن فمي إنها الحقيقة يا نعسة، والغريب أنك غير دارية بشيء. جدتك آمال تزوجت من فوزي الفقير الرجل البسيط الأبكم الأصم، أنت لم تري أو تسمعي عن بخل جدك ولا عن جحود والدك أو والدي على جدتك آمال من شيء، تلاحظين ما يهمك فقط فتظنين أن جدك كريم الخصال ووالدك حليم وعمك ودود لكنني ألاحظ يا نعسة التفاصيل خلف الرياء وأهتم. جدتنا آمال تأتي كل أسبوع تحمم جدتك حسنة، تكنس حجرتها وتغسل لها الملابس لقاء ملاليم تأخذها شحاذة من جدتك حجازة، وأنت تعلمين أن لها إرثًا في الدار والمال والأرض، كثيرًا ما كنت أراها تسرق الطحين وربما دجاجة أو قطعة لحم وتخبئها في طيات ملاءتها قبيل خروجها من الدوار والرجوع لدارها وذلك من ضيق حالها، ونحن أيضًا يا نعسة سيدور بنا الحال وتأتي علينا الدوائر فنصبح مثلها. اسمعي مني أحيانًا المرأة حين يستلب منها حقها تكون على استعداد لسرقته فتتحول من صاحبة حق لسارقة، يامنة فيها من تسرق الخبز أو الحب وأنا أفضل سرقة الاثنين.

ربما كانت نعسة تعلم تلك الحقيقة لكنها لم تتجرأ حتى على إعمال عقلها بالتفكير في أوضاع جدتها آمال، ولذلك لم تبغ مجادلة تهاني في ذلك الحوار مقتضبة إياه صارفة تهاني عنه.

قالت نعسة:

- آه دعينا من هذا كله قولي لي ماذا أهداك والدك من شيء غير موجود في بيوت القرية كلها؟

تهاني متمنعة:

- لا، لن أقول حتى تعتذري عن كلمة سارقة التي وصفتيني بها.
- أنت لست بسارقة يا تهاني أنت صاحبة حق ما رأيك إذًا؟
- إذًا تعالي معي.

داخل حجرة الخدم، تشعر وكأنك انتقلت لعالم آخر من النور والبهاء إلى الظلمة والسواد. في حين أن مجالس السادة كانت عامرة بالمصابيح والفوانيس، انحسر الضوء في حجرة الخدم معتمدًا على فتيل مصباح أو مصباحين معلقين على الجدران التي اسودت بسخام النار، كانت الحجرة فقيرة إلا من حصيرة رثة على عكس السجاجيد التي فرشت بها مجالس البيت وطرقاته. في تلك الحجرة تعرفت خضرا على صديقتها الجديدة التي ما إن رأتها حتى تدارت خوفًا منها تغطي وجهها بشالها وهي تستعيذ من الشيطان الرجيم. ضحكت الفتاة الأخرى:

- أيتها الجبانة، أنا إنسية مثلي مثلك.
- إذًا لماذا تلمع عيناك وأسنانك هكذا؟
- لأنني سوداء تظهر عيوني وأسناني بيض براقين.

- أنت عبدة، لكن العبيد جميعهم رجال، إنها أول مرة أشاهد فيها عبدة.

- نحن لسنا عبيدًا ليكن في علمك، نحن أحرار في بلادنا وأوطاننا أنتم من تقولون عنا عبيدًا. نحن نعمل خدمًا مثلك وعلى هذا فإن كنت أنا عبدة فأنت حتمًا عبدة مثلي.. ما الفرق بيننا؟

- الفرق أنني فاتحة اللون وأنت سوداء كالعبيد.

- لماذا قلت سوداء كالعبيد، ولم تقولي عن نفسك فاتحة كالأسياد؟ لأنك تعلمين أنك مثلي الفرق في أنك عبدة فاتحة اللون، وأنا عبدة غامقة. الفرق يا صديقتي في درجات اللون ليس أكثر لكن في الأصل جميعنا عبيد.

اطمأنت نفس خضرا للفتاة السوداء واقتربت منها ببطء تتحسس بعينيها آدميتها.

- أنا اسمي خضرا، فما اسمك أنت؟

- اسمي زين.

وسط حديث تعارفهما، دخلت الفتاتان نعسة وتهاني بضجيج ضحك تهاني المعروف بجلجلته، حينها صمتت خضرا وزين.

- تعالي يا نعسة وانظري لهدية والدي التي أهداني إياها.

دخلت نعسة متشوقة لرؤية الهدية المميزة:

- ما هذا يا تهاني؟ عبدة سوداء، سبحان الله انظري لها إنها تشبهنا نحن البشر، لها أيدٍ وأرجل ورأس وبداخل الرأس عينان وفم، سبحان ربي الخالق، كنت أظن أن العبيد لا يشبهوننا أو أنهم بشر آخرون ربما يميلون أكثر في الشبه للحمير والبغال.

كانت نعسة تقول كلماتها تلك وهي تقلب في جسد زين ترفع يدها وتخفضها، تثني ساعدها وتفرده، تقرص أذنيها وتشد شعرها وتفرك أنفها. أثناء معاينة نعسة لزين دخلت حجازة وبصوتها الرخيم قالت:

– تعالي يا زين الضيفات يردن مشاهدتك وأطفالهن يصيحون يودون رؤيتك.

ساقت حجازة الفتاة لمجلس النساء اللائي ما إن شاهدنها حتى اكتست الدهشة والإعجاب وجوههن يتعجبن من صنعة الله العظيم. أما الأطفال فقد أحاطوها يرددون «عندنا عبدة، عندنا عبدة، دخلت يامنة عابدة، بداخل يامنة عبدة»، ثم بدأوا يتعاملون مع الفتاة بعنف يزيحونها ويتجاذبونها فيما بينهم وسط تعالي ضحكات أمهاتهم المختلطة بين السخرية والازدراء وبكاء زين.



قسم عبد الجبار العبيد بينه وبين أبنائه وكان لعبد الجبار ثلاثة من الأبناء الذكور أكبرهم هو جابر، وكان جابر يمتلك خمسة أبناء وابنتين، يعمل في تجارة الأقطان على نطاق واسع امتد على طول قطر الصعيد كله ويطمع في إقامة محلج خاص به، كما أنه يتعاون مع عبد الشكور صديقه الصدوق في إبرام الصفقات كوسيط له بين التجار. أما الابن الأوسط فكان همامًا، وهو رجل لم يرزق سوى بتهاني ابنته الوحيدة المدللة ولم ينجب بعدها من أبناء، قلة الذرية خلقت فيه طباعًا كاللامبالاة وعدم الاكتراث فقد كان محدود الطموح والعلاقات الاجتماعية على عكس أخيه جابر.

يقال إن همام تعرض في الماضي لحادث عارض يوم كان يمشي في أحد دروب القرية وإذ بطلق عيار رصاص يقصده كاد يودي بحياته، لكن همامًا لم يمت ساعتها وترك الحادث فيه إعاقة دائمة منعته من الإنجاب.

الابن الأصغر لعبد الجبار كان اسمه عبد الحكيم وهو شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، درس العمارة في إنجلترا بالإضافة لعلوم الشريعة في الأزهر بالقاهرة وهو أكثر أبناء عبد الجبار ورعًا وعلمًا بالدين والدنيا. وكان عبد الحكيم من الأمانة والشرف أن اصطدم كثيرًا مع الجبابرة فلم يتمتع بمودة وقرب من أخويه، ولا عجب لذلك نظرًا لوقوفه معارضًا لكثير من أفعالهما آخذا عليهما ظلمهما في معاملة الخدم والعمال مما صنع توترًا في علاقته بوالده أيضًا

مفضلًا أن يكون بمعزل عنهم، كان عبد الحكيم رافضًا لفكرة الاستحواذ على أي عبد لولا أن أباه عبد الجبار اعترض مهددًا إياه بالطرد والنفي فوافق على مضض.

كان نصيب كل واحد من الأب والأبناء زوجًا من العبيد مهمتهما الحراسة، وقصد آل عبد الجبار في ذلك التباهي والتعاظم بين الخلق. أما العبد التاسع فكان من نصيب الأرض. وكان اسمه عابدًا وهو شاب قوي يتفتق جسده قوة بطول قامة مترين، أشار التاجر إليه أمام الجمع في سوق العبيد وقال «أما هذا فسيجني منه الكثير مقابل القليل».

انتهت أمسية توزيع العبيد وأخيرًا استراح الخدم، وزع خليل على كل خادم صرة بكل واحدة بعض الطعام وجزء من بواقي الوليمة طالبًا منهم أن يدعوا لولي نعمتهم بطول العمر والرخاء، ثم حمل هو صرة عظيمة وذهب بها إلى حجرته في البستان الملاصق للدوار إذ كان لعبد الجبار بستان صغير زرع فيه عدد من عرائش العنب وشجرات برتقال وليمون، وقد من عبد الجبار على خليل بمنزل وهو حجرة واسعة ملحق بها عشة صغيرة، وأعطاه بقرة يرعاها على أن يقتسم خيرها معه كونه الخادم المقرب منه وآل بيته، فلم يكن عبد الجبار ليطمئن على نساء بيته إلا وكن في حماية خليل إن خرجن في زيارة أو أردن الترويح عن أنفسهن في استراحة الجزيرة، والجزيرة أرض صغيرة وسط النيل وضع عبد الجبار يده عليها بالقوة فلم تكن سوى ملك لبعض الصيادين الذين طردهم ورمى بعزالهم في النيل، ثم هدد بإلقاء أبنائهم فيه هم الآخرين إن لم ينصاعوا لأوامره، وقد أعطى لكل صياد عشة بجوار ضفة النيل. ثم جعلها استراحة صيفية له ولأبنائه بنى له فيها منتزلًا من الحجر لا يتأثر بالفيضان، وكان خليل رجل ربع القامة، قوي البنية يناهز الخامسة والخمسين من العمر ذا وجه نقشه البرص بآثار خفيفة تكاد لا تلاحظ ولحية وشاربين ضرب الشيب أطنابهما، ومن دلائل نقصه أنه اعتبر أن كونه مقربًا من عبد الجبار فهذه مكانة خاصة خص بها عن أقرانه وعلى أساسها تكبر في التعامل مع باقي الفلاحين والأجرية معتبرهم درجة أقل منه.

أعطى خليل الطعام لزوجته:

- لقد رزقنا خيرًا وفيرًا الليلة يا أم البنات، قددي بواقي اللحوم في الفرن والطعام السائل اغليه ثلاث مرات كي لا يحمض والفاكهة لفيها في القماش.

- علام كل هذا ولم الطمع؟ كان عليك إحضار قدر امتلاء بطوننا ووزعت الباقي على الفقراء.

- يا لك من حمقاء أولسنا فقراء؟! أي كائن كان يأمل في تلقي نعمة كتلك وأنت أيتها المحدثة السفيهة تطالبينني بتوزيعها.

بدأ يشتد وطيس النقار بين الزوجين وسمعتهما ابنتهما خضرا التي كانت تغسل ملاءتها فقصدتهما لتفك النزاع بينهما، اتجهت الفتاة نحوهما تنزل كميها المرفوعين إلى مرفقيها، يضم جسدها رداء قديم مرقع وممزق وكان ذلك الثوب وثوبان آخران هم ملابسها البيتية، فإذا ما خرجت من البستان ارتدت زيًا أقوم إلى حد ما وأحدث من جلبابها البيتي.

- كفى أنتما الاثنان، تتناقران كأنكما ما زلتما في أوائل شبابكما لقد أصبحتما جدًا وجدة وعلى المرء أن يحترم عمره على الأقل.

ترك خليل زوجته وراح يشتبك مع ابنته فنهرها وأمسك بها من ذراعها طاردًا إياها من الحجرة، منزلًا عقابه عليها بأنها لن تأكل من طيبات الوليمة، ثم طلب من زوجته أن تحضر العشاء له وحده دونها هي أيضًا، ولما وضعت الزوجة الطعام لان قلب خليل فطلب من زوجته أن تحضر خضرا ويأتيا لتناول العشاء معه.

الليل الصيفي قصير، وبدا لعابد أنه لم ينم إلا قليلًا، هواء الصبح في فناء الدار كان رطبًا عليلًا. ظل عابد لدقائق يتأمل ترانيم الطيور الصباحية متنفسًا بعمق، رافعًا قامته باتجاه الشمس ثم خلع قميصه وراح يغتسل بماء حوض الفناء ويتوضأ، بدون أن يشعر بعيون تهاني وهي تراقبه خلسة من وراء عمود في إحدى

شرفات الطابق العلوي؛ كي لا يلحظها أحد من الضيوف الذين طال السهر بهم فباتوا عند مضيفهم تحت العريشة الخضراء، وكانوا نائمين على ألحفة حريرية مغمورة رؤوسهم في وسائد طرية ثلجية البياض. وكان خدمهم نائمين بعضهم على مقاعد الحناطير منطوية أجسامهم إلى نصفين ومنهم من وضع حذاءه أسفل رأسه ونام فوق الأرض لا يفصله عن ترابها من شيء.

بينما كان عابد واقفًا يتأمل اللوحة الصباحية في الفناء الفسيح إذا بخليل الأجير يربت على كتفه سائلًا إياه «هل نمت جيدًا؟» نظر إليه عابد وبابتسامة رضى قال «وهل لأمثالنا وقت للنوم» تنفس بعمق مخرجًا الهواء من رئتيه بتنهيدة «ربما بعد الموت شيء آخر». ضحك خليل مهونًا عليه وهو يقول «إن الفتى القوي للبيت عز أيها الصنديد، هلم لاقتلاع البرسيم بعد أن تشرب شايك وتأكل خبزك». كان خليل كعادته يفتعل التكبر والغرور أمام العبد محاكيًا أسياده بشكل فاشل اكتشفه عابد وسخر منه في سره.

وصل عابد وخليل لحقل البرسيم وكان الحقل يشغل تقريبًا فدادين ثلاثة من الأرض الواسعة جدًا حتى إنك لا ترى مداها أو حدود نهايتها. أشار خليل بعينه للحقل واضعًا يده حول خصره «هذا هو برسيمي». نظر إليه عابد مندهشًا «البرسيم ملكك الخاص، إنه برسيم جيد طويل وكثيف». ضحك خليل قائلًا له «لا يا ولدي أنا أشتغل عند سيدي عبد الجبار منذ خمسة وعشرين عامًا والقسم الأكبر من الأرض فلحته بيدي ومن ضمنها هذا البرسيم.. هيا يا سبع هات من البرسيم ما قدرت».

تفحص عابد المنجل وانكب على العمل، حاول خليل إيجاد خطأ في عمل عابد لكنه لم يجد بل وجد من الحرفية ما يكاد يفوقه وكأنه حلاق يجز جزًا في فروة خروف. الجو في حقل البرسيم خانق والهواء ساخن وقد تصبب عابد عرقًا غزيرًا لكنه لم ينفك عن العمل، مكومًا أغمار البرسيم على جنب. فجأة رأى فتاة تقف ليس بعيد عنه عند جدول الماء تراقبه خلسة على رأسها شال خفيف، كانت الفتاة في ثوب من الشيت العتيق لا يليق بمحياها الجميل، بجانبها دلو ماء. لم ينقطع

عابد عن النظر إليها، كلما استقام كانت نظراته تنقاد بلا إرادة نحوها وتتوقف عندها وكانت الفتاة حسناء حقيقية، فارعة الطول، يافعة جدًا، هيفاء القد ونحيفة الخصر مثل غصن صفصاف في صباه، ذات ضفائر طويلة فاحمة السواد وقصة شعر منسدلة على جبينها فوق وجه أبيض طلي يشع كوردة بيضاء.

رمى عابد المنجل ليمسح عرقه ناظرًا للفتاة في تلك المرة بجرأة أكبر، استحت الفتاة مغطية وجهها بالشال بعد أن انبعثت على محياها ابتسامة خفيفة خافتة لا ترى بالعين رآها عابد بعين قلبه. انحنت الفتاة آخذة الدلو لتمضي في طريقها بينما كان عابد يراقبها حتى توارت، ولسبب ما يجهله خرجت من سويداء قلب الفتى تنهيدة عميقة.. كانت الفتاة هي خضرا ابنة الأجير خليل خادمة نعسة في دار جابر.



مع الظهر كان الضيوف قد رحلوا واحدًا تلو آخر آخذين معهم هدايا عبد الجبار من الحناء والتمر هندي والعرق سوس، بالإضافة إلى المشغولات اليدوية والطواقي السودانية ومقاطف الفول والتمر وما شابه من القمح والغلال. ولما هم جابر بالرحيل هو وزوجته توسلت نعسة عند والدها أن تبقى ليومين آخرين في بيت جدها كي تنعم برفقة صديقتها وابنة عمها تهاني، وقد وافق الوالد على عدم رغبة من الأم وذلك لتوتر العلاقة بينها وبين رئيسة والدة تهاني.

وجدت تهاني ونعسة أن العريشة بعد أن انفضت من الضيوف قد أصبحت مرتعًا مناسبًا لجلسة رائقة وحديث صبايا يبحن فيه عن مكنون قلوبهن وخبايا ما بين حنايا نفوسهن، في الوقت الذي كانت فيه الفتاة ممنوعة بحكم العادات من البوح.

اتكأت تهاني مستندة على مرفقها فوق إحدى الأرائك مميلة بجانبها الأيمن ناحية سور العريشة المصنوع من البوص المتباعد والمدلى فوقه عرائش العنب، كان

السور مخرمًا بحيث إن من بداخل العريشة يستطيع مراقبة من خارجها، تراقب خلسة أحد العبيد الجالسين على إحدى أعتاب الدار منتظرًا أمر سيده وقد أحست تهاني منه عدم ارتياح.

- لقد امتلأ البيت بالعبيد يا نعسة حتى إنني بدأت أظن أنهم فاقوا أهل الدار عددًا، كلما مرقت بنظري وجدت واحدًا. وجدي الذي كان من قبل حريصًا على وجوب عدم انكشاف أهل بيته على رجل غريب ولا لأي رجل أن يكشفهن ها هو لا يبالي بانتشارهم الفج.

- جدي يقول أن العبيد ليسوا ببشر مثلنا أو ربما مثلنا ولكنهم من سلالة أخرى؛ لذا لا ضرر من انتشارهم بين أهل الدار.

- هل رأيت عبد الأرض يا نعسة؟

- لا لم أره. كيف يكون؟

- إنه شاب جميل ذو وجه سموح لا يشبه وجوه باقي عبيد الأسياد الغبرة، عيونه متألقة لا ترين فيها نظرة خضوع العبيد، مستقيم القامة مرفوع الرأس كأنه حر.

- احذري يا تهاني. أنت ترينهم عبيدًا خانعين لكن ما أدراك بنفوسهم. إنهم يضمرون لنا الغل كله والحقد، بالأمس النسوة كن يضحكن على زين ويهزأن بها، لو أنك يا ابنة عمي شاهدت نظرتها وما أضمرت فيها علينا أثناء بكائها لارتعدت خوفًا، لقد كانت عيناها تشتعلان كرهًا وتتقدان. ان هذا العبد الذي ترينه أمامك الآن انظري إليه وكيف يحدق في الأرض يكاد يثقبها بعينيه الجاحظتين.

بينما هما يثرثران إذ بهما يسمعان صوت بكاء ونحيب، خرجت الفتاتان تتفقدان الأمر فوجدا زيدان السقا جالسًا بجانب قربته يمسح بطرف كمه عينيه الدامعتين وهو يعدد ويولول، أقبلت الفتاتان نحوه تسألانه عن حاله.

– ما بك يا زيدان؟

– لا شيء يا ست تهاني، هذا العبد بشير، عبد سيدي عبد الجبار أوقعني بقربة الماء عامدًا متعمدًا ولم أخطئ بحقه وهو الذي عليه الحق، وقف أمامي مهددًا إياي وقال املأها ثانية أو افعل ما شئت إن استطعت، هو قوي وأنا ضعيف فلم أعاتبه أو أحتك به وذهبت لسيدي عبد الجبار شاكيًا له، تخيلي يا ست البنات ماذا قال؟ لقد قال عبد السيد هو سيد الخدم وما دام قال لك املأها فعليك ملؤها. أنا لا أبكي من ضربة عبد السيد القوية على جسدي النحيل بل أبكي من ظلم سيدي لي، وأنا الذي عشت ومن قبلي أبي ومن قبل أبي جدودي خدمًا لداره وأهله حتى تحدبت ظهورنا. ينصف عبدًا عليّ ما خدمه بشيء إلا كونه عبد سيد يختال به، فهل ذلك عدل يا أهل الدار؟

أشفقت الفتاتان على زيدان الذي بدا من نبرة صوته المتحشرجة ما شعر به من ألم مشوب بعشم كوى صدره، ومراضاة له وتطييبًا لخاطره دخلت تهاني العريشة جالبة أطباق الحلوى والفاكهة تأخذ منها وتملأ جيوب زيدان، وهو فرح وسعيد يدعو لها بجبر الخاطر كما جبرت بخاطره.

خرجت حجازة من الشطر النسائي للمنزل وما إن لمحتها الفتاتان حتى هبتا ناحية العريشة كما كانتا جالستين، وقبل أن تدخل حجازة العريشة وكعادتها في تفحص الأماكن بكل زاوية فيها وهي من على بابها وقفت حجازة لنصف دقيقة تدرس المكان ثم دخلت تمشي بخطوات ثابتة. جلست الجدة متوسطة الفتاتين اللتين تبادلتا نظرات الضيق تغمزان بعضهما لبعضٍ من وراء ظهرها وتتلامزان؛ وذلك لوجود الجدة غير المستحب وقد أدنت منها أطباق الفاكهة والحلوى غير آبهة بغيرها. دقائق ثم أتت زين تستأذن للدخول تحمل طبقًا نحاسيًا عريضًا، جلست زين بجانب حجازة ثم أخرجت على مهل ما في الطبق. سألت تهاني:

– أليست زين هي خادمتي يا جدة؟

وبدون أن تلتفت إليها ووسط انشغالها بتقشير الفول السوداني قالت حجازة:

- هي خادمتك، صحيح، ولكن جميعكم عندي خدم بما فيهم أنت يا ذات اللسان الطويل، لذا فإن خادمة الخادمة خادمتي أيضًا.

قرصت نعسة كتف تهاني من وراء ظهر الجدة حتى تكف عن مجادلتها لأن الجدال مع الجدة غير سليم العواقب، ففي الشهر الماضي حبست تهاني لمدة ثلاثة أيام في حجرة حسنة لمجرد أنها دافعت عن حق أمها في أن يكون لها منزل منفصل كما لزوجة عمها جابر.

مدت حجازة ساقيها وقبل أن تبدأ زين بفتح البرطمانات صاحت حجازة «لا، لن تلمسني عبدة، اذهبي يا زين وابعثي بخضرا». سألت نعسة «وما تلك البرطمانات يا جدة؟» ردت حجازة بثقة «لبخة سودانية لسحب الرطوبة من الجسد». مدت نعسة يدها لكن نظرة حجازة زجرتها فسحبتها سريعًا.

سألت تهاني مناوشة «يقولون أنه سوف يستبدل اسم يامنة باسم الجبابرة». تنهدت حجازة تنهيدة طويلة ثم قالت «آه يكفينا من يامنة ما أخذنا، إن من حفروا مجرى النيل هم جدود الجبابرة ذات أنفسهم ثم يأتي الزمن الذي يوصمنا العار فيه بيامنة». وبسذاجتها في الحديث سألت نعسة «وهل بالفعل من حفر النيل هم الجبابرة؟ ولمَ لا نأخذ نحن أجرة سقاية كل هؤلاء الخلق؟» أسبلت حجازة جفنيها وهي تجيب «من كرمنا». استرسلت نعسة في الحديث «ولماذا حفر الجبابرة نيلًا واحدًا ولم يحفروا اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة؟» كانت تتكلم وهي تعد على أصابع يدها.

أطرقت حجازة رأسها كما لو كان السؤال قد استعصى عليها وهي الآن تفكر فيه، ثم أجابت بحماسة «كانوا سيفعلون لكنهم لم يجدوا أرضًا صالحة ومساحة كافية لنيل جديد». فتحت تهاني فمها ورفعت حاجبيها في إشارة استخفاف منها بما تقوله حجازة من خرافات ثم سألت «دعك من قصة حفر النيل فهي بعيدة وقصي لنا واحدة أقرب على الأقل عاصرتها ولتكن قصة يامنة والعبد».

تحسست حجازة بجانبها تبحث عن شيء ما تضرب به تهاني وهي تنهرها قائلة «ارحلي، ارحلي». وجدت حجازة نشو رمان رفعته باتجاه تهاني وهي تصرخ في وجهها «ألم آمر في هذا البيت من قبل بعدم ذكر يامنة والعبد، ألم آمر بذلك؟» فرت الفتاتان هاربتين تصرخ نعسة بينما تصدح ضحكات تهاني.



-٣-

الشمس تدنو من الأرض يكاد يخرج صهج حممها على السطح ولا صوت يسمع؛ فكل الأحياء لجأت للظل وخلدت لغفوة القيلولة. فقط صوت دقات فأس عابد في قلب الأرض كانت تصدح في المدى، لما كلف به غير جز البرسيم وهو اقتلاع الجذامير على مساحة تقارب الفدان. بدأ التعب يتسرب تدريجيًا نحو عابد الذي كانت عيناه من الجوع تزوغان، فكر عابد أنهم على الأرجح قد نسوه فلا أحد أتاه بالطعام.

انتصف النهار وفي هذا الوقت لاح خليل يحمل إبريق شاي ولفة بها خبز وجبن منقوع في المش وحبتا طماطم وعنقود عنب، صاح خليل:

- هيا اترك العمل، ستحترق حتمًا أسفل تلك الشمس.

جال خليل بنظره على الأرض المحفورة وعلى الجذامير الحرشة المكومة وهز رأسه متعجبًا «هذا الفتى ما أقدره!» جلسا أسفل ظل شجرة مورقة وأثناء تناولهما الغداء أخذا يتجاذبان حديثًا بدأه خليل:

- هذا العمل ينهك الإنسان.

- صحيح يا عم خليل لكن بدونه الموت سيكون أولى بنا، إنما نحيا به وعليه.

أخرج عابد من قلبه تنهيدة عميقة ثم قال:

- لكن هنالك من لا يعمل ويحيا أحسن حياة.

- احمد الله يا بني أن وهبك الصحة التي تشقى بها.

تمدد خليل على الأرض باسطًا وجهه نحو السماء مشبكًا أصابع يديه فوق صدره.

- يبدو أن الضيوف قد أتعبوك يا عم خليل.

- لا بالعكس إنما أشغالي الأخرى وما أكثر ما فعلته منها هذا النهار، في الصباح حملت العربة سمادًا ونقلته لأرضنا الرئيسية وفي طريق العودة شيلتها ذاك البرسيم الذي اقتلعته أنت صباحًا، ثم وردت غلالًا فوق نفس العربة لمنزلنا الكبير حصلنا عليها بالمجان تقريبًا من أحد التجار الذي اتفق سيدي عبد الجبار معه على دفعها مقسطة.

- عجيبة هي الدنيا فالناس الأغنياء يحضرون كل شيء في أوانه ولا يدفعون إلا أبخس الأثمان، بينما على العكس الفقراء لا يشترون إلا عند الحاجة القصوى ويدفعون ثلاثة أضعاف الثمن.. لكن معنى كلامك هذا أن الحاج عبد الجبار يمتلك أرضًا أخرى في غير هذا المكان؟

- كثيرًا، كثيرًا يا ولدي إن ما تراه هو جزء يسير.

- تتكلم حين تذكر أرضه بنون الجمع بينكما، هل تمت للسيد بصلة قرابة؟

ضحك خليل وهو ينهض ليجلس ممددًا يديه فوق رجليه.

- إنما أقول ذلك بسبب صلة قرابتي بالأرض وليس بسيدها. كنت من قبل أعمل عند سيد آخر ربما منذ خمسة وعشرين عامًا في بلد أخرى، وأنا ابن وحيد يتيم لرجل جاء من أقصى الشمال لا أحد يعرف له أهلًا، كان يعمل بناءً تزوج أمي ومات بعدها بعامين، سقطت فوق رأسه سقالة خشبية، قالت لي أمي أن بلده تقطن بجوار البحر الكبير هذا البحر الذي نسمع عن اتساعه وموجه، وعيت مذ وعيت بلا أم ولا أب ولا أخ ولا عم، رباني جدي وكان لي خال مات وآخر هج وطفش خوفًا من الثأر وخالات تزوجن فتفرقن.

تعلمت الفلاحة وبعد أن مات سيدي خلفه كلاب بددوا ثروته وكأن سيلًا قد جرفها، باعوا الأرض وأنت تعلم أن الثروة إن حوتها الصناديق نفدت، آه لو كان بيدي خمس ما ضاع لكن «لو» من الشيطان عاذنا الله منه. سيدي السابق كان

صديقًا لسيدي الحالي وقد أخذني هو لما سمعه عني من أمانة ونزاهة في العمل، وهنا في يامنة تزوجت زوجتي ورزقت منها بثلاث بنات، نحمد الله على ما رزق وهل بيد المرء أن يرزق نفسه؟ زوجت اثنتين منهن ويا ليتني ما فعلت فقد نقلتهما من دار الفقر لدار العوز، إن زواج الفتيات الفقيرات من فقراء مثلهن من أجل إنجاب سلالة فقيرة إنما هو الظلم بحق. الحمد لله على كل شيء إن الحياة تجري أسرع من الماء في الترعة التي أمامك تلك، سنموت عاجلًا أم آجلًا وسنستريح. وأنت يا عابد ما حكايتك؟ ثم إننا نفهم كلامكم وتفهمون كلامنا؟

قال عابد بأسى:

- لم نكن عبيدًا أو خدمًا إنما فقراء، فقراء فقط كان لدينا قطعة أرض في بلادنا البعيدة بين أسوان والسودان، وكل جماعة في قرانا لها لغتها بجانب لغة الكتاب التي نحفظ بها القرآن ونتعامل بها مع المصريين في الأسواق والتجارة. مات الوالد ومرضت الأم وساءت بعدها الأحوال فبعنا الأرض، لم يكن هنالك مخرج آخر بعد تراكم الديون، لم يترك لنا والدي شيئًا يتوقف عنده النظر سوى رقعة الأرض تلك فبعناها، ماتت الأم بحسرتها، كنا نعيش أنا وأختي فقراء في بلد الفقر حياة قفر بلا عمل، وما دام لا عمل فلا نقود ولا طعام. سلمت نفسي وأختي لتاجر العمال، اسمه عندنا تاجر العمال وليس الرقيق ولو كنا نمتلك قوت يومنا لصبرنا وفضلنا العيش في بلادنا، لكنه الجوع إذ قرصنا ورمانا على اللجوء للاحتماء بقيود العبودية عوضًا عن الموت، وها نحن هنا وإن اختلف أننا أمسينا عبيدًا في بلد الأغنياء.

قال خليل معقبًا:

- إن التراب الذي في الأرض خير من الثروة ذاتها لكن المحن القاسية ما لنا يد فيها فهي قادرة على حني الظهور وإمالة الرؤوس، لا عليك يا بني يحدث للتجار ذات أنفسهم أن يصابوا بالضائقات.

كان بداخل عابد سؤال ملح لكن تعففه منعه من الإفصاح عنه وهو الاستفسار عن أجرته، فسأل خليلًا بطريق غير مباشر:

- إنك على الأرجح تنال من المالك أجرًا سنويًا لا بأس به.

سأله عابد متطلعًا إجابته، أجابه خليل:

- أنا والله ما ساومت يومًا أو جادلت ولا طلبت شيئًا لقاء خدماتي يعطونني ما يسمح به ضميرهم، نعيش أنا وزوجتي وابنتي في الصيف تحت سقيفة في بستان الحاج، وفي الشتاء يمنون علينا بحجرة بجوار المنزل الكبير بداخل الدوار وليس في الدار ذاته، الشتاء في البستان لا يحتمل لقد ضيع مني ثلاثة أبناء، وقفت أمامي زوجتي وقالت الأولاد يموتون من البرد اطلب لنا منزلًا من الحاج، قلت لها إنه القضاء والقدر وليس للبرد دخل في موت الأبناء ليس علينا الطمع، لكنها صممت وغضبت عند أهلها شهرين ولم ترجع لي إلا حينما أصبح لي حجرة بداخل الدوار مسقوفة وآمنة، ولقد كانت على حق إذ أنجبنا بناتنا الثلاثة بعدها ولم تمت منهن واحدة. أحيانًا نتذوق من جود طعامهم وفي الأغلب أننا نطبخ في قدرنا الخاص وهو وإن كان غير دسم فهو قدرنا. زوجتي تعمل في الدار الكبير وابنتي تعمل في دار الحاج جابر ابن الحاج عبد الجبار. على كل حال نحمد الله أننا نعمل من الأساس، وهل بقلة هم من يملأون الشوارع يتسولون اللقمة؟



ما بين عمل وعمل، ولهو وصخب انقضى يوم الخدم وأهل الدار. محاذاة للمشاق التي تكبدها عابد في الأرض منذ إشراقة ذلك اليوم وحتى غروبها، كان عبيد السادة يخوضون في الراحة في فسحات منزل عبد الجبار ومنزل جابر بين الطرقات وعبر الحجرات، مسكرين في النعيم الذي ما حلموا به وفاق تصورهم، فلم يتوقعوا على أحسن الظروف وضعًا كمثل ذلك الوضع.

جلب عبيد الأسياد إلى يامنة مثلهم مثل عابد فقراء معدمين لا يجدون الفتات ولكن حين وقفوا بين يدي سادتهم تغير الحال. ألقى فيهم عبد الجبار فرمانًا بواجباتهم قائلًا «أنتم عبيد السادة، وجاهة الشرفاء ووسامة سجاياهم، كل نعمة عليكم ظاهرة إنما تدل على نعم مضاعفة لدى مالككم خافية وكل عز وكبرياء علاكم إنما نبأ عن عز وكبرياء أسيادكم. ستأكلون من طعام السادة وسترتدون كمثل ملابسهم وستنامون في نفس دورهم على فراش يماثل فراشهم، ستمسكون السلاح ترهبون به عدونا وسننعم على أيديكم حرية البطش وعلى أفواهكم حرية الأمر على كل خادم وعبد أرض».

وقد وزع العبيد على النحو التالي، بشير وريحان من نصيب عبد الجبار، خبير ومرشد من نصيب جابر، مرسال وقمصان من نصيب همام، أما جوهر وفضل فقد كانا من نصيب عبد الحكيم، وقد رفض عبد الحكيم رفضًا تامًا أن يكون له نصيب من العبيد لكنه بعد ترغيب تلاه تهديد من الوالد عبد الجبار رضي بأن يأخذ عبدًا واحدًا وهو جوهر وإعطاء العبد الآخر لعبد الجبار ابن أخيه الأكبر على أن لا يسافر معه العبد ولا بأس إن لازمه في يامنة.

مضى أسبوع ليس على عبيد السادة من واجبات سوى التهام صواني الطعام المقدم لهم بشهية كبيرة، والقعود أسفل العرائش حيث الألحفة الحريرية الممددة على جوانب سجادة حمراء افترشت بها الأرض، يتكئون على الأرائك الريشية يثرثرون فيما يحتسون الشاي، يعمل على خدمتهم خدم الدار فقد كان زيدان يرش لهم الفناء بالماء فينتقلون من العريشة إلى المصطبة الفسيحة التي تظللها أشجار الجميز، حتى يظهر أسيادهم فيخلف كل عبدين سيدهما إذا ما انتقل لأي مكان، وكان واضحًا للعيان أن القيمة الوحيدة لهؤلاء العبيد تكمن في ضخامة الأجساد والعملقة وحدة تعابير الوجه؛ لذا فلم يخافهم العاقل من أهل يامنة بينما أرعبت هيئتهم أصحاب العقول الصغيرة والجبناء بطبيعتهم إذ كانوا يهربون مسرعين اذا رأوهم.

وكان عابد يعمل كعشرة رجال في الأرض يساعد خليلًا أحيانًا في نقل عربات الزبل وسقاية مواشي الحظيرة، وأحيانًا يعمل في عزق الأرض أو الحصاد ومن فينة لفينة تمر من أمامه الفتاة التي رآها من قبل في الحقل، وقد استقصى عنها بحذر وعلم أنها خضرا ابنة خليل، كانت رؤية خضرا ولسبب مجهول منه تسر روحه وتبهج سريرته، وقد حرص عابد على أن يعرف خليل بأن زين هي أخته حتى يتسنى له الوصول لأخبارها من خلال زوجة خليل وابنته.



-٤-

في يوم وأثناء مرور عابد استوقفه بشير، وهو العبد الذي ولوه بقية العبيد زعامتهم لما تميز به من مكر ودهاء في العقل وغلظة وسواد في القلب، قال لعابد وهو يمسد بيده كرشه المنتفخ:

- وجهك تعيس يا عابد وكأنك نادم على كونك أصبحت عبد أرض وليس عبد سيد.

محدقًا فيه بعينين حادتين قال عابد:

- إن كوني عبد أرض لهو أشرف عندي من أن أكون عبد سيد. جعل الله الأرض سببًا من أسباب وجودي إنما أسيادكم هؤلاء بماذا يمنون عليكم وأساميكم لا تزال ملتصقة بصفة العبد.

أثار كلام عابد في نفس بشير الغيظ والحقد فانقض بشير على عابد فأطبق الثاني على تلابيبه بحركة سريعة جارًا إياه من ياقة جلبابه حتى حصره إلى الجدار، ضم عابد كف يده موجهًا ضرباته نحو جسد بشير كله بلا تمييز. كان ذلك على مسمع ومرأى من باقي العبيد الذين وجدوا أنه لو ظل الأمر على هذا النحو ولمدة دقيقة أخرى ستظهر علامات ضرب عابد لبشير، ولربما فقد قيمته بسببها أمام سيده واستبدله بعابد. وقد كره العبيد عابدًا لعزة نفسه وأمانته وحسن خصاله ولأنه رجل لا يرضى بالضيم والمهانة أبدًا، يودون لو كان عابد مثلهم، على استعداد أن يميلون وجوههم لأسيادهم مبدين المذلة والخنوع لقاء ملبس جديد وطعام مشبع ولا شيء أكثر.



صرح جابر في وقت لاحق لنعسة بأن تقضي يومين فقط عند جدها في المنزل الكبير مع تهاني آخذة معها خضرا على أن تبعث بوالدتها لخدمة زوجته عوضًا عنها. لكن اليومين امتدا لأسبوعين مكثت فيهما الفتاتان بجوار عمهما عبد الحكيم، ينهلان من وده وعطفه عليهما. كان عبد الحكيم إنسانًا رحيمًا، رفيقًا بالخدم ما نهر خادمًا ولا ساوم في أجرة عامل، سخي اليد، لين اللسان، بشوش الوجه طيب القلب، وكان بنفس الشكل مع إخوته عطوفًا على الإناث وبنات إخوانه مفضلًا القيمة الإنسانية عن المادية، معليًا الوجدان القلبي عن الطغيان البدني والعلم عن الجهل، على عكس همام وجابر اللذين غلب عليهما غلاظة القلب وقساوة الطبع يلهثان خلف المتعة المادية في التكبر والتسلط، لذا أحبت تهاني ونعسة عمهما حبًا جمًا وكانتا إذا ما جلستا إليه فاضتا بمكنوناتهما معطيهما هو الأمان محثهما على التعبير عن نفسيهما وإبداء آرائهما.

وقد أخذ عبد الحكيم على عاتقه مهمة تعليم نعسة وتهاني فتعلمت الفتاتان على يده القراءة والكتابة رغمًا عن رفض والديهما وجدهما. وقد أبدت تهاني تطورًا وحبًا في العلم أكثر من نعسة، التي اكتفت بالقراءة والكتابة بمستوى متوسط مفتقرة لملكة الإبداع وتطوير الذات، على عكس تهاني التي كانت قوية الفهم، سريعة البديهة ونهمة الثقافة حتى إنها لم تتوقف عند حد تعلم القراءة والكتابة كما فعلت نعسة، بل شجعت عمها على تعليمها اللغة الإنجليزية وقد أجادت فيها. لم يبخل عليها عبد الحكيم بالمعرفة يعيرها من كتبه ويدخر لها جميع الجرائد والمجلات التي اشتراها.

تفتح عقل تهاني واتسعت دائرة خبرة عقلها وتعدت أفكارها حدود «يامنة». قد أصاب في طبعها نزعة تمردية وميلًا دائمًا للرفض. وقد أيدها في نزعتها تلك عمها عبد الحكيم المهندس والفقيه الأزهري، الشاب المثقف الذي نهل من العلم ما بين مصر وأوروبا فأخذ من الأزهر استقامة الفقهاء ومن جامعات بريطانيا تفتح العقل الأوروبي. لكن تهاني كانت على غير عمها بحكم كونها أنثى في بلد العبيد والظالمين مكبوت رفضها وملجم بوحها، خلق هذا فيها بعض السلوكيات المتطرفة

عن أخلاق الفتاة الصالحة في عرف «يامنة».. فمن عرفنها من كثب من النساء رأينها فتاة لعوبًا يتحاشينها ويجنبن بناتهن عنها، وكان شبابهم يرونها فتاة شهية شبقة مولعة بالوشوشة إلى الضيوف من أبناء عمومتها وأبناء أخوالها وإلى الشباب عمومًا في أي فرصة قد تواتيها، بالرغم من أن أحدًا منهم لم ينل منها وعدًا أو قربًا أكثر من ابتسامة جلية تخبر عن حب جارف أو نظرة صريحة تفصح عن شوق جامح باحترافية سارقة قلوب وخبرة سالبة عقول.

كما غلب على طبع تهاني الطيش والمكر متعايشين مع الكبر والغطرسة وجموح الأهواء، وإن كانت تنضبط في حضور كبار رجال العائلة فإنها في غيابهم تجمح وتتشاحن مع الكل ولأوهى الأسباب بغضب جموح عاصف كمرحها في أحيان أخرى.

كانت تهاني مدللة عند أمها وأبيها لكونها ابنة وحيدة فمنذ صغرها اكتنزا لها من الصناديق الممتلئة بالملابس والخواتم والأساور ومشابك الشعر على اختلاف أنواعها وأشكالها، إلا أنها لم تكن ككل الفتيات في عمرها تحب الزينة والذهب والملابس، وذلك لأن نزعتها الرافضة لم تستوعب فكرة أن تثقل فتاة واحدة بكل هذا الكم من الزينة في وقت لا تجد فيه مئات النساء في يامنة ما يتسترن به بسبب العوز والقلة، وكانت تندهش أيما اندهاش وتقول لنفسها «سوف أموت قبل أن يهلك نصف ذلك الشوار ولن أستخدم غير ما أحتاجه، ما قيمة الشيء إذًا إن لم نكن نحتاجه؟» وبسبب قناعاتها الفكرية والحسية كانت تهاني تتناقر مع والدتها بسبب ما كانت تهيله لها في جهازها مدخرة إياه لليوم الموعود بما يتناسب مع وضع والدها مما يكفي لتجهيز عشرات الفتيات من العامة.

بالنسبة لنعسة فقد كانت على عكس تهاني فتاة بمواصفات «يامنة» فتاة مثالية ضعيفة القلب، دائمة الارتجاف والخوف حد الإغماء من كل صوت عالٍ أو مفاجئ حتى لو كان صوت زقزقة عصافير مرت في سرب فوق رأسها. لم تكن نعسة تملك سلطة الرفض ولا قوة الصد، مستسلمة بطبعها لأي قرار يتخذه أبوها أو أحد من إخوانها وفي مقدمتهم بالطبع جدها، خجولة من أن ترفع حتى ناظرها نحو غريب. أفكار نعسة كلها كانت تتجه نحو الزواج ومشاعرها مائلة باتجاه من سينحني

رأسها أسفل قدميه تخلع عنه حذاءه أيًا كان من يكون، المهم أن يكون زوجًا قد لاقى قبول أبيها وجدها وإخوانها الذكور، لا تحلم إلا بالعرس ولا تنتبه إلا لحديث النساء إذا اجتمعن وتكلمن عن الخطاب وحفلات الزفاف.

لم تكن نعسة تملك من فنون المكر إلا نوعًا واحدًا وهو التظاهر بأن أمر الزواج لا يهمها بشيء، وكانت تجيب إذا فتحت إحدى زوجات إخوانها الأمر أمامها «مناي أن أبقى تحت جناح والدتي أطول مدة، وليس من الضروري التعجل في تلك الأمور». بينما كانت قهقهات زوجات إخوانها حين يهمسن إليها بأنهن سمعن أن خاطبًا يود طلب يدها من عائلة الكوامل أو عائلة الطحاوي وربما من القرى المجاورة تسحر خيالها، فتقضي الليالي ساهرة ترسم في أحلامها خيال ذلك اليوم الموعود، ومن جانب آخر لم تكن طموحات تهاني تنحصر في الزواج، بل إن الزواج في ناظرها كان تحصيل حاصل وامتداد لحياة كانت تعيشها في منزل والدها بنفس درجة الكبت والقمع.

الفتيات كن يتزوجن عند السن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة؛ لذا كان الغم يعكر قلب الجد عبد الجبار لحال حفيدتيه اللتين وصلتا لعمر الثامنة عشرة ولم يتقدم لهما من العرسان ما يليق بمقامه، إن العريس يجب أن يكون من عائلة غنية ومحترمة وأن يتحلى إلى جانب ذلك بالعقل والجدية وحسن التربية، أما الشباب فقد كانوا يرون تهاني مؤهلة جدًا أن تكون زوجة جيدة قادرة على إسعاد زوجها لكنها لا ترتقي لتكون أمًا صالحة تنشئ الأبناء على الخشونة والقسوة والبنات على الخنوع والرضى، أما نعسة فهي تصلح لكونها أمًا لكنها غير مرغوبة كزوجة وذلك لضعفها وشحوب لونها وفقرها لروح البهجة والسرور المحترفة فيهما تهاني.



لم يشغل بال تهاني ونعسة طوال الأسبوعين الماضيين سوى هم واحد وهو معرفة قصة يامنة والعبد؛ فالكل يتناقلها من حولهما بهمس مبهم منذ مجيء العبيد تارة بالنظرات وتارة أخرى بالتلميحات وذلك مع مرور أو غدو كل عبد. كانت الأجواء

تتنفس بحكاية يامنة والعبد تطغى على الهواء من حولهما. لم تستطع تهاني أو نعسة تفسير أي إيماءة أو إشارة فالطلاسم كانت معقدة والتلميحات غامضة. في يوم وشوشت تهاني لزيدان بأن يتحرى خبر تلك الرواية. طال انتظار الفتاتين ولأن العبيد كانوا منتشرين استصعب على تهاني التنحي جانبًا للتحدث مع زيدان.

في آخر ليلة كانت ستبيتها نعسة مع تهاني قبل سفر عمهما عبد الحكيم للقاهرة غداة اليوم التالي قررت الفتاتان تنفيذ ما عزمتا عليه. أوى الجميع للنوم ما عدا الفتاتين اللتين ظلتا يتسامران يتزعم محور حديثهما العبيد، قالت تهاني:

- هل لاحظت يا نعسة ما لاحظته أنا من عبيد الأسياد؟

- نعم إن كل يوم تزداد هيبتهم وسطوتهم عن اليوم السابق حتى إنني أصبحت أخاف منهم مثل خوفي من جدي وأبي وعمي. إنهم يرتدون مثلما يرتدي رجال الجبابرة ويأكلون من نفس الطعام، ينامون على عكس باقي الخدم فوق أسرة مفروشة في حجرات بداخل ديارنا، تقول عوالي زوجة خليل أنهم لو ظلوا يأكلون على هذا الحال ولمدة عام آخر سوف تنفذ حظائر يامنة جميعها وصوامع غلالها.

- إنهم لا يأكلون خزائننا فقط بل لحومنا أيضًا، إن عيونهم نهمة ما إن تقع على واحدة من نساء الدار حتى تنغرس أنيابها فيها، ثم هذا الذي يدعى بشير..........

صمتت تهاني.

- ما به؟

- لا شيء، هل تسمعين شيئًا ما بالخارج؟

لم يتوصل زيدان لحقيقة قصة يامنة والعبد فقد كان لكل واحد في القرية رواية حاكها بما يسمح به خياله ويتسع، حتى اتخذت الحقيقة ضربًا آخر أشبه بالأسطورة يتناقلها المداحين في الموالد والأعراس.. الحقيقة الصادقة الكاملة لا يعرفها سوى الجبابرة ذات أنفسهم ومشعوذة البلدة والتي عاصرت الحكاية على مرأى ومسمع

منها. لم يستطع زيدان أن يوصل تلك المعلومة لتهاني فانتظر حتى غابت الشمس ونامت الأنام ثم جفل لمنزل عبد الجبار، ومن أسفل حجرة تهاني في حديقة المنزل راح زيدان يحرك شجرة قريبة فنتج عن احتكاك أوراقها حفيف مسموع انتبهت إليه الفتاتان. نظرت تهاني من الشرفة فوجدت زيدان بالأسفل، أشارت له أن ينتظرها ثم طلبت من نعسة أن ترافقها لخارج الدار كي يقابلا زيدان، لكن نعسة ارتجفت فرائصها خوفًا متعلقة بجلباب تهاني تستعطفها «أرجوك لا تفعلي، إنه لمن الأسلم لو توخينا الحذر، لا تخرجي من الدار فلو شاهدك أحد من رجال الدار سيقتلع رأسك لا محالة، ما عدت أود معرفة قصة يامنة والعبد، هل ستطيل أعمارنا إن عرفناها أو تنقص منها إن لم نعرفها؟» شدت تهاني طرف جلبابها بقوة تنهر نعسة «جبانة، يومًا ما ستموتين من الخوف، سأذهب أنا». توسلت إليها نعسة مرة أخرى «أرجوك يا تهاني إن شاهدك أحد لا تذكريني». امتعض وجه تهاني وغربت من أمامها سريعًا تاركة خلفها نعسة تبكي وترتجف.

خارج الدار عند الشجرة التقت تهاني بزيدان:

- كيف حالك يا ست تهاني؟

بعصبية قالت:

- قل ما عندك سريعًا قبل أن يرانا واحد من أهل الدار أو الخدم، هل تراني قد أتيتك بعكاز لتسألني عن حالي!

- هنالك واحدة فقط تستطيع إخبارك بالحقيقة كاملة دون نقص أو مبالغة، إنها مشعوذة القرية.

صمتت تهاني لثوانٍ.

- كيف الوصول إليها تلك؟

ثم جاءتها الفكرة سريعًا، خلعت قرطيها وقالت لزيدان:

- اسمع، خذ حلقي واذهب به للساحرة وأخبرها إن أتينا إليها أنا ونعسة أن ترفض مقابلة أحد غيرنا لو كانت واحدة من نساء الجبابرة.

لمح زيدان بشيرًا آتيًا نحوهما فأخذ القرطين سريعًا وفزع هاربًا. اتجه بشير نحو تهاني قائلًا:

- ماذا تفعلين هنا؟

دحرت تهاني عينيها نحوه وقالت:

- وما خصك يا كلب سيدك أليس من المفترض أن تكون مرابطًا بجانبه؟

انسابت عينا العبد مع منحنيات جسد تهاني بشكل فج ترمقها بنظرة فاحصة، منحوتة فوق شفتيه ابتسامة ماكرة. ولت تهاني عنه راجعة من حيث أتت فأمسك بذراعها مديرًا إياها باتجاهه. هنا ولأول مرة في حياتها أحست تهاني بالخوف، أغمضت عينيها متمالكة قواها ثم هبت باتجاه كتف بشير، عضته حتى انغرست أسنانها في لحمه ونزفت دماؤه في فمها، أفلت هو ذراعها بسرعة صارًا على أسنانه كاتمًا أنين الألم الذي شعر به يتفقد كتفه وأثناء ذلك هربت تهاني بسرعة من أمامه، وبينما كانت تركض انقلبت على وجهها في الطريق لتتقابل عيونها بوجه آخر فوق الأرض، كان كوجه بشري العينين والأنف والشفتين وتدويرة الرأس، بعثرت تهاني التراب فوق الأرض فذهب الوجه، حدثت نفسها «تبًا لمن رسم ذلك الوجه». ثم نهضت وأكملت طريقها.

دخلت تهاني الحجرة تتلفت تبحث عن نعسة التي كانت ملتفة بالغطاء مدعية النوم برغم الجو الذي كان حارًا وخانقًا، شدت تهاني من عليها اللحاف فقابلتها نعسة بوجه أصفر ترتعش فيه من الخوف مقلتاها. قالت نعسة «هل أخبرك زيدان بالقصة؟» جلست تهاني على طرف السرير وقالت:

- علينا الذهاب غدًا للمشعوذة لو أردنا معرفة أصل الحكاية.

- كيف سنذهب يا تهاني؟

وبكلمات متقطعة أجابت تهاني:

- عليك.. ادعاء الإغماء.. حتى نذهب.

- لكنني لا أود ذلك.

- تصنّعي.

- لا أعرف، تصنّعي أنت.

أسبلت تهاني عينيها وهي تنفخ من الغيظ ثم قالت وهي تكز على أسنانها:

- لا تعصبيني أنت تعلمين أنهم لن يصدقوني ولو حتى مت أمامهم، لن يصدقوني حتى يهيلوا التراب من فوقي، كوني مطيعة وافعليها أنت فلو أن الأمور جرت على هذا النحو فسوف نصل للحقيقة.

وبصوت خافت قالت نعسة:

- لا أعرف كيف أدعي الإغماء.

نهرتها تهاني وهي تدفعها بكلتا يديها:

- أنت عديمة الجدوى.

بكت نعسة بدون أن تنطق فنهرتها تهاني مرة أخرى:

- كُفي، اصمتي دعيني أفكر. علي أنا أن أخترع كل شيء وأجد الحلول لأن عقلك عقل النملة هذا دائمًا معطل.

ازداد بكاء نعسة:

- لا ترفعي صوتك علي إن هذا يجعلني لا أكف عن البكاء.

تركت تهاني نعسة ثم هبطت إلى الطابق السفلي وهي تفكر بصوت هامس«هذه البلهاء عليها أن تخاف، ترتجف ومن ثم يغمى عليها». دخلت تهاني لعشة الأرانب من الباب الخلفي للمنزل بحذر حتى لا يلحظها أحد من أهل الدار أو خدمه، نعسة تخاف من الأرانب ولا تستجرئ أن تقترب من واحد منهم. تربصت تهاني لأضخمهم ثم انقضت عليه كادت أن تمسكه لكنه انفلت منها منحشرًا بين جرتين، لم تتردد تهاني ومدت ذراعها ممسكة بالأرنب، خرجت من العشة بما ظفرته وقبل

أن تصعد للطابق العلوي دخلت إلى مطبخ الدار، وهو حجرة مربعة واسعة عند أحد أطرافها يقبع فرن مصنوع من الطين والحجر اللبن رص بجانبه أكوام من القش والبوص اليابس، في طرف آخر يوجد كانونان والكانون هو موقد مصنوع من الطين والتبن توضع فوقه الحلل والأواني ومن أسفله فتحة يزجون بداخلها الحطب والقش، وكان عبد الجبار منذ فترة قد أتى بزوجين من البوابير وهي مواقد جاز حديدية وليست من الطين والقش لكن حجازة لم تعترف بهما وتمسكت باستخدام مواقد الطين والحجارة. في نفس الغرفة كانت تفترش الخادمات حصرًا من الخوص على الأرض ومن فوقها ألحفة بالية ووسائد قذرة.

دخلت تهاني المطبخ على أطراف أصابعها، المدخل كان مظلمًا فرجعت لصحن الدار انتشلت مصباحًا ودخلت، شعرت خضرا بوجودها فاستيقظت تهتف «من هنا؟» عاجلتها تهاني «اخرسي وإياك أن تتفوهي بكلمة واحدة مما رأيت.. نامي». استلت تهاني سكينًا وخرجت كما دخلت بحذر. أيقظ الصوت زين فاستفسرت «ما الأمر يا خضرا؟» أجابتها خضرا وهي ترجع رأسها صوب الوسادة «لا شيء نامي نامي إنها سيدتك تهاني يستر الله على ما تنوي فعله».

على فجأة فتحت تهاني غرفتها، كانت نعسة كما هي راقدة فوق السرير وقد خف بكاؤها، رفعت تهاني أمامها يدها الممسكة بالأرنب وباليد الأخرى الحاملة للسكين، ذبحت الأرنب وألقته على وجه نعسة التى ارتمت صريعة الإغماء على الفور بدون أن تنطق. اقتربت تهاني من نعسة بقلب جامد جست نبضها وحين وجدتها ما تزال على قيد الحياة سريعًا نظفت المكان وألقت بالأرنب من الشباك قبل أن تفيق.

أخذت نفسًا عميقًا ثم خرجت من الحجرة تصرخ مستنجدة تتجه لحجرة والديها اللذين استيقظا قبل وصولها، سألت والدتها مذعورة «ماذا حدث يا تهاني؟» وبأنفاس متلاحقة أجابت «نعسة يا أمي نعسة أغمي عليها».

ضربت رئيسة فوق صدرها وهرولت هي وهمام نحو حجرة تهاني، سأل همام وهو يتفحص وجه نعسة «ما الذي أفقدها الوعي؟» ازدردت تهاني ريقها ثم قالت

«النافذة كما ترى يا والدي مفتوحة من المؤكد أن عصفورًا دخل منها، حام في الغرفة وتخبط ثم اتجه ضاربًا وجه نعسة ولحظتها أغمي عليها، أنا كنت في الأسفل وقتها أعد طعامًا لنا سمعت صرختها ففزعت إليها». أعقبت رئيسة «لكن الوقت ليل والطيور جميعًا إما نائمة أو ساكنة». فرد همام «يبدو أن شيئًا ما أفزع هذا الطائر فدخل الحجرة وأفزع نعسة، اذهبي لإحضار نصف بصلة» أعقبته تهاني«نعم بالفعل يا أبي حتى إني سمعت كما لو كان صوت الصيد».

دخل عبد الحكيم والجد عبد الجبار يستخبران عن ما حدث وما أثار تلك الجلبة في تلك الساعة من الليل في الدار. انتهزت تهاني الفرصة الوحيدة التي تمتلكها الآن وقالت «علينا الذهاب بنعسة للمشعوذة غدًا، لن يفك خلعتها سواها وأنا لن أتركها سأظل معها على الدوام والا سوف تلازمها حالات الاغماء .. إن اقتضت الضرورة ليس علينا إخبار زوجة عمي أو عمي من الأساس». قاطعها عبد الحكيم «لن يذهب أحد لمشعوذين أو سحرة، قلت ألف مرة إن نعسة قلبها ضعيف وعلى طبيب متخصص أن يفحصها».

أشاحت تهاني بوجهها فهذا العم سيضرب خطتها لعل أحدًا بجهالته يسعفها برفض عرض عمها عبد الحكيم، لكن الجدة حجازة أنقذتها في الوقت المناسب حين قالت «غدًا ستذهب نعسة للمشعوذة، الطب كله بدع وجهل منذ متى يداوينا علاج الأطبة!» تنفست تهاني الصعداء ثم قالت الجدة «وأنت يا رئيسة ستذهبين معها». ارتمت تهاني أسفل أرجل حجازة تستعطفها بكل ما أوتيت من مكر وتصنع تتوسل إليها باكية «أرجوك يا جدتي اسمحي لي بالذهاب معهما، إنه ليستصعب على قلبي ترك صديقتي وأختي وابنة عمي نعسة، اجعليهم يأخذوني معها فقد أموت من الخوف عليها قبل وصولها». مسحت حجازة على رأس تهاني «انهضي يا تهاني ستذهبين معهما، غدًا في الصباح الباكر تحضر العربة». انفض الجمع إلا من تهاني ونعسة، ما إن خرجوا جميعًا حتى فتحت نعسة عينيها «لن تردي لا على نار أو جنة يا تهاني». وضعت تهاني يدها فوق وجه نعسة «أغلقي عينيك حتى الصباح، فهمت؟ اجعلي الأمور تبدو طبيعية حتى تجري الخطة على ما يرام».

دخلت رئيسة تحمل بصلة مقسومة أخذتها منها تهاني:

- عنك يا أمي، اذهبي أنت للنوم واتركي لي أنا تلك المهمة.
- المسكينة لن تتزوج على هذا الحال.
- نصيبها.
- الناس ستظن ما دمت ابنة عمها ومولودة في نفس اليوم ربما تكونين مثلها مريضة ضعيفة ومجهدة، سيقف حالك مثلها يا تهاني، بل إني أرى أن حالك بالفعل قد وقف وربما....

لم تجعلها تهاني تكمل وقالت وهي تمسك بيدها توجهها نحو الباب «أمي كل شيء بأوان، الموضوع كله أن جدي ووالدي ينتظران الشخص المناسب الذي يليق بي، هيا اذهبي لحجرتك ارتاحي أنت».

في الصباح بعد صلاة الفجر استيقظ خليل كي يحضر العربة ملبيًا طلب السيدة الكبيرة، لتكون العربة جاهزة على شروق الشمس فتذهب النسوة ويعدن على الضحى، صب خليل على الكاريتة بضعة جرادل ماء بعد أن كنسها ونفض مقاعدها، بسط أرضها بلباد سميك من الصوف تلاه بفروة خروف مسرحة بنية ومثلها واحدة بيضاء فوق المقاعد، وذهب للإسطبل محضرًا زوجًا من الخيول ربط أعناقهما بحلي وشرائط ملونة، ثم حمل ذراعي العربة على الخيول برباط عريض متصل بسرج متين ولجام من الجلد، ثم بخر الكاريتة من الداخل والخارج يفعل كل هذا برضى وسعادة طفل صغير، وكان عابد يراقبه ضاحكًا في سره بينما كان يحول الماء لباقي الدواب في الإسطبل.

أتت النسوة وكان على عابد من الأدب أن يقف مكانه حتى لا يعيق طريقهم، هرول خليل لإحضار سلم صغير ثبته بعناية حتى تصعد منه النسوة للعربة ثم وقف عاقدًا يديه. من أسفل بيشة الملاءة كانت تلك أول مرة ترى تهاني فيها عابدًا

عن قرب، مرت بجانبه ولما كانت على بعد خطوة منه سرقت ثواني في انشغال الكل ورفعت بمهل رأسها، أدارت ناظريها نحوه ورفعت حاجبها ثم شقت نصف ابتسامة، وجم الفتى الخجول من المفاجأة وضرجت حمرة الدم وجهه خافضًا رأسه سريعًا. ركبت رئيسة العربة تحوطها ملاءة نفيسة من الحرير خلفها صعدت الفتاتان. أمرت حجازة عابدًا أن يحضر سلال الفواكه وسلة خبز القمح الطري من الدار وبعدما حملت الهدية امتطى خليل العربة ضاربًا الأرض بالسوط. خرجت العربة من الدوار ودخل بعدها رجل يحمل صندوقًا مربعًا مُعلقًا إياه على كتفه، استوقفه جوهر:

- من تكون؟

- الحلاق، وأنا على موعد اليوم مع الحاج عبد الجبار وأبنائه.

وضع جوهر يديه في جيوب جلبابه القطني الناعم الأبيض وقال وهو ينصب ظهره:

- من اليوم فصاعدًا موعدك سيكون مع الحاج وأبنائه وعبيدهم.

خرج همام من المنزل وبصوت مسموع هتف:

- أدخله يا جوهر العريشة وجهز بقية العبيد.

كان عابد لا يزال واقفًا حين سمع همامًا يطلب من جوهر أن يدخل الحلاق تكعيبة العنب. تحسس عابد شعر رأسه بيده وقال «يبدو أنه يوم حلقها». اتجه عابد نحو العريشة لكن بشيرًا استوقفه وبلهجة يكمن فيها التكبر قال«إنما سيدك يقصد عبيد الأسياد وليس الأرض». لم يجبه عابد وظل واقفًا أمام العريشة منتظرًا. من أمام العريشة سأل همام عابد «أليس لديك عمل تقوم به؟» أجابه «بلى هنالك الكثير، لكني أنتظر حلاقة رأسي». ضحك همام ساخرًا ثم قال «كنت أقصد تجهيز عبيد السادة وليس الأرض، هل تساوت الرؤوس يا عبد الأرض لتجلس في مجلس خلفك فيه سيدك؟» أخرج همام من جيبه أربع قطع نقدية، راجع نفسه

ساحبًا قطعة منها معطيًا الثلاث الباقية لعابد «خذ تلك القطع واحلق شعر رأسك في القرية». ثم دخل العريشة ومن ورائه عبيد الأسياد.

خرج عابد من بوابة الدار الكبير لأول مرة لا يعرف من أي طريق يتجه فظل يمشي بمحاذاة ظله المسطح فوق سور الدوار، قابله في الطريق زيدان وبعفويته قال له:

- هل أنت هارب؟ أنت بالفعل هارب.

- إلى أين يا أخي؟ الهروب هنا ضياع، فقط أود حلاقة شعر رأسي، هل تكرمت وأرشدتني لواحد من حوانيت الحلاقة؟

- تعال معي يا صديق سأدلك على واحد لكن معذرة هل تملك نقودًا؟ كان بودي أن أدفع عنك الأجرة، لكن كل ما معي بالكاد يكفي لشراء بعض من دقيق البتاو وحفنتين من دقيق القمح حتى ينصلح بهم مذاق خبز الفقراء.

- حتى في لقمة العيش للفقير خبز وللغني خبز.

تنهد زيدان:

- يا أخ أنت في يامنة!

خارج أسوار الدار كأنما قذف بعابد لعالم آخر فيه الثياب مرقعة والأقدام حافية، البيوت طينية قحلة والوجوه مصبوغة بالهم والضيق، دخل زيدان بعابد للسوق. كان يندفع من السوق غبار مضبب، عربات تجرها الحمير والبغال حاملة الأواني الفخارية وأخرى كانت تحمل فاكهة وغيرها خضارًا بقرب نساء فرشن على الأرض صواني الجبن ولفائف الزبد، مع أخريات وضعن أمامهن أقفاص البط والإوز والحمام بالإضافة إلى كم من حوانيت العطارة والبقالة.

روائح مختلطة شتى لا تميز فيها سوى رائحة التراب المولود من العدم يحوم حول نهيق الحمير وشتائم الباعة وفصال المشترين وصياح الصبية أسفل سقف الركود؛ فمعظم الباعة لا تزال تجارتهم كما هي لم يسحب منها شيء «ارزق عبيدك يا رب». الكل يتوسل بها لله فجميعهم ولو كانوا أسيادًا عبيد أسفل السماء.

مر عابد بداخل الصخب المتواصل الذي لا يميز فيه المرء صوته من الصخب، في آخر السوق دخل زيدان بعابد لدكان حلاقة وكان عبارة عن حجرة طينية مسقوفة بالبوص مفروشة بحصر، رصت على الجوانب قلل الماء، في المنتصف جلس الحلاق وكان أمامه رجل وضعت على كتفه منشفة يمسك مرآة مكسورة يتأهب للحلاقة، جلس عابد ينتظر فبادره الحلاق:

- الأجرة خمس قطع نقدية.

- ليس معي إلا ثلاث.

- إذًا انهض ليس مكانك هنا.

استسمحه زيدان:

- كن كريمًا يا أخي الرجل بالفعل لا يملك إلا هذه الثلاث قطع.

- وأنت أدرى بالحال يا زيدان إن حق هذا الموس لم أدفعه إلى الآن، اذهب به عند غيري ربما تجد من حاله أحسن من حالي فيكون كريمًا معه، أما أنا فليس بيدي أن أكون كريمًا فالضيق يجبرنا على البخل رغمًا عنا.

خرج زيدان بعابد:

- لا تحزن يا أخي هنالك مكان سيقبل صاحبه بنقودك، فمن السخرية في بلدنا أن الفقراء أصبحوا في منازل هم الآخرون فتجد الفقير والفقير جدًا، وقد تجد المعدم تمام العدم، نحمد الله أننا لا ندفع حق الهواء الذي نتنفسه، نحن في نعمة كبيرة أليس كذلك؟

ربت عابد على كتف زيدان:

- هو كذلك، الحمد لله.

أخذ زيدان عابدًا لمكان آخر بجانب ترعة القرية حيث يجلس حلاق صغير في نحو الثالثة عشرة من العمر، بجانب صندوق أدواته على ثرى الأرض بلا حائل يفصل بين جسده والأرض سوى جلباب مرقع، أجلس الحلاق الصغير عابدًا أمامه

فوق قطعة من الجوخ خشنة، لف رقبته جيدًا بفوطة متيبسة من الوسخ والعرق بعد أن رش رأسه بماء من الترعة ثم راح يفرك شعره بأصابعه اليابسة النحيلة، وكان الذباب يطن من حول عابد يلتصق بقدميه ووجهه وينحشر في أذنيه وأنفه. بالكاد استطاع عابد أن يصبر على هذا الحال، بعد انتهائه سأله عن الأجرة فطلب منه ما يجود به، فوضع عابد بداخل كفه الثلاث قطع النقدية ثم رحل متنهدًا بارتياح.

من أمام الترعة كان رجل يجر حصانًا بعربة مملوءة بالبطيخ يحاول المرور بها من فوق الجسر الضيق، كان الحصان من الضعف حتى يعبر الجسر وكان الرجل يستحثه مستجديًا المرور تارة بالعطف واللين وتارة بالزجر، يتحدث إليه كما لو كان طفلًا عنيدًا يأبى المرور، بيد أن الوضع لم يتغير فالحصان المسن أحنى رأسه، ولم تكن العربة بأحسن حالًا من الحصان، عتيقة مفككة أنهكها التصليح عدة مرات.

هتف عابد «هل تود مساعدة؟» أجابه الفلاح «إن العربة ذاتها غير مأمونة وقد توقع ما عليها». اقترب عابد وزيدان من الرجل يحاولان مساعدته بزحزحة العربة فاندفع الحصان باذلًا قصارى جهده متسلقًا الجسر لكن إحدى العجلات كسرت وتأزم الموقف، هنا وقف الفلاح مشتكيًا تنحدر من وجهه بارز العظام قطرات لا تدري إن كانت دمعًا أو عرقًا قائلًا «إن العربة والحصان لجاري ولو كانا لي ما كنت باليت، نضج في أرضي البطيخ وإن لم أبعه لفسد، لكن النحس ماذا تقول فيه».

اقترب عبد الشكور كعادته لابسًا بنطالًا أسفل جاكت من تحته صديري من الساتان اللامع تتدلى من جيبه سلسلة ساعة فضية، واضعًا الجرنال تحت ذراعه«ما بالكم لمَ التجمهر أمام الجسر؟» قالها وهو يتأمل البطيخ بنهم وجشع ثم قال:

- هل نتساوم، كم عددها؟

- خمسون بطيخة بمائة قرش نقدية، انظر إنه بطيخ صحيح لولا انكسار العربة لبعتهم بأكثر من هذا.

- يا أخي إنك لن تقدر حتى على الرجوع لدارك بهم لا أن تبيعهم بعربتك تلك، ثلاثون قرشًا جيدة.

- هم مائة يعلم اللّه كم تعبت فيهم.

- أنت تحلم يا هذا لن يشتري أحد بطيخك دفعة واحدة، ثم إني لن أسمح لك بتعطيل حركة الناس أمام الجسر وستضطر حتمًا لدفع غرامة إذا شكوتك تناهز المائة التي تريدها ما رأيك إذًا؟

- إذًا فلتجعلها خمسين قطعة، كن عادلًا يا سيد عبد الشكور.

- هي أربعون.

- للّه الأمر خذهم كما شئت بأربعين.

انفرجت أسارير عبد الشكور وقال واعظًا:

- كم مرة تعجف الشاة يا أخي وتسمن من جديد، لا تيأس إن الأرض ولادة من الغصن تكون الشجرة، ابذل جهدك حتى تجود لك.

- لقد بذلته بالفعل لكن على ما يبدو أنها تجود لغيري وليس لي، حلال عليك البطيخ.

ثم أخذ الفلاح يجر عربته بعدما أفرغها من البطيخ راجعًا من طريقه الذي أتى منه، التفت عبد الشكور إلى زيدان وفيما يبدو أنه لاحظ عابدًا لكنه لم يتذكره، أما عابد فقد حفظ تقاسيم وجهه منذ يوم تقسيم العبيد.. قال عبد الشكور لزيدان «اذهب لسيدك جابر وقل له الأستاذ عبد الشكور ابتاع لك من البطيخ خمسين بثمانين إن اشتريتهم من التاجر لأخذتهم بمائة وخمس وعشرين حلال عليك وعلى من ستهدي، ولا ترجع إلا وبيدك عربة قادرة على حمل تلك البطيخات الثقيلة». وكان جابر كثير التفاخر والتباهي، فرط اليد وإن كانت مغلولة على خدمه والفقراء عمومًا، فهو سخي حينما يتعلق الأمر بالمكاسب الشخصية حيث يكون للكرم أهمية وقيمة، فهو لا يعطي إلا من له معه مصلحة أو عنده حاجة له، وكعادة عبد الشكور في اصطياد الصفقات كان قديرًا في ذلك الموقف.



اتجه عابد للدار الكبيرة دار عبد الجبار، كانت خضرا وزين جالستين في شطر الفناء الخلفي بجانب سور الدوار يتوسطهما طبق كبير مليء بالطيور المذبوحة بريشانها، وقف عابد مدة طويلة يراقبهما من بعيد لعل زين تنتبه، يمنعه حياؤه من الاقتراب. بيد أن عينيه تمردت على حيائه أمام خضرا فكانت تهرب منه على غير طواعية من فينة لفينة تراقب خضرا التي ما إن لمحته حتى تبسمت وأدارت وجهها ناحية زين «أخوك هنا يا زين». بعدها دخلت الفتاة الدار من الباب الخلفي باب الخدم حتى تعطي فرصة للأخين لملاقاة بعضهما البعض.

هرولت زين نحو عابد فأوقفها عابد بإشارة من يده «لا تقتربي أكثر يا زين كنت فقط أود الاطمئنان عليك، كوني حريصة ألا تخبري أحدًا من الأسياد أني أخوك فيكيدوا لنا وينقصوا من أجرتنا». ومن خلف الشجرة أجابته «لا تقلق يا أخي».

كان عبد الحكيم قد سمع سخرية النسوة من زين وشاهد بكاءها، وطيلة الأسبوعين الماضيين كان يرى في خياله عيونها وهي محمرة من كثر البكاء ويسمع نحيبها المكتوم بالليل كلما مر، وكان ذلك يؤثر في نفسه الرقيقة الحساسة ويحرك مشاعره المرهفة اتجاه أي دموع أيًا كانت لكبير أو لصغير ويعذبه، في حين يتقبل أفراد عائلته طبيعته ببرود واندهاش، أراد عبد الحكيم لو استطاع مواساة الفتاة لكنه كان برغم انفتاح عقله وسمو مشاعره خجولًا يغلب عليه الانطواء والعزلة، وقد منعه حياؤه من جبر خاطر الفتاة فأراد أن يترك لزين شيئًا ما يجعلها تبتسم كلما رأته، شيء يبدد إحساسها بعدم الاحترام والمهانة، وكان عبد الحكيم يمتلك لوحة زيتية جلبها معه من بريطانيا حين كان يدرس هناك واللوحة مرسوم فيها منظر طبيعي تظهر فيه السماء تعانق الأرض وبينهما البحر، وكل من السماوي والأزرق والأخضر كان على امتداد واسع جدًا وكان اسم اللوحة محفور على إطارها «حرية»، حرية السماء والأرض والبحار بدون أصفاد، الحرية البدائية قبل خلق الإنسان وابتداء العبودية، الحرية الراكعة أمام ملك واحد هو الله القدير.

أخذ عبد الحكيم اللوحة ووضعها أسفل ذراعه، في طريقه تعثر بخضرا فسألها عن زين فأجابته بأنها خلف الدار هنا، تذكرت خضرا عابدًا فوضعت يدها فوق فمها ليتها قالت لا أدري.

في الخارج رأى عبد الحكيم عابدًا يتحدث لزين وهما يتبادلان الضحكات الصامتة، شد عابد أنف زين مداعبًا فلكزته هي لكزة خفيفة في كتفه ولما شاهد عبد الحكيم هذا المشهد سئمت نفسه وقال في نفسه «يا للماكرة! إنها تروح عن نفسها بالنهار مع هذا العبد وربما بالليل لم يكن بكاؤها إلا اشتياقًا له، وكنت أحسبها أنا متأزمة لحال عبوديتها متحسرة على كرامتها». أخذ عبد الحكيم من الظن ما أخذ حتى استعاذ من الشيطان الرجيم واتجه ناحية الأخين. «ما أمركما لو أردتها يا عابد زوجة لزوجتك إياها ما نفع لقائك بها سرًا؟ إن هذا يحاسب عليه ربك، وأنت يا أختاه ألا تخافين العاقبة؟» لم يستطع عابد أو زين تبرير موقفهما فتأسف عابد ورحل، لكن زين أبت أن يشكك أحد في براءتها وطهرها ولو على حساب أجرة يدها؛ فتجرأت واعترفت لعبد الحكيم أن عابدًا أخوها وأنهما خافا لو عرف أحد حقيقتهما لأنقصوا من أجرتيهما، وأما الآن فلا يهمها وإن انتقص حتى من عمرها مقابل تبرئة شرفها، هنا وخز صدر عبد الحكيم تبكيت الضمير حين ظن سوءًا بالفتاة وقال لها «اعذريني يا أختاه إنما كنت أريد بكما الخير والنصيحة وإني على سركما لمؤتمن، وهذه اللوحة مني لك هدية هوني بها على نفسك وتذكري دائمًا أن الإنسان في الأصل حر وأن العبودية لله وحده». أعقبت زين «ونعم بالله».



-٥-

اندفع خليل بالعربة متخذًا الطريق الزراعي الذي انحدر منه لطريق الجبل المتعرج. منظر الهضاب المتتالية بتعاريجها غير المنتظمة يثير في النفس رهبة وفي القلب فزع عظيم، كانت نعسة تشهق في كل مرة ترتفع وتهبط فيها العربة فوق حصى الأرض الصلبة ومطباتها في الطريق غير الممهد، بعد فترة أمسى الطريق الوعر طويلًا لا ينتهي حتى دلفت العربة إلى منخفض عميق بين جبلين يسكن تجاويفهما الغربان والخفافيش، ومن ثم وصلوا لباحة مقفرة إلا من بعض نباتات الصبار والأشواك.

نزل الثلاث نساء من العربة ودخلن إلى دار هي الوحيدة في هذا الخلاء، حيطانها عتيقة شبه مهدمة. كانت رئيسة تسير في المقدمة ولدى ظهورها اضطربت الغربان الواقفة فتراجعت هي بدورها لكنها سرعان ما تمالكت أعصابها وأكملت الطريق، ومن خلفها الفتاتان تسيران بحذر نحو الباب الملطخ بالدماء وفي أوسطه ثبتت حلقة دائرية تدلى منها شعر غير آدمي فوقها قبعت رأس ثور محنط، أمسكت رئيسة الحلقة بطرف ملاءتها فانزلق الباب وانفتح أمامها، سمت باسم الله ودخلت، التصقت نعسة بتهاني التي أمسكت برداء والدتها. ما بين الباب وباب آخر أسود اللون فناء تناثرت فيه جماجم وعظام بشرية.

كانت نعسة تموت وتحيا وهي تلملم ملاءتها خوفًا من لمس العظام، أما تهاني فكان الشعور المسيطر عليها هو القرف أكثر من الخوف، ولم ترد رئيسة إظهار الجزع أمام الفتاتين بل حاولت إظهار ثباتها على قدر المستطاع. وقفت رئيسة أمام الباب القاتم الأسود الذي انفتح من تلقاء نفسه أمامهن لتظهر قطة بمثل لون الباب وكأنها قطعة منه، ماءت القطة بشكل متقطع فصرخت نعسة وسقطت

بين يدي تهاني التي التقفتها شادة على يدها «اصمدي يا نعسة». تلفتت رئيسة من حولها مرتاعة ودخلت خلف القطة التي ذهبت وجلست أمام كائن أشبه بهيكل عظمي مغطى بالجلد، كانت هذه هي الساحرة، لا يظهر من وجهها سوى عينين صغيرتين مثل خرزتين غائرتين تتقدان بنار جهمة، تربط رأسها بمنديل يتدلى منه شعر أبيض وقذر، ملوثة أطرافه بالطين، طويل، كثيف وأشعث. جاءهن صوت الساحرة من حيث لا يعلمن فلم تكن تتحرك شفاها أو هكذا خيل لهن «اخرجي يا رئيسة واتركي الفتاتين». قالت رئيسة وكان العرق يغمر وجهها ويتصبب «لن أترك بناتي». فعاد الصوت مرة أخرى بشكل مرعب أكثر عمقًا «حتى لا تؤذين اخرجي». أسرعت رئيسة نحو الباب ترتعد فرائصها متراميًا صوت المشعوذة رنانًا «أغلقوا الأبواب، إن أنصاري لا يحبون النور». تهيبت تهاني ونعسة الاقتراب من الساحرة فحيتاها عن بعد ثم خطتا خطوتين باتجاهها والقلق يعتريهما، جلسا أمامها، الجو بداخل الحجرة مظلم وبارد يلهم العقول بخيالات بشعة وقد استغرقتا ثواني حتى تعودت عيونهما على المكان، تردد صوت دف غير معروف مصدره كأنما هو آتٍ من خلف الجدران مرة مكظومًا رتيبًا ومرة أخرى منفجرًا على حين غرة، ينهمر من كل اتجاه تردد الجدران العالية أصداءه مضاعفة، بدا للفتاتين أن من يقرع الدف هو الشيطان ذاته طائرًا حولهما وأن الجن يتراقصون مسعورون على أنغام موسيقاه الشريرة.

انضمت إلى أصوات الدف المرعبة تعاويذ الساحرة المتحشرجة المبهمة تتخللها ضحكات وحشية غير إنسانية وهي تدور برأسها. غمزت نعسة تهاني «هيا بنا يا ابنة عمي إن الموت أوشك مني». حائمًا صوت الساحرة قالت «ألم تدفعا من أجل سماع قصة يامنة؟» هنا اعتدل صوت الساحرة متخذًا نبرة إنسانية، تنهدت الفتاتان وقالت تهاني «بلى، لقد جئنا لذلك». ردت عليهما «إذًا اسمعا للنهاية..

منذ خمسين عامًا كنت أيامها شابة صغيرة وكنت أعمل عند معلمتي الساحرة أم القرابين كمساعدة لها، وكانت يامنة أيامها قرية مثل أي قرية في زمانها إلا أن اسمها لم يكن يامنة بل كان اسمها قرية الجبابرة، ومن جابر لابنه عبد الجبار

ومن عبد الجبار لابنه جابر كانت تنتقل العمودية والوصاية، أما باقي الإخوة فهم يرثون دون أن يملكوا في القرية سلطة الأمر أو الحكم التي كانت تؤول للابن الأكبر.

السلطة والمال والنساء هم لعنة البشر منذ أزل الأزل.. ذهب جدكما الأكبر جابر والد جدكما عبد الجبار مع إخوته الأربعة للصيد في النيل كعادتهم في كل يوم سبت من كل أسبوع. كانت عودتهم مقدرة على الظهيرة قبلها بقليل أو بعدها بقليل، انقضى الظهر وبعده العصر والمغرب ولم يأت الرجال، خرج رجال العائلة بل ورجال القرية والقرى المجاورة جميعًا للبحث عنهم، أناروا المصابيح وأشعلوا النيران، تحركوا بالفلوكات والمراكب بحثًا عن الخمسة إخوة وحتى الفجر لكن بلا أثر.

النساء لطمن على وجوههن وضربن الجيوب ونُحن، شق الرجال جلابيبهم وغمسوا وجوههم في الطين صارخين، مات خمسة رجال من الجبابرة هم الأكبر مقامًا والأوفر مالاً فيهم الأخ الأكبر الوصي، ماتوا ميتة شنيعة. ضرب الجبابرة أخماسًا في أسداس إن كانوا ماتوا فمن يدفنون وكيف يقيمون الجنائز بلا نعوش. أمامهم ومن بين أيديهم مات الأب عبد الجبار، سقط الأب جدكم الأكبر عبد الجبار من هول الصدمة صريعًا.. ضاع الجبابرة.

دفنوا الأب وأقاموا سرادق العزاء، حط على القرية واحد غريب ليس منها ولا أحد يعرفه، صاح في الجمع: من سيتولى السلطة بعد الجبابرة؟ لاعب السؤال خيال عقل كبير كل بيت فجميعهم جبابرة وأولاد عمومة لكن من فيهم سيرث الحكم بعد موت الأوصياء. علت الأصوات وشب الشجار، قامت الحرب بين أولاد العم والإخوة، حرق بعضهم منازل بعضٍ وخربوا محاصيلهم وجرفوا أراضيهم، خربوا حياتهم بأيديهم بسبب الطمع.. يومان وكانت القرية كلها رماد.. لعنة الله على الشيطان.

لاح رجل من بعيد يشق دخان الخراب، كان الرجل هو جابر، علت الحناجر «جابر حي، جابر حي». هنا أدركوا حقيقة ما فعلوه بأنفسهم ناظرين لجابر وأملاكهم التي حرقوها، لحظتها صرخوا صرخات الندم ولكن هيهات بعد فوات الأوان.. لعنة الله على الشيطان.

أتى جابر دون إخوته حاملًا بيده فتاة عارية لا يغطيها إلا شعر رأسها الأسود الطويل جدًا المتدلي فوق ساقيها ملامسًا الأرض. سألوه «أين إخوتك؟ ومن تلك الفتاة يا جابر؟» رشقوه بالأسئلة لكنه لم يجب إلا بكلمات كانت أكثر غموضًا من غموض رجعته المفاجئة «غرقت المركب ونجوت أنا وقد وجدت تلك الفتاة تائهة هي الأخرى»! لكنها لم تكن الحقيقة مطلقًا. سحر جابر بالفتاة البكماء وجن لبه، تزوجها على حسنة أم أبنائه أم جدكم عبد الجبار، اشتعلت الغيرة في قلب الزوجة، أنهت جميع حيل النساء ومكائدهن لكنها لم تستطع إرجاع الوليف لعشها. أتت لمعلمتي وجلست أمامها في تلك الحجرة مثلما تجلسان أنتما الآن تتوسل لها أن تمنع يامنة عن جابر. قبلها بأسبوع مر جابر هو أيضًا على منزل معلمتي الساحرة أم القرابين يشكو امتناع يامنة عنه، لكن المشعوذة رفضت إعطاءه أي علاج أو حجاب أو فك لأي سحر قد تكون يامنة مصابة به إلا إذا سرد لها حقيقة يامنة بأكملها.

قال لها أنه في ذلك اليوم ذهب للصيد هو وإخوانه الخمسة، كان يومها النيل رائقًا والسماء صحوة صافية لكن الصيد لم يكن وفيرًا فقرروا الاتجاه شمالًا قليلًا، كان يخيل لهم أنهم كلما اتجهوا شمالًا كان الصيد أغزر يبدو لهم أن من وفرته ملأ النيل وطفا، ما إن يتجهوا شمالًا حتى يجدوا أنه لا أثر لأي سمك، ثم يهيأ لهم بعدها وجود السمك غربًا غزيرًا كثيرًا مثلما كان ناحية الشرق وكما حدث ناحية الشمال وجدوا أنه يحدث في الشرق، لا أثر للسمك، ثم يتراءى لهم مرة أخرى جنوبًا فشرقًا فغربًا فشمالًا وهكذا، هكذا كانوا يديرهم الطمع حول أنفسهم ويغويهم حتى ضلوا الطريق واختفت على مداد النظر القرية.

انقشع النهار وحلت ظلمة الليل موحشة، نظروا لمركبهم فوجدوه خاويًا من السمك والزاد وإذ بهم في عرض النيل لا يعلمون لأي مكان وصلوا؛ فأنوار القرى بعيدة جدًا وما حولهم لم يكن سوى ماء. لم يكن معهم فانوس أو مصباح ليشعلوه. الظلمة كانت حالكة رغم كونها كانت ليلة اكتمال القمر لكن السماء مغيمة وقد غطت السحب نور البدر يوم اكتماله. حين تفرقت الغيوم ظهر القمر على قارب خشبي كان بجوارهم، كان الظلام يخبئه ولما انقشع وبان ظهرت رؤياه.

جدف الإخوة باتجاه القارب فشاهدوا انعكاس النور على فتاة ممددة نائمة هي الوحيدة في المركب، كان القمر مصوبًا نحوها كما لو أنها انفردت به وحدها، الفتاة حسناء يغطيها شعرها ساترًا جسدها. صاح جابر إنها لي فارتفعت أصواتهم جميعًا كل واحد منهم قال «بل لي أنا». اقترح الرجل الغريب بزيه الأسود والذي كان يجلس على حرف المركب. كان الرجل معهم بدون أن يلاحظوه، اقترح«إنما هي للأقوى». بعدها اندفعوا في قتال بعضهم البعض بدون أن يسألوا الرجل من يكون، تصارع الإخوة فيما بينهم من فوق مركبهم، أغرقوا بعضهم واحدًا تلو الآخر ولم يتبق منهم سوى جابر الذي تلفت حوله باحثًا عن الرجل الغريب، لكنه لم يجده فأخذ الفتاة وظل يجدف حتى وصل القرية.. لعنة اللّه على الشيطان.

لم تكن الفتاة تنطق فأسماها يامنة، تزوجها لكنه لم ينلها. ما إن يدخل حجرتها ويقترب منها اقتراب الزوج لزوجته حتى يتخشب جسدها وتنكمش رجلاها وتتلاصق مثنية تصل لرأسها، لم يكن له حيلة في وضعيتها تلك ولو أن قوى العالم كله اجتمعت لما استطاعت فك عظامها.

علمت معلمتي ما كان بداخل يامنة، إنه نفسه من وسوس لأهالي القرية بقتال بعضهم البعض إخوة وأبناء عم طمعًا في السلطة ووسوس لجابر بقتل إخوته طمعًا في الفتاة، ووسوس لذريته بعدها بأن يقتل الأخ الأكبر إخوته طمعًا في المال... إنه الشيطان.

بعد علم معلمتي بما كانت به ملبوسة يامنة وتأكيد حسنة لشكوكها الأولى قررت الذهاب لمنزل جابر والسجود أسفل قدمي يامنة متذللة متضرعة، حتى تنال الرضا فيهدي الشيطان لها من أتباعه خدمًا مواليًا. دخلت معلمتي على جابر بالزار السوداني موهمة إياه بأنها ألهمت في منامها بعلاج يامنة.

تركتني معلمتي خلف الباب ودخلت على يامنة، واربت أنا الباب ووقفت متلصصة.

كانت يامنة جالسة على مقعدها مولية ظهرها ناحية الباب فلم أستطع رؤية وجهها لكني رأيت شعرها الطويل جدًا والمفترش على الأرض، شعرها الأسود في سواد الليل والناعم كماء النهر السلس يسرحه مشط بدون أن تمسكه يد، يرتفع

فوق رأسها ومن ثم ينزل على شعرها المنساب بلا تموجات وحتى أطرافه البعيدة عنها ويكرر الكرة. ما إن رأتها معلمتي حتى هوت على الأرض ساجدة أمامها سجدة لم تقم منها قط.

دخل جابر فوجد معلمتي ثابتة لا تتحرك وحين رفعها وجدها ميتة بوجه أسود متفحم أحوى. دفنوها بلا جنازة ونزلت أنا منزل الخدم في الدار الكبير. لم تترك يامنة قلب مفتونها جابر حتى إنه ما كان ليبرح مكانًا هي فيه. غرق في حبها بكل ما فيه من جوارح وأحاسيس حتى خيل للناس أنه بها قد جن وبحبها قد سحر.

أما حسنة الزوجة المطعونة في كبريائها كانت الغيرة بجانب ما ادخرته ليامنة من غل وحقد شيئًا لا يذكر، كانت حسنة مستعدة للفتك بكل القرية وحتى نفسها من أجل شفاء قلبها المغلول ونفسها المهانة. لكلٍ شيطانه وقد هداها شيطانها لفعل آثم وهو طعن يامنة في شرفها باتهامها مع أحدٍ العبيد على أنها على علاقة محرمة به، طلبت مني قص شعيرات من شعر يامنة وهي نائمة وقد فعلت، ثم وضعت الشعيرات في منديل من مناديل شعرها أيضًا ثم خبأته في صندوق ملابس العبد، وكان ذلك على مرأى مني وأنا أراقب لها المكان خارج غرفة العبيد. بعدها ذهبت لجابر وجلست بجواره توسوس في أذنيه بأكاذيبها عن ما رأت عيناها الكاذبة من العبد ويامنة، بل وأجبرتني أن أشهد زورًا لتصديق روايتها الباطلة ثم طلبت منه تفتيش ملابس العبد وأغراضه لأن المحبين إذا تلاقوا تهادوا.. فليغفر لي الله إنني كنت صغيرة على عدم دراية إلا بما أرهبتني به حسنة.

لم يصدق جابر حسنة ولم يكذبها لذا قرر قطع الشك باليقين والذهاب لحجرة العبد وتفتيشها، اتجه جابر أول ما اتجه لصندوق ملابسه، لم يبحث طويلًا حتى وجد دليل الخيانة، منديل شعر يامنة ملفوف بداخله شعرات منها. تفتقت شرايين جابر من الغضب تكاد الدماء تبك من وجهه تتقد النيران فيه متطايرة ألسنة الغضب منها. أمر جابر بتقييد العبد في نخلة بالخارج في الطلل في عز الشتاء وهو لا يرتدي من شيء إلا سروالًا يواري سوءته، بعدها ذهب ليامنة وعلى الفور قص شعرها الهائم به ثم خنقها به. ومن ثم رجع للعبد كي يقتله هو الآخر لكنه لم يجد

العبد. لم ينتبه الغفر مطمئنين على إحكام عقدتهم في ربطه لذا ربما غفلوا عنه وهرب».

قاطعتها تهاني «إن كان الشيطان هو من كان بداخل يامنة فكيف إذًا يتعاطف مع إنسي بريء؟» أجابت المشعوذة «إن الشيطان ذات نفسه يعتبر بريئًا أمام ما فعله جدك الأكبر يا فتاة، اسمعي باقي الحكاية واحكمي..

رجع جابر لحجرة يامنة وهو في حالة هياج وصراخ ليجد أن جثة يامنة اختفت أيضًا، يامنة والعبد اختفيا معًا، جن جنون جابر كليًا، أرسل بالغفر والخدم وباقي العبيد جميعًا للبحث عن يامنة والعبد، ليلة اثنتان ثلاث سبع ليالٍ بنهارهن لم تنم فيهن القرية. كان الناس يصحون ثم يواصلون الليل بالنهار على سيرة يامنة والعبد، قالوا قصصًا كثيرة عن حكاية عشقهما وبأن جن العشق قد هربهما، ألفوا وأبدعوا في التأليف لكن الحقيقة أن لا العبد في حياته رأى يامنة ولا يامنة رأت العبد إنما حسنة هي من ابتدعت قصة حبهما من أجل الانتقام، لكن الأغرب من هذا وذاك والذي ما استطاع منطق أو خيال تفسيره هو كيفية هروب يامنة والعبد.

بعد الليالي السوداء السبع في الصباح أمر جابر بإخلاء الدار وطلب من العبيد هدمه، العبيد وحدهم وليس غيرهم من خدم أو عمال، لم يكن أحد يدري حقيقة نية جابر وبأن العبيد إنما بهدمهم الدار كانوا يبنون قبورهم. هدموا الدار كما أمرهم جابر بعدها بفحت أساس بطول أكثر من مترين على مساحة المنزل كله وقد فعل العبيد ما أمروا به، ثم أمر جابر العبيد جميعًا برجالهم ونسائهم وأطفالهم بالنزول إلى الأساس تلك الحفرة الواسعة العميقة، بعدها نثر شعر يامنة فوقهم وأمر غفره وخدمه بردمهم أحياء.

ما زالت الصرخات والأنات والتوسلات ترن في أذني، لم أتحمل رؤية الناس يموتون أحياء أمامي وقتها فهربت وجئت لهنا، لبست زي معلمتي وأخذت مكانها ثم علمت بعدها أن جابرًا بعد ردم الأساس فوق رؤوس العبيد أمر ببناء داره من جديد، هذا الدار الكبير الذي يعيش فيه ابنه جدكم عبد الجبار وأبناؤه.

بعد إتمام تشييد البيت وجدوا جابرًا ميتًا أو بالأحرى مخنوقًا أسفل النخلة التي ربط فيها عبده المفترى عليه، أما حسنة فقد أنزل الله بها بلاءً شديدًا، أصابتها اللعنة، وقع شعر رأسها جميعه وأصيبت بالبكم ومسها الجنون ومنذ ذلك الحين سميت قرية الجبابرة باسم يامنة».



خرجت تهاني ونعسة من عند المشعوذة ممسوح وجهاهما بالصدمة بما سمعاه ولم يمر على أسماعهما من قبل. تفحصتهما رئيسة قائلة «ماذا فعلت بكم تلك المقبورة يا بنات؟» لم تجب عليها أي واحدة منهما فقالت رئيسة «يا حول الله.. انتظراني بداخل العربة في الخارج». دخلت رئيسة عند الساحرة فعاجلتها قبل أن تجلس «شفيت لك بأمر خالقها نعسة، أجرتي هي أساورك». اقتربت رئيسة منها أكثر ثم جلست أمامها «ولك زوجا أساور ذهبية آخران وقرط وخلخال وكل ما أردت من مال لو حققت مرادي.. طفل.. طفل ذكر يرث زوجي». بدون أن ترفع رأسها قالت المشعوذة «ارحلي يا رئيسة، ما دام العيار قد أصاب بيت الولد في زوجك فلا أمل». بكت رئيسة بدموع الترجي لكن هذا لم يغير شيئًا من موقف المشعوذة التي نهرتها «صهٍ يا رئيسة لا تنطقي واتركي أساورك في الطبق ثم ارحلي، لا تأتيني أبدًا لا علاج لك عندي».

رجعت العربة بالنساء إلى الدار، اندفعت نعسة مسرعة الخطى تقفز قفزًا لا تكاد قدماها تلمسان الأرض حتى ترفعهما، أما تهاني فبعدما نزلت من العربة وقفت لدقيقة مترددة تشعر بالألم شعورًا يبعث بداخلها خوفًا يسلمها إلى عذاب نفسي. يخيل لها أيادي العبيد وهي ممتدة نحوها متضرعة لإنقاذهم. أغمضت تهاني عينيها ومشت تجر رجليها جرًا، أما رئيسة فقد اتجهت صوب العريشة باحثة عن همام.

مال جوهر نحو بشير:

– ما للنساء قد أتت كل واحدة منهن بحال؟

- لا أدري لربما أتين بأخبار غير مرضية، هل جهز الشراب المراد؟

- جهز لكن ينقصه بعض الأيام حتى يتم اختماره ويصبح مفعوله نافذًا.

- ستأخذ منه اليوم مقدارًا وستحتفظ بالباقي وعلى هذا النحو اعصر كل يوم من العنب ما استطعت، على شرط أن تكون حريصًا أن لا يجف إناء خمرك بأن تترك من القديم وتحفظ.

- علم يا سيد بشير.

دخلت رئيسة على همام، على الفور وضح سؤاله على وجهه فاكتفت رئيسة بأن جلست أسفل قدميه تبكي ففهم الجواب.

- سيرثك أبناء إخوتك لا محالة يا همام، لا الطب ولا السحر قادر على علاجك ليت الأمر كان بيدي أو كنت أنا المعيوبة.

بصوت أنهكه الهم قال همام:

- انهضي واتركيني يا رئيسة إنني لا أطيق من حولي بشرًا. دعيني أنأى بنفسي مع القفر الذي حولي.

رحلت رئيسة تاركة همامًا يصارع موج الأسى يسند رأسه الثقيل بيده.

كان همام يعلم تمام العلم أن جابرًا هو من صوب الطلق الناري نحوه وأنه كان يقصد بذلك إصابته في موضع رجولته، فإن لم يمت ماتت ذريته من قبل إنجابها فيهنأ بالقسم الأكبر من الثروة، أما أخوه الأصغر عبد الحكيم فلن يسلم من شيطان جابر هو أيضًا وبذلك يكون جابر قد ضمن الإرث كله.

لم يكن همام وإن كان قاسيًا يحمل نفس ضراوة قسوة جابر فابتلع فعلة أخيه في قلبه ولم ينتقم، أما الوالد عبد الجبار فقد رفض إظهار تصديقه للحقيقة وإن كان متأكدًا منها فما فعله ابنه الأكبر ما هو إلا نفس ما فعله مع باقي إخوته حين قتلهم جميعًا طمعًا في ثروة أبيه كلها.

دخلت نعسة الدار تهتف في عصبية:

- خضرا جهزي نفسك سنرحل الآن.

جاءها صوت عمها عبد الحكيم:

- بدون توديع عمك يا نعسة؟

- ظننتك رحلت يا عمي.

- ما الذي حدث عند تلك الدجالة؟ ما بك؟ جسدك ينتفض ويداك باردتان.

- لا شيء يا عمي المكان مخيف بعض الشيء لا أعرف ماذا حدث، لقد تعمدت عدم الإصغاء لما كانت تقول.. يا خضرا أسرعي.

ثم سحبت نعسة خضرا من ذراعها خارجة بها من الدار بسرعة، همهم عبد الحكيم «المسكينة سيضيعها جهلهم». أسر بها عبد الحكيم ثم صعد للطابق العلوي لتوديع تهاني. كانت تهاني واقفة تنظر من النافذة تفكر في من وارتهم عمائد البيت، حيث هي واقفة بدون أن تشعر بوجود عمها واقفاً وهي تحدث نفسها بصوت مرتفع «هؤلاء الظالمون هل كانوا يظنون إن كانوا قد غلفوا آثامهم بالصمت فقد محوها وأن سلطانهم الذي بنوه فوق الأبرياء سينكر أن قصورهم تلك ما هي إلا قبور». تنهدت بعدها بعمق، جاءها صوت عبد الحكيم «مع من تتحدثين يا تهاني، هل من المعقول أن زيارة الدجالة أثرت فيك أنت وابنة عمك لهذه الدرجة؟» التفتت تهاني لعمها وبابتسامة بائسة قالت « كأنك يا عمي لا تعرف أنه الآن أصبح تحت الأرض وفوقها عبيد».

تغافل عبد الحكيم عن سؤال تهاني قاصداً مغيراً الموضوع وذلك لأنه كان يفهم جيداً قصد تهاني، لكنه لم يكن قدر المواجهة «أنا مسافر الآن يا تهاني».

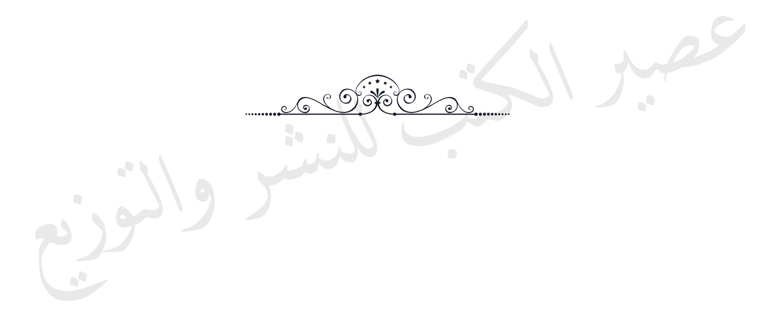
- مع السلامة يا عمي.

- هل أنت بخير يا تهاني؟

- لمَ لم تجب عن استفساري يا عمي؟ الحقائق التي تجنبت النطق بها والنظرات التي أخفيتها عني حين واجهتك بأمر العبيد.. أظن أن يامنة في المستقبل القريب ستمر بمرحلة تحول يا عمي بوجود العبيد فيها مرة أخرى.

- تقولين كلامًا ليس بالسهل عليك يا تهاني.

- ليس صعبًا يا عمي فالنهار ينسلخ من الليل بيسر، لا تقلق علي فلربما زيارتي لتلك الساحرة على ما يبدو أصابتني بالهذيان، سافر في رعاية اللّه وحفظه.



-٦-

ثلاثة أسابيع أخرى مرت كان عابد فيهم قد تأقلم في المكان الجديد منذ أول يوم وطأ فيه أرض يامنة، انسجم مع الخدم والأجراء والصعاليك من أصدقاء زيدان الذي أصبح صديقه الصدوق، يقضي عابد بصحبته جل العشيات يسامره ويستمع لنوادره. وكان زيدان يقارب عابدًا في العمر يعمل سقاءً كما كان يعمل والده العاجز متوليًا رعايته هو ووالدته، التي كانت رغم كبرها لا تتهاون في الخدمة ما بين داري عبد الجبار وابنه جابر إن طلبوا خدمتها أو بالأحرى إن أمروها. ولزيدان الكثير من الإخوة هو أصغرهم كانوا جميعًا يعملون إما أجراء في الأرض أو خدمًا في دور الملاك، وكان زيدان رغم أسماله البالية الممزقة شابًا وسيم الطلعة جذل الشميلة لطيف المعشر في لسانه قصر، إذا تحدث أظهر عن لدغة واضحة أضافت لطبعه المزاحي طابعًا فكاهيًا.

كان عابد ينهض مع الجميع للعمل مع طلوع الفجر وحتى الظهيرة بعد تناول الغداء والقيلولة يخرج للعمل مرة أخرى وحتى غروب الشمس، وفي أحيان أخرى حين يزف أوان السقاية لم يكن الفتى يعرف الراحة في الليل أيضًا. وكانت أرض عبد الجبار واسعة تروى بماء وفير ولو على حساب قطعة أرض صغيرة بجوارها، ولهذا السبب كانت تندلع المشاحنات بين أصحاب تلك الأراضي الصغيرة وبين العمال في أرض عبد الجبار، وكانت نفس عابد تأنف المشاجرات التي قد تصل للسباب أو مد اليد. في مرة تنازل عابد عن دوره في السقاية فاتهمه خليل بالغباء على مرأى ومسمع من الجميع فدافع عابد عن نفسه:

- الفلاح شيخ شائب، فقير معدم، ليس عنده شيء غير قطعة الأرض تلك والتي إن قورنت بأرض الحاج لكانت مثل قطعة حصير.

- أتدري كم من المال أنفق على قطننا يا عابد؟

- ليس قطنك أو قطني يا عم خليل ما الخطب إن أعطينا دورنا للشيخ؟ لن ينقص محصول الحاج عبد الجبار أما هذا الفلاح فسوف يجف زرعه إن فاته الموسم وربما يعيش أهل بيته الموسم اللاحق حفاة عراة جائعين.

حاول خليل استخدام أسلوب التدين فقال له معاتبًا:

- نحن يا بني قبل كل شيء ملزمون بالتفكير في صالح ولي نعمتنا حتى لا ينتقص من حسناتنا من شيء فنغدو أمام الله ناقصي الضمير.

رد عليه الفلاح صاحب الأرض:

- ما بالك يا خليل تقلق على المالك ولا أرى عليك من نعمة من شيء؟ ها هما ثوبك المرقع وحذاؤك البالي شاهدان على حالك. إنك وكل الأجرية تعملون في أرض الحاج وأبنائه لا ترفعون رؤوسكم عن الشغل ومع ذلك بدل الجلباب لم يصبح عندكم اثنان، تسيرون في نفس المداس صيفًا وشتاءً وها هي ابنتي راقدة ولا يوجد في جيبي ما أعالجها به، ترى هل سيساعدني سيدك إن طلبت منه المساعدة؟ لن يحدث وإن حدث فسوف يساومني على أرضي كما فعل مع غيري.

سكت الأجراء والفلاحون فأقوال الرجل استنزفت في نفس كل منهم جرحًا قديمًا مؤلمًا وأثارت خواطر كئيبة في عقولهم، كلام الفلاح شجع فردًا من عمال عبد الجبار ففاض بما اعتصرته نفسه وقال:

- لقد ضقت ذرعًا وفاض بي من هذا العمل المتواصل، إننا جميعًا نحرث ونحرث في الحر الصهج وفي الصقيع الزمهرير كي يبلغ الجبابرة ما صبوا إليه من ثراء وجاه وسلطة، إننا نكد ونتعب ونبذل كل قطرة عرق في سبيل إنماء الأرض كالأم التي تفنى في تربية أبنائها وأبناؤها عاقون، فلا خير يكب في حجورنا ولا نعمة تطالنا منها.

وقبل أن تنتقل عدوى البوح لباقي الفلاحين فيثورون لصالح الفلاح صاحب قطعة الأرض الصغيرة، أدرك خليل الموقف مهدئًا الفلاح الفصيح:

- لم يجبرك أحد على العمل، أنت غير راضٍ عن عملك حسنًا المسألة بسيطة، ألق فأسك أسفل قدميك واستدر ناحية دارك واجلس واضعًا ساقًا فوق ساق، وحين يضربك الملل انتف شعر إبطك على الأقل ذلك عمل أسهل من الحراثة.. ما هذا يا الله هل يعترض البشر على مشيئتك أن خلقتهم فلاحين وليسوا ملاكًا، الرحمة من عندك. هيا يا رجل أنت وهو حركوا الشادوف ودوروا بالساقية وافتحوا القنوات ناحية أرضنا.

مضت أيام وأثناء فترة القيلولة حيث كان العمال يتناولون غداءهم مر بهم الفلاح البائس صاحب قطعة الأرض الصغيرة وقد احمرت عينيه من البكاء، بادرهم قبل السؤال:

- ابنتي ماتت.

انقبضت الحناجر تأثرًا وأطبق على الجو صمت ثقيل. اقترح أحدهم «اجمعوا في منديل ما تمتلكون من مال». جمع الفلاحون كل ما يملكون من المال القليل مساندة للفلاح الفقير، فحتى الأموات لا غنى لهم عن المال من أجل لوازم الغسل والكفن والدفن، قبيل الفجر صلوا عليها صلاة الجنازة طالبين لها المغفرة، لم يفه أحد منهم بكلمة بعد جنازتها إلا واحدًا من الأجراء قال:

- كانت فتاة طاهرة بريئة انصاع لها القبر في سلام رحبًا واسعًا.



في حجرة ثرية بالأثاث والفرش الوثير أعدت خصيصًا لعبيد الأسياد بداخل دار عبد الجبار كان لهم مثيلتها في دار جابر، كان بشير مجتمعًا بقمصان الذي كان يمتهن من قبل في بلده مهنة عاصر العنب في خمارة الخواجة سرسيوس. كان قمصان واقفًا بجوار جرة النبيذ حين قال وهو ينتشي برائحة الخمر:

- اختمر النبيذ وأصبح جاهزًا للشراب.

أخذ منه بشير القنينة، مررها أمام أنفه متذوقًا رشفة منها:

- يا سلام جهز الشراب سالب الألباب، املأ زجاجة يا قمصان وبرشمها، ضعها في مكان أمين ثم اسقِ يا سيد قمصان مما تبقى منها همامًا حتى يختمر الشراب الآخر واحفظ منه قنينة كالسابق وهكذا دواليك.. اسقوا وعتقوا واعصروا.

أومأ قمصان رأسه بالإيجاب:

- تحت أمرك سيد بشير، لقد علمت أنهم يمتلكون بستان عنب في الجوار وبجواره بستان أكبر وأوفر لكنه لا يخصهم، آه لو يملكني عليه والبستان الآخر عبد الجبار لعصرت من عنبه أشهى نبيذ.

- كل شيء بأوانه يا قمصان، اسمع أريد منك ومن باقي العبيد أقصد الإخوة مراقبة تهاني، لا تجعلوها تفلت عن ناظركم إن لي فيها غرضًا.

ابتسم قمصان بخبث فقد فهم غاية بشير، وفكر، لا بد أن تهاني راقت له وطمع فيها كما طمع جميعهم في يامنة بأكملها. حمل قمصان زجاجة الخمر وذهب بها لحجرة همام، طرق الباب ودخل على الفور قبل أن يأذن همام، قال وهو يتقدم نحو همام فاردًا سريرته باسطًا يديه وزجاجة الخمر معلقة بإحداهما:

- ما بال سيدي منذ أيام على هذا الحال وكأن الهم معلق على كتفيه، لا نراك سيدي إلا والفكر شاغلك والحيرة مالئتك.

- انكسر خاطري يا قمصان، تقدم بي العمر بلا ولد.

- سيدي إن ذوي المال ينعمون حتى في الصحاري القفر، البنات في يامنة كثيرات كلهن مثل الورود الحمراء والتفاحات الناضجات مرحات ودودات، أمهاتهن ولودات، اختر لك واحدة منهن.

- ليت القضية كلها في المال حتى الملوك ذات أنفسهم لو في واحد منهم ما ابتليت به، ملكه كله ما استطاع جعله ينجب الولد.

- ليس الأمر يحتاج لمال بل لهذا.

ثم رفع أمامه زجاجة النبيذ.

- وما هذا؟

- مشروب الشباب يا سيدي الذي سيذيقك مباهج الحياة مرة أخرى.

ظل يصب قمصان الخمر طوال الليل وهمام منتشيًا حتى ظن أنه عاد فتى كما كان، لكن مع شقشقات الصباح أزاحت الشمس أوهامه طاوية أحلامه لتتحول أمنياته الغالية غبارًا أحاط به، ولينفض ذلك الغبار طلب زجاجة نبيذ أخرى من قمصان ليعود ثملًا بشكل مفرط عن الليلة السابقة دون وعي تقريبًا.



مضى شهران آخران، ماتت حسنة في صمت إذ إنه حين أقيم لروحها سرادق العزاء تعجب الناس؛ فقد كانوا يعتقدون أن حسنة ماتت منذ زمن وذهبت روحها حيثما ذهبت أرواح العبيد ويامنة في مكان تتلاقى فيه الخصوم وتظهر الحقائق. ولم يكن يعرف إلا قلة قليلة بحقيقة مرض حسنة وجنونها ونسيها الناس، خمسون عامًا قادرة على محو شخص أصبح وجوده عدمًا. لم يحزن أهل الدار لموتها فحجازة لم تخفِ ارتياحها حتى أمام زوجها عبد الجبار، بل ولم تتبع عادات الحداد وأنارت مصابيح الغاز بعد الأسبوع الأول ولم تنتظر للأربعين كما هو المعتاد والمأخوذ به في العرف، أمرت حجازة الخدم بطبخ الطواجن وخبز البسكويت والكعك بالسكر في العيد، وفي طلعة الأربعين ولما كانت حجازة معروفة بالبخل رفضت توزيع الرحمات على روح حجازة فوق قبرها للفقراء، واختلقت مشكلة مع حارس المدافن ادعت أنها عكرت لها مزاجها وحلفت أن لا توزع أي شيء من الطيبات، ولم تحل منديلها المعقود إلا ثلاث مرات بالعدد مرة للشيال ومرتين لبعض الصبية الذين اعتادوا التسكع في مدافن الأغنياء لجمع الحسنات والصدقات، على أن يتشاركوا فيما بينهم ما أعطتهم، ورجعت مرة أخرى بالقرص وباقي النقود التي أعطاها عبد الجبار لها لتوزيعها، ولم تعط خدمها سوى قرصة بيد كل واحد وخزنت المخبوزات

والفاكهة الباقية حتى عطبت وألقيت للحيوانات، أما النقود فقد وضعتها في صندوقها.

الصيف ينصرم متناقصًا والهواء قبيل الفجر يصير باردًا لكن الشمس لا تزال في عنفوانها لم يعكر صحوها تبدل الطقس، وعابد ما انفك يلوح بمجرفته بجد في الوقت الذي كان فيه عبيد الأسياد يجولون في القرية خلف أسيادهم مرحًا وعبثًا، حتى إن الخدم والأجرية ما كانوا لينقصوا من انصياعهم لهم كما ينصاعون للمالك، والأكثر من ذلك أنهم كانوا يعملون حساب خاطرهم منفذين أوامرهم كمثل أسيادهم خوفًا ورهبة.

انغمس همام في غياباته بالسكر وانخرط موهومًا بأن السكر هو علاجه وأنه به سيصبح له وريث، وظل الحال كما عليه مع جابر وعبد الجبار أما عبد الحكيم فكانت نفسه تعف عن زيارة يامنة مكتفيًا بالسؤال عن طريق الرسائل ما بين حين وحين متباعدين تزجه صلة الرحم زجًا لا أكثر.

ومنذ تلك الزيارة الأخيرة لنعسة إلى دار جدها لم تطأ قدماها الدار الكبير، أما عن تهاني وطوال الشهرين الماضيين كانت تعيش في وحدة شبه تامة اعتزلت فيها الناس، جاعلة من حجرتها مقامًا لخلوتها يساورها القلق والاضطراب، أحلام وهواجس وخيالات تزورها يتبع بعضها بعضًا، لا تهدأ سريرتها لساعات حتى تعاودها الوساوس المنغصات، فتارة تراجع نفسها فتقارن بينها وبين ذوي صلة الرحم بها من الجبابرة وتتساءل: هل تعتبر هي الأخرى مجرمة مثلهم؟ هل لو حلت اللعنة سوف تطولها؟ وتارة أخرى ترجع لكلام المشعوذة وتخبر نفسها ربما كانت المشعوذة كاذبة أرادت استدرار خوفهما من أجل المال.

انطفأت بهجة تهاني وخمدت ثورتها بل وأصبحت أكثر رفقًا وسكونًا، انتقصت شهيتها النهمة للحياة، لم تعد تناوش كل من في الدار وتتلصص على الزائرين من الرجال لمنزلهم أو تتعمد الظهور في كل مناسبة من مناسبات القرية مبتهجة بما

يتسرب لسمعها من أحاديث الغزل والمدح، منتقص مع ذلك وزنها بشكل ملحوظ وكانت من قبل ممتلئة الجسد، وفي الوصف يمكن القول أن تهاني فتاة سمينة ولكن سمنتها وإن كانت ملاحظة فهي مقسمة بشكل منسق لا يخل من منظرها العام، بل بالعكس كان يعطيها جمالاً فوق جمال وجهها الطفولي الملامح بعكس طبعها الظاهر.

شيء واحد لم يتغير بداخل تهاني هو إعجابها بذلك الفتى الأسمر عبد الأرض، بل كان إعجابها به يزيد يومًا بعد يوم كشجرة لبلاب متسلقة داخل قلبها تشابكت وتعقدت فروعها فأصبح التخلص منها مستحيلًا. لم تكن الظروف تسمح لتهاني برؤية عابد برغم كونها كانت تتوق للقرب منه وتهنأ بمراقبته، لكنها رغم ذلك لم تعِ حقيقة ما بقلبها نحو الشاب الأسمر وأن مشاعرها مشاعر حب خالصة، بل صممت على مغالطة نفسها بأن ما يعشعش بداخل قلبها إنما هو أضغاث إعجاب ليس أكثر، لن تلبث أن تنقشع مع أول استمالة منه حاله حال باقي الشباب الذين علقتهم بحبال ودها من قبل ثم خلت بهم.

في الوقت الذي كان فيه قلب تهاني ينسحب تدريجيًا نحو عابد كان عابد يميل ميلًا تامًا بكل مشاعره وحواسه نحو خضرا ابنة خليل، رغم أنه لم يرها خلال الشهرين سوى مرتين، الثانية ابتهج لها قلبه وتراقص حين طلب منه خليل أن يسبقه للبستان أمام حجرة إقامته الصيفية، والسبب مساعدته في ذبح وتحضير خروفين للحاج عبد الجبار سيبعث بهما زيارة لبيت الطحاوي بمناسبة ولادة حفيد ابنه جابر.

الأصيل حل وعابد جالسًا وحيدًا أمام باب البستان، الوحل كان يفترش الأرض بعد موجة مطر عاصفة هبت صباحًا على غير عادة في ذلك الوقت من العام، البيوت الطينية المتلاصقة والمسقوفة بالقش والبوص في غبش المغيب كانت تشكل لوحة كئيبة، وكان يبدو أنه استبدت بقلب عابد مسحة من الحزن لما ذكرته تلك البيوت بمنزله الحجري عند ضفة النهر، فعبرت دمعتان على خده مسحهما سريعًا بأطراف أصابعه.

مرت بجانب عابد ملامسة بطرف ملاءتها ركبتيه فتاة دخلت للبستان بدون أن تنتبه لعابد، كانت هذه هي خضرا تعتني وأمها ببقرات الحاج عبد الجبار وإن كانتا تحلبانها على مرأى من حجازة في حضورها، وما إن تنتهي خضرا من حلبها حتى تأخذ حجازة كوزًا لا تكاد تملأ نصفه معطية إياه لها وكان ذلك هو أجر عنايتها بالبقرات. رفرف قلب الفتى وخفق يريد الخروج من بين ضلوعه، فخضرا ما عادت بالنسبة لعابد تلك الفتاة المجهولة التي رآها أول مرة في الحقل إنما أصبحت أعز إنسانة بالنسبة إليه في معزة أخته زين، وكانت السعادة قد ابتسمت لعابد الشهر الماضي حين شاهد من شباك غرفة الخدم الفتاة منكبة على غسل الأواني، التصق الفتى بالنافذة في شغف يفكر لو أن شهقات حبه الحارة في تنهداته قد تستطيع الوصول إليها فتنتبه، أخيرًا التفتت خضرا نحوه لكنها حين رأته جفلت وهبت واقفة ومثل نجمة هاوية خطرت أمام عينيه واختفت في لمح البصر، بعد مرورها أسبل عابد جفنيه ضامًا إياهما على صورة خضرا المطبوعة داخلهما.

ترامى من بعيد صوت خليل يعقبه ثغاء الخروفين «أنت هنا يا عابد، تعال معي علينا ذبح هذين الخروفين وتجهيزهما للغد حين يذهبون بالهدايا لبيت الطحاوي». التفت لزوجته «أين هي ابنتك؟» هبت خضرا كالملسوعة، دست قدميها في نعلين وهرولت لأبيها الذي طلب منها كوب ماء فأحضرته على الفور له، تجرع خليل الماء ثم قال شاكيًا:

- إن روحي تكاد تطلع ولو أن بغلًا كان يقوم بعملي لخر واقعًا، ثم إن هذين اللعينين -مشيرًا للخروفين- عذباني في سياقتهما من حظيرة الغنم الكبيرة القريبة من حدود الجبل للبستان وسط الوحل، أخ! حتى أكبر المذنبين على الأرض لن يخصه الله يوم قيام الساعة بعذاب مثل هذا.

سخرت منه زوجته:

- طيلة عمرك وأنت هكذا وعلى هذا الحال ما الجديد؟ أنت تتعذب ليستمتع الآخرون.

حدج خليل زوجته شزرًا وصرخ بغضب:

- أليس من المجدي أن تطلبي مني أن أطلب من الحاج عبد الجبار الرأس والأرجل والكرشة شأن أي امرأة عاقلة بدلًا من تبكيتي؟ -مسح على بطنه- أي واللّٰه قد نتذوق الضأن السمين غدًا.

قالت خضرا:

- وماذا يعطوننا سوى الفتات؟

ازداد غضب خليل فأمسك بحذائه مصوبًا إياه نحو زوجته وابنته، هنا تدخل عابد وأمسك بخليل كابحًا جموح غضبه كي لا يؤذي زوجته أو ابنته:

- هون عليك يا عم خليل إن ما تفعل لا جدوى منه، إن النساء أطال اللّٰه في شعورهن وقصر عقولهن، من الأفضل أن لا نضيع الوقت وننجز في عملنا أليس كذلك؟

- عندك حق يا بني تعال لنذبح الخروفين، أنت تقيد وأنا أذبح.. نساء ناقصات، ثم ما رأيكما لن يأكل من الخروف سواي ما دمتما قد تبطرتما على النعمة.

بداخل عقر دار عبد الجبار كانت تهاني جالسة مع أمها رئيسة فوق المقعد الخشبي المفروش بالصوف الناعم المسرح، ترتديان ملابس البيت الخفيفة القصيرة والمقورة متخففتين من غطاء الرأس وشال الكتف، حيث إن العادة قضت ألا يدخل رجل غريب شطر الدار النسائي والذي يكون فيه مجلسهن ساعة العصاري أو وقت ما إذا كان في ضيافتهن بعض من النسوة. دخل قمصان المجلس مارًا من أمامهما بلا إذن، ففزعت تهاني باحثة عن ملاءة أو شال بجانبها تستتر به وظلت رئيسة كما هي على راحتها في مجلسها، توقف قمصان متعللًا بمساواة شاله قبل سؤاله إن كان سيده همام في حجرته أم خرج من الدار، بينما كانت

عيناه تروحان جيئة وذهابًا تستحصد نظراته من جسد رئيسة ملؤهما، ما بين قصبة رجلها التي استدارت بخلخال ذهبي وتربيعة صدرها التي افترشها كردان عريض، ومع ذلك لم تجد رئيسة أي حرج بل على العكس قد ظهر على ملامحها أنها استحسنت نظرات العبد وراقت لها.

بعد مرور قمصان من المجلس متجهًا لحجرة همام تطلعت تهاني لأمها موجهة لها الحديث مستشاطة وقد جن جنونها مما رأته من أمها «ألا تحتشمين يا أمي أمام الأغراب إنك لست بالصغيرة، أنت سيدة دار؟»

وبأعصاب محكومة وصوت بارد أجابت رئيسة بسؤال آخر:

- وهل تعدلين على أمك أم تراك تطعنين في خلقي يا تهاني؟

- بل ما رأيك أنت في خلق ذلك العبد وهو يحدق فيما تعرى من جسدك؟

لم تجب رئيسة على تهاني ولم تعد الأخرى السؤال مكتفية بصمت متأفف شاردة الذهن، تشرب الشاي بلا رغبة. قطع الصمت دخول عوالي زوجة خليل المجلس من أجل طلب الطحين لخبز الفطير المراد أخذه غدًا، سألتها رئيسة:

- هل انتهى خليل وعابد من ذبح الخروفين؟

- تركتهما وكانا قد ذبحاهما وشرعا في السلخ.

انتفض قلب تهاني حين سمعت اسم عابد وانتبهت حواسها.

- إني ذاهبة لبيت عمي خليل، أحتاج لتغيير جو.

أخذت بعوالي الدهشة ولم تجد شيئًا تقوله، إن تهاني ما كانت تطل عليهم قط منذ أن شب عودها ولو حدث فإنها ما كانت لتجلس أنفًا وقرفًا. جحّظت رئيسة عينيها قائلة:

- ماذا بك يا تهاني، من أنت؟ ومن هم؟ ثم إنه ما حاجتك في التردد على بيوت الفقراء هل يوجد شيء في ديارهم لا يوجد في بيت أبيك.

- لو أن الوضع كان صحيحًا هنا لما ذهبت لبيوت الفقراء لكن على الأقل يوجد هناك الهواء النظيف.

ثم ارتدت ملاءتها وخرجت من الدار إلى البستان.



ذهبت تهاني لمنزل خليل، فرشت خضرا لحافًا وأجلستها واضعة وسادة خلف ظهرها ثم ذهبت لإعداد الشاي، اقتربت تهاني من الطاقة المطلة على البستان موجهة وجهها صوب عابد حيث كان يجلس متربعًا يقطع لحم الخروف، تراقبه بنظرات طافحة حبًا ورقة يخفق قلبها بسرعة وترتجف أطرافها، تفكر فيما بين نفسها لو استطاعت محادثته أو البوح له لكنها عدلت عن الفكرة سريعًا راجعة للدار مخيبة الآمال في دهشة من خضرا وهي تردد بداخلها «أي جنون ذلك الذي كنت أفكر فيه؟»



-٧-

في الصباح حضرت عشر عربات محملة بالخضار والفواكه وأشولة الغلال بجانب الخروفين المجهزين، وسلال الفطير والخبز الساخن وفناطيس السمن مع أربعة أثواب كاملة من قماش الكتان والقطن والصوف، إن سعادة عبد الجبار لا توصف بحفيد ابنه، زهو أشعره بأنه لا يزال فتى في شبابه وأن عمره قابل لاستقبال مزيد من الأحفاد وأحفاد الأحفاد ولهذا السبب فقد غالى في الهدايا.

ظل الكهل واقفًا مفرود الظهر مرفوع الرأس أمام العربات حتى إتمام تحميلها، تقدمت عربات الهدايا تليها العربات المنوطة بحمل النساء. قال جابر أثناء مرورهن واحدة تلو أخرى «أعرف أنكن معشر النساء إذا ما اجتمعتن ما كفاكن في الثرثرة أيام لذا بعثت بكن لمنزل أقاربنا من أول النهار، إن أجود شيء قد تهادي به امرأة لا يقارن بجلسة نميمة تتاح لها، أما أنا ورجالكم فسوف نعقبكم آخر النهار».

فرحت النسوة بتلك الإجازة وأسرعن باتجاه العربة، ولما كادت حجازة تضع رجلها في العربة تحرك الحصان على غفلة واهتزت العربة فانزلقت قدمها ووقعت تحت عجلاتها، ذعرت النساء وهب عبد الجبار وابناه نحو حجازة يساعدونها على النهوض، لكن كان على ما يبدو أن رجل حجازة قد كسرت فلم تستطع الوقوف، فحملها جابر ودخل بها إلى الدار، صرح عبد الجبار «فيما يبدو أن رجلها كسرت، اذهبن أنتن ستكون خضرا وعوالي في رعايتها، أما أنتن فخذن معكن فتحية أم زيدان وزين ولا تبالغن في وصف حالة حجازة بل قلن إنها مريضة بعض الشيء». ثم التفت لخليل «اذهب للمجبر وائت به وقبلها أأمر زيدان وعابدًا وأحد الأجرية بالذهاب لدوار الطحاوي».

أسرع خليل بتنفيذ أوامر عبد الجبار. ظل يبحث عن عابد في الدوار وفي الحقل بلا أثر حتى وجد خليل زيدان بجانب البئر، هتف بصوت عالٍ «اذهب لصاحبك وخذ معك عاملًا آخر واذهبوا لبيت الطحاوي ستحضرون الحفل». أشاح زيدان بيده «نحضر الحفل أم تقصم ظهورنا من خدمة أصحاب الحفل وضيوفهم». «افعل ما أمرتك به يا زيدان ولا تجادل، إن كان الكلام لا يعجبك ابحث لك عن عمل آخر». رحل زيدان وهو يهمهم «لا نجاة في يامنة المرء يتقلى فوق نار إلى نار أخرى، من دار عبد الجبار لدار الطحاوي». لقي زيدان عابدًا أمام النهر وهو ينشر ملابسه التي غسلها فوق جذع شجرة عجوز شريد، قال له بصوت جاد «هلم يا عابد إننا مدعوون، السيد خليل دعانا لحضور حفل سابع حفيد لابن عبد الجبار». لعل عابدًا صدقه فقال له «سنكون مثل الهالوك الملتصق بسيقان الفول». ضحك زيدان «وهل صدقت أيها الطيب؟ سنقف في مكان ما على جنب نشاهد ونتسلى بينما نخدمهم، لا عليك يا صديقي سنفرح ولو قليلًا». ضحك عابد من فرط سذاجته كثيرًا، تلك السذاجة التي جعلته يصدق أنهما بالفعل مدعوان.

وأما الطحاوية فإنهم أولاد عم للجبابرة ينتمون للجد الأكبر الذي استقر في قرية يامنة ثم تزوج النساء وأنجب الأبناء، لكن وصاية العائلة وسلطتها كانت بيد الابن الأكبر دومًا الذي إما أن يُسمى، كما قضت العادة، بجابر أو عبد الجبار، يكون قد أخذ الوصاية، أما الثروة كانت توزع بالتساوي على الأبناء الذكور مقتضبين منها حق النساء.

إن الجبابرة مع الزمن وتفرع الأصول انقسموا فمنهم من استخدم الذكاء والمكر فزاد من ثروته وضاعفها ومنهم من نهم منها حتى نفدت فاضطروا للنزول منازل الخدم والأجرية، فأصبحوا فرعًا من الفروع الفقيرة التي اشتغلت في خدمة الدور الكبيرة التي توسعت وازدادت حظًا ونفوذًا مثل الطحاوية والكوامل والعزيزية ودار عويس، أي أن خلاصة القول هي أن جميع أهل يامنة وللدقة علينا القول بأن معظمهم من أصل جد واحد.

ولم تكن دار الطحاوية تقل فخامة وثراءً عن دار الجبابرة الفرع الوصي حيث إن كلًا منهم احتكر نوعًا من التجارة، إما القطن أو الغلال أو الفاكهة أو الماشية أو العطارة، إلى غير ذلك وقد توسعت تجارتهم وامتدت لبعد حدود يامنة منتشرة في ربوع الصعيد.



جلست النساء في مقاعد خصصت لهن وبعد السلام والتحية أخرجت النساء مناديل الهدايا التي جلبنها، وكانت المناديل كل واحد قد صر فيه نقوط المولود والذي هو عبارة عن مجموعة من الجنيهات الذهبية. وضعت النساء المناديل في سبت المولود مباركة قدومه.

انتصفت أم المولود النسوة في القاعة. كانت الأم هي بهية أخت نعسة وابنة جابر، تربعت بهية كالعروس أمام سبت وليدها مرتدية فستانًا طويلًا ورديًا من الحرير مطرزًا بدقة بخيط فضي لامع يسرح طويلًا فضفاضًا، وقد أثقلت يديها بالأساور والخواتم تتدلى سلاسل الذهب من عنقها متزاحمة بعضها فوق بعض، بدرجة طمست أشكالها حتى أصبحت ككتلة واحدة ذهبية، فوق رأسها وضعت بهية منديلًا ورديًا خفيفًا من الشيفون فوق حدود فرق قصتها التي تساوت فوق هلالي حاجبيها تاركة شعرها الكستنائي مفرودًا خلف ظهرها متباهية به، مكتحلة العينين مزينة كفيها ورجليها بنقوش الحناء، لم يكن ذلك التدلل إلا لأنها بكرت بمولود ذكر.

في القاعة جلبت مغنية من الغجر معها فرقتها وهن ثلاث نساء وظيفتهن الغناء ومعهن ضاربة دف وأخرى تدق على الطبلة، وذلك للترويح عن النساء وإشاعة جو من البهجة بينهن. تقدمت الشابات الصغيرات المتطلعات للفوز بعريس عن طريق لفت الأنظار إليهن بالتقدم واحدة تلو أخرى، تؤدي وصلة تظهر فيها رشاقتها ومحاسنها فلربما تلحظها الأمهات والجدات فتتقدم لخطبتها لابنها أو حفيدها،

وقد وضعت رئيسة وسنية آمالهما العريضة على ذلك الحفل لعل بناتهن يحظين في تلك المناسبة بعريس جيد.

لم تجد تهاني نفسها في غابة الزيف تلك، حالها كان كما لو كانت تتراقص على إيقاع غير موزون لا هي قادرة على مجاراتهن أو التحرر منهن؛ لذا قررت الانسحاب من المجلس ولم يلحظ انفلاتها من المجلس سوى نعسة فتبعتها، خارج الحجرة جذبت نعسة تهاني من طرف كمها:

- ما بك يا ابنة العم؟ ذبل وجهك ونقص وزنك لم تعودي تهاني التي أعرفها، معقول أن يمر مجلس كهذا ولا تكونين فيه أنت النجمة، أين صخبك وجلبة ضحكاتك التي كانت تشغل كل الرؤوس؟

أجابتها تهاني في صوت يائس ضعيف:

- أظنها اللعنة يا نعسة قد ألّمت بي.

- أي لعنة تقصدين؟

- اتركيني يا نعسة فإن لم يرحمني ربي لأكونن من الهالكين، ادعي لي بالرحمة حتى يخلصني اللّه من عذاباتي فإنني أوثر الموت على ما أنا فيه.

ثم تركتها، فرت سريعًا كغزالة شاردة حتى ابتلعتها دهاليز الطرقات تود لو تبتلع في ظرف غامض ثم تُنسى في جوف العدم، فينسى الناس أن في يوم ولدت فتاة تدعى تهاني وتنسى هي نفسها كأنما ولدت من جديد ليس من أم أو أب إنما من حجر قاسٍ قلبه.

بلغ عابد وزيدان والأجير عيد دوار الطحاوي وبقدر ما كانا يقتربان كان الضجيج يسمع بشكل واضح، أصوات مختلطة.. صياح الأطفال وضحكات النساء مع حركة الخدم، قال عيد عندما وصلوا لأعتاب الدوار:

- حرق الله منزل هذا السيد خدمت عندهم خمس سنوات لم يعطوني فيها أجرة يدي، وحين طالبتهم قالوا لي ادفع لنا في الأول أجرة طعامك وكسوتك وحق إيوائك ثم تعال لنتحاسب ستجد أنك مدين لنا ثم طردوني، بعدها ذهبت أشكو لعبد الشكور الذي توسط لي عند الحاج عبد الجبار والذي بدوره ضمني لسرب الأجرية في أرضه.

عقب عابد:

- وأنا الذي كنت أريد التحدث مع الحاج بخصوص أجرتي.

ضحك عيد:

- إن قيمة الحمار عندهم أثمن من قيمة الأجير فما بالك بالعبد الذي دفعوا فيه المال؟ انس يا أخي يكفيك منهم لقمة عيشك وكسوتك السنوية، إن العمل على كل الأحوال أحسن من التسول.

أيده زيدان:

- عندك حق يا عيد، فما من سنبلة تحمل القمح مطبوخًا، الحمد لله على نعمة العمل.

دخل الثلاثة رجال الدوار، استقبلهم أحد أفراد البيت وكان شابًا صغيرًا لا يتجاوز السابعة عشرة، غمز عيد لزيدان وعابد «إنه والد المولود المقام على حسه هذا الهيلمان». هتف عليهم الأب الصغير «انتظروا مهلًا أمامكم يوم بطوله حتى يأتي الرجال في آخر النهار، هل تراكم ستجلسون هكذا بلا عمل؟ اذهبوا وحملوا أشولة الكسب تلك على العربة أمام الدوار ومن بعدها سنرى أي مصلحة ستقومون بها». توجه عابد بنظره نحو زيدان وقال «معزومون أليس كذلك، والله إني لأغبط هذا البغل المربوط أمامنا».

نزلت تهاني حيث نزل الخدم بروية، كان النزل ملاصقًا للدار من الجهة الخلفية تعده جزءًا ليس منه لحقارته مقارنة بالمنزل العريق بأثاثه الفاخر وفرشه، المكان مكون من طابق واحد مقسم لعدة حجرات مبني من الطوب اللبن ومطلي

بالطين من الخارج والداخل، بتصميم لا يختلف عن تصميم أي نزل خدم في منازل الأثرياء من أعيان يامنة.

الجو خانق بشكل لا يطاق من أثر أبخرة الطعام وأدخنة الأفران، وكانت الخادمات يغرقن في عرقهن أمام الكوانين والأفران ويغصن في دموعهن قبالة أكوام البصل المقطع منهمكات بجد، يتابعن أعمالهن كالمكوك على قدم وساق لتحضير الطعام وإعداد الخبز والفطائر لذا فإنه لم تنتبه واحدة منهن لوجود تهاني بينهن، وربما لاحظتها إحداهن فظنت أنها أتت لمراقبتهن فزادت من نشاطها وحموتها في اجتهاد نحلة بداخل خلية. لاحظت تهاني وجود جدتها آمال وهي الأخت الوحيدة لجدها عبد الجبار وقد اتخذت مكانًا قصيًا في أحد الأركان، تمسك سلاعة شوك طويلة تغرزها في ثوبها الممزق من ناحية الوسط تلصق طرفي الثوب بعضهما ببعض لتستر جسدها.

تقدمت نحوها تهاني:

- جدتي آمال ما الذي أتى بك لشطر الخدم؟ ثم ما هذا الذي تفعلينه ألا تملكين يا ابنة الجبابرة سوى ذلك الثوب الممزق؟

- بلى أملك.. ما هو أبلى منه.

- أنت أخت عبد الجبار مكانك فوق مع نساء العائلات تعالي أنا سآخذك وسأجلب لك ثوبًا.

أفلتت العمة يدها برفق وبوجه مفعم بالأسى والحنق قالت:

- نصيبي يا ابنة ابن أخي حين زوجني عبد الجبار لرجل من أفراد الفرع الفقير فأمسيت تبعًا له خادمة، أنا لا ألوم القدر أن زوجي كان معدمًا ضيق الحال فهو رجل شريف لم يلقمني في فمي لقمة حرام ولم يهن عشرتي معه لكن الظلم موجع. ابني رزقه الله الشهر الماضي بولد تلقيته بيدي على خرقة قماش قديمة حتى ثوب قماش لم يبعثه لنا أي قريب في يامنة.

- إنهم في يامنة لا يورثون النساء ولا يعطونهن حقوقهن لعنة الله على الظالمين يا جدتي، إن ربهم سيردهم مسقطهم في سبع أراضين ذلك قدرهم فماذا حينها ثروتهم لهم فاعلة، لكنهم بعذابه غير آبهين أو لعلهم يا جدتي باليوم الأخير غير مؤمنين، هوني عليك يا جدة فما عند الله لا يضيع، لك الجنة.

صعبت على آمال نفسها فأجهشت في البكاء:

- أنا لا أكره أخي عبد الجبار، والله لا أكره أخي ولا أريد له العذاب لكن قسوته جعلت وجوده في قلبي ينحسر عن لبه إلى حوافه.

- اسمعي يا جدة أنا أرتدي أسفل ثوبي هذا قميصًا جيدًا خذيه والبسيه أسفل ملابسك واستري نفسك به، وأريد منك شيئًا آخر.. أن تمري علي من حين لآخر سوف أهديك من الطعام ومن ملابسي وحاجاتي الخاصة، لا تعولي الهم يا جدة آمال وكوني مطمئنة.

احتضنت آمال تهاني داعية لها بالخير وراحة البال ثم هتفت تهاني في النساء بملء قلبها من بهجة «على مهلكن إنما جئت للمساعدة وليس للمراقبة يا نساء يامنة». رحبت النسوة بها وباركن خطاها، وطوال وجودها بينهن كن يراقبنها ويحدقن، هكذا تجلس وهكذا تتحدث وهكذا تبتسم. تحرك حاجبيها مع تعابير وجهها إذا ما راق لها كلام أو شد انتباهها شيء، تقطب جبينها مركزة وهي تحاول فرد الفطير كما يفعلن فيعجبن بأسلوبها وطريقتها. كان لتهاني جاذبية مفرطة مقنعة جعلتهن يتحدثن عنها ويضحكن ويندهشن. إنها تهاني شعلة الحماس المتقدة على الدوام.. لم تكن الفتاة المدللة تجيد من أعمال المنزل من شيء لكنها برغم ذلك أبلت بلاءً حسنًا في تقشير الثوم.

بعد أن انتهى عابد وزيدان وعيد من تحويل الأشولة من داخل فناء المنزل لخارجه على العربة الواقفة، اتكأ الثلاثة على ظهر حائط نزل الخدم مختفين عن الأنظار كي لا يراهم أحد من أهل الدار فيكلفهم بعمل آخر. تسربت من الطاقة التي كانت تعلوهم روائح الطعام الشهية تعبق الهواء متسللة تشق طريقها إلى

أنوفهم، ما كان من زيدان إلا أن فك حزامه مخرجًا الخبز الذي كان يصره حول خصره وراح يغمسها بالدخان المعبأ برائحة شواء الضأن التي ساحت دهونه على مهل في طواجن الفخار بداخل الأفران. ضحك منه عيد وعابد، فسأله الثاني:

- ماذا تفعل يا أبله؟

- أغمس العيش برائحة اللحم الضأن، انظرا إن تلك الجهة تأتي منها رائحة البط المسلوق وإني لأجزم أن الناحية الأخرى قد وضعت فيها قدور الحمام.

قال عيد:

- كفى يا زيدان إن أمعائي تتشاجر مع بعضها.

قال عابد:

- بل كفاكما أنتما الاثنين سأذهب لأجلب لنا طاجن لحم.

وجه إليه زيدان الحديث:

- وهل تجرؤ؟ إن عملة كتلك ثمنها عشر جلدات على ظهرك بل وستجعلك تشم رائحة شواء لحمك أسفل سيخ سيدك المحموم.

وقف عابد وبثقة كاملة ختم حديثه معهما:

- لا أبالي.

دار عابد حول النزل حتى عرف مدخل المطبخ، دخله متسللًا وجال بنظره يستكشف المكان فوجد فتحية أم زيدان أمام عين الفرن وكانت تهاني جالسة بجوارها، تقدم عابد ببطء على استحياء فسألته فتحية وهي تحرك الطواجن داخل الفرن:

- ماذا تريد يا عابد؟

أشار برأسه وهو يزدرد ريقه:

- أريد من هذا الذي يفقفق داخل الفرن.

صرخت فتحية في وجهه:

- هل تود أن تأكل من طعام أسيادك قبل أن يأكلوا منه هم، يا لوقاحتك وقلة أدبك؟!

- وما الضرر هل لن تمتلئ بطونهم إن أخذت طاجنًا لي ولابنك ولعيد؟

- لا بل تلك أمانة يا ولدي.

- لا أمانة يا خالة أمام الجوع.

أقدم عابد نحو الفرن مخترقًا صف النسوة ثم خلع عمامته مخرجًا بها أحد الطواجن ورحل سريعًا في دهشة من كل النساء. أعقبت بعدها فتحية:

- انظري يا تهاني لهذا العبد كيف اختطف الطاجن من أمامنا كالحدأة!

قالت تهاني متبسمة لابتسامة عابد حين ظفر بالطعام:

- لا، بل هو صقر.. صقر حقيقي.

رجع عابد لصديقيه بالطعام مستقبلينه استقبال المحارب الراجع من الحرب منتصرًا مهللين مكبرين.



دخلت نعسة حجرة الخدم متأففة واضعة المنديل فوق أنفها تبحث عن تهاني، وما إن وجدتها حتى أمسكت يدها وقادتها سريعًا للخارج وهي تسعل:

- أوف من هذه الأدخنة ألا تخنقك؟ منذ صغرك وأنت تميلين للعب مع أبناء الخدم وتلويث نفسك بالطين والتراب كما يفعلون.

- ما الذي أتى بك يا نعسة؟

- أمك تبحث عنك، خمني أنت ما السبب وقولي أسعد الأسباب وأجملها.

- هل وافق جدك على سفرنا لزيارة عمك في القاهرة؟

- لا، بل ما هو أهم من ذلك، إن واحدة من نساء الطحاوي طلبت من حماة أختي أن ترشح لها عروسًا فرشحتني وإياك، والآن زوجة عمي تريدك حتى تستعدين لمقابلة الأم كي تغنم واحدة منا بالعريس المراد فيتحقق الأمل المنشود.

حصل ما كانت تهابه تهاني وتخشى وقوعه، إن الدرب الموحل الذي عاهدت نفسها أن لن تمر به ستنغرس فيه انغراسًا عن قريب سيغمرها وستغرق، حتى الموت الذي تمنته لا يشبه ذلك الموت المزري، ذهبت تهاني على مضض يتمثل في خاطرها مستقبلها وقد جاورت ابن الطحاوي وبينهما جرف واسع طويل، إن هي حاولت عبوره سقطت وإن استقرت ذبلت وجفت وتحللت، ابتلعت تهاني مرارة الأسى بداخل نفسها حتى وصلت إلى أمها. في صمت كئيب تلقفتها رئيسة من أمام الباب الرئيسي ودخلت بها إحدى الحجرات.

- أين كنت يا تهاني؟

- في المطبخ.

- إن أفعالك المشينة تلك ستضر بسمعتك، متى ستعقلين؟

فتشت رئيسة بداخل حقيبة قماش أحضرتها معها، أخرجت منها ثوبًا وبعضًا من الحلي «أخ! نسيت دهان الوجه وعجينة الحمرة، لا بأس فالكحل موجود وستتكفل كفي بتوريد خدودك، البسي هذا الفستان». قلبت تهاني الفستان بين يديها «إنه قصير ومكشوف الصدر وأكمامه بالكاد تصل لثلثي ذراعي». قدمت رئيسة حجتها «وهل سأكشفك أمام الرجال أو الأغراب؟ إنهن قريباتنا، ثم إن أم العريس هي التي ترى وتعاين والعريس ما عليه إلا أن يتزوج، كفاك مماطلة، البسي الثوب». خلعت تهاني ثوبها فاكتشفت رئيسة أن ابنتها لا ترتدي قميصًا أسفل ثيابها «أين قميصك يا تهاني هل خرجت بدونه؟» أجابت تهاني أثناء ارتدائها الثوب الجديد «لا، بل أعطيته لجدتي آمال كي تستتر به نفسها». نفثت الأم غيظها قائلة

«ألم أقل لك إن أفعالك المشينة تلك ستجلب لنا العار!» ارتدت تهاني الثوب بعدها أمسكت الأم بذراعي ابنتها ولوحتها باتجاهها وصفعتها بلطمتين على وجهها.

- ماذا فعلت يا أمي لتضربيني؟

- لم أضربك ولكن حتى يظهر خداك أحمرين متفتقين.

- بل ستظهر آثار كفك على وجهي.

لم تكتف رئيسة بل أخذت تقرص تهاني في أنحاء وجهها كله.

- كفي عني ماذا تفعلين بي لماذا تقرصينني؟

- حتى أملأ الفراغات أماكن ما بين أصابعي حين صفعتك على وجهك فيصبح وجهك كله غضًا تفزع الصحة من كل جزء فيه طبيعيًا فلا تشك النساء فيك.

- تبًا لرجل أصفع وأقرص من أجله.

- ذلك حتى تتعلمين المحافظة على شيء تألمت من أجل الحصول عليه، ثم إن عليك تنفيذ نصائح أمك الراشدة إذا أردت الفوز. انزعي عنك عزة نفسك المتعالية في حضرة حماتك المستقبلية، اجعلي وجهك متبسمًا لكل قول تقوله وإن كان فيه ذم لك، قربي منها الطعام والشراب واحرصي على ألا تكوني لحوحة أو ممانعة، وازني أفعالك ورداتها اتجاه حماتك المستقبلية، لا تقاطعي حديثًا لها ولا تعقبي هكذا تكوني قد ضمنت العريس.

خرجت تهاني بوجه متورم أحمر كأنما نقع ليومين في ماء البنجر.

داخل القاعة أبدت نعسة كل ما تملك من فنون الرضوخ والاستكانة أمام الحماة المستقبلية، جالسة بجوارها تقشر لها الفول والبلح والموز قائمة على خدمتها، بينما جلست تهاني بعيدة معتدة بنفسها رافعة الرأس محتفظة بكبريائها مما أغضب رئيسة وخيب أملها في أن تفوز ابنتها بذلك العريس.

مع انقضاء النهار وانسحاب الشمس بدأت وفود الرجال تنهل على دوار الطحاوية، أزاح الخدم الأطفال عن الفناء لاستقبال خيول وكاريتات الأعيان... في وقت سابق أعطى جابر لكل عبد سيد عصا بيده وكانت العصيان مصنوعة من خشب الأبنوس المطلي بقشرة الذهب مزين مقبضها بقطع من الأحجار الكريمة، وكان عبد الجبار وأبناؤه وأبناء أبنائه منفردون بتلك العصي المميزة عن أي واحد في بر الصعيد، ولم يعط عبد الجبار سر العصي من أين جاء بها؟ ومن صنعها له؟ لأحد أيًا كانت معزته لديه، لا أحد يعرف من أين تؤتى له؟ ومن يأتيه بها؟ إلا أن الظنون كلها كانت تحوم حول عبد الشكور بأنه يأتيه بها من إيران مع السجاد والحرير موصيًا بها معارفه أو ربما من تركيا أو حتى أوروبا لكن عبد الشكور لم ينفِ ولم يجزم بهذا الأمر.

وزع عبد الجبار العصي على العبيد قائلًا لهم «إن العصا وجاهة وخيلاء ما بعده خيلاء تعطي الرجال الهيبة بجانب الوقار، وإني لأريد أن أقيمكم حتى تكونوا بجوار الأسياد أسيادًا فأبدو أنا وأبنائي أسياد الأسياد».

دخل عبد الجبار دار ضيافة الطحاوي ومن خلفه أبناؤه وأبناء أبنائه، يتبعه عبيد الأسياد الثمانية موزعين على صفين منتظمين، بعد رفض عبد الحكيم الابن الأصغر لعبد الجبار أخذ عبيده معه للقاهرة مكتفيًا بوجودهم معه في البلدة فأصبح الثمانية حزمة واحدة في يامنة. عم المجلس برجال يامنة والقرى الأخرى والمراكز المجاورة من الأعيان والشيوخ ومأمور المركز الذي كان حضوره أساسيًا في تلك المناسبات، كل جماعة انفردت بحديث خاص فيما بينها أما عبيد الأسياد فقد انتشروا بين الجماعات مرهفين السمع منصتين لما يقال بدون أن تنبس أفواههم بكلمة واحدة أو يشاركون بالرأي، إلا إنهم وبالرغم ما اصطنعوه من بلادة وجمود كانوا واعين تمامًا لما يدور بين الأعيان.

مفاد حديث الجمع كان ينصب على فكرة واحدة ألا وهي توسيع نفوذ سطوتهم كأصحاب أملاك على العمال والفلاحين، لكن ما أخافهم هو تمرد الفلاحين في قرية البداري وقلقهم من تكرار ما حدث فيها في يامنة، إذ نمى لعلمهم أن عاملًا

في إحدى القرى البعيدة تمرد على مالك الأرض بسبب أنه جار على حقه فلم يعطه قرشًا منذ عمله لسنوات في داره وأرضه؛ لذا ما كان من العامل إلا أن انقض على سيده بمنجله حين طالبه بأجره ورفض. وقد هيجت دماء السيد المسالة على منجل العامل بقية العمال، فانقضوا على مالكهم بغيظ كل السنين الذي دفنوه في أحشائهم والكراهية الموروثة في دمائهم والتي داروها كمدًا مردين سيدهم صريعًا.

أبناء المالك تداركوا تلك الكارثة قبل أن ينتقل هوس الانتقام إلى باقي الفلاحين فتصيبهم عدوى هذه الروح الثورية فيثأرون من العائلة بأكملها ومن ثم تثور القرية كلها. لذا وفي الحال فإن أبناء القتيل قتلوا جميع عمالهم المشارك في الحادث وغير المشارك، ثم سحلوهم وهم موتى مارين بهم على منازل القرية جميعًا. وقد أقر الضيوف أن اليوم أشبه بالبارحة حين دفن جابر عبيده أحياءً أسفل منزله، وكيف أن سياسته الحكيمة تلك أصبحت مرجعًا لكل سيد ومالك في ردع أي متمرد، مترحمين على جابر معددين مناقب أفعاله الصالحة وقوة جأشه في التعامل مع المواقف الصعبة.

قطع الحديث مرور صواني الطعام الدسمة بين ما هو مشوي ومطهي، وضع جابر أمامه سلطانية حساء البط، أمسك خبزًا محمصًا كسره وألقاه في السلطانية قائلًا «إن شُربة البط تلك لها عشق خاص في نفسي لو أغرقوني في بحر منها ما شبعت». ضحك الجمع ثم أشار واحد من الضيوف لعبد الشكور «احك لنا يا عبد الشكور عن أحوال الباب العالي والولاية». قال عبد الشكور بعد أن التقط فردًا من الحمام ملتهمًا نصفه في قطمة واحدة «يا أخي ظهر شاب ثائر يدعى مصطفى كامل عمل على توتر الأوضاع بين مصر والإنجليز، إنه يدعو في مقالته في جريدة تدعى اللواء لوحدة مصر مع دولة الخلافة، هل يريد ذلك الأخرق حربًا مع بريطانيا؟ وحتى لو طالبت بريطانيا من مصر إعادة فتح السودان بأموال مصرية ورجال من مصر فهذا واجب علينا لأننا نعيش في حماية المملكة»..

تجرأ بشير وقال وهو يغرس أصابع كفيه العشرة في كتف خروف أمامه «لو سمحتم لي يا سادة أن أصرح بوجهة نظري، إن الوالي والخديوي بالنسبة للحاكم

الإنجليزي على تلك الأراضي كعبد السيد للسيد، والحاكم الإنجليزي على أراضينا بالنسبة لملك بريطانيا العظمى كعبد السيد للسيد أيضًا».

أشاد الحضور:

- بالفعل.

- يا له من عبد حكيم!

قاطعهم عبد الجبار رافعًا كفه مخمسًا به «إني أشهد لك يا بشير، إني أشهد لك. إنك تبرهن لي برجاحة عقلك تلك وفطنتك حكمتي في تعيين عبيد أسياد كسابقة هي الأولى من نوعها بين الأثرياء والأعيان وشيوخ العائلات، وإنه لرائع أن تشبهني بجلالة ملك بريطانيا العظمى».

قال عبد الشكور:

- إن العالم يا كرام عبارة عن حلقات متداخلة من الأسياد وعبيد الأسياد والخدم والعبيد. دائرة بداخل دائرة وهكذا دواليك دواليك.

عقب أحد الشيوخ الأزهريين من الضيوف والذين غالبًا ما يكونون مدعوين للتبارك بهم أو دلالة على تدين وورع صاحب الحفل:

- إن الله خلقنا طبقات وفضل بعضنا على بعض. ومع هذا لا يكف البعض من الفقراء ممن يدعون أنهم مظلومون عن حقدهم على من كرمهم الله عنهم وأعلى مكانتهم وعظم مقاماتهم معلنين التمرد على ما خلق الله عليه البشر وأكابرهم.

قال واحد من المدعوين يدعى الثعلب وهي كنيته إن لم يكن ذلك اسمه الحقيقي، والثعلب رجل بلا أرض ولا ثروة ولا مكانة سوى أنه صاحب نفوذ وبطش، واحد من قطاع الطرق الكبار يعمل تحت إمرته قطاع طرق ولصوص وشبيحة آخرون، وكان يعرف الجميع بما فيهم مأمور المركز مهنته الحقيقية إلا أنه كان معروفًا فيما بينهم أمام عامة الناس بأنه تاجر من التجار، لكن أي تجارة يتاجر فيها بالضبط.. لا أحد يعرف. قال الثعلب:

- إن من يتمرد على طبيعة الخلق وجب قتاله.

أردف عبد الشكور:

- أنا غير متفق ولا أشجع فكرة القتال فأنا من أهل الإصلاح بالتعامل مع الواقع بالحكمة والدهاء من خلال القنوات الشرعية، مثل المتعلمين والمتحدثين ورجال الدين بالنصح والإرشاد وإعطاء بعض العطايا المردودة على سبيل التحايل لأنه لن يكبح الموت أفكار هؤلاء، فتلك يا سادة معتقدات مصدقة في عقولهم إن قتلت جزءًا منهم ظهرت مجموعة أخرى إنهم لا ينفدون أبدًا، في رأيي استهداف العقول أصوب من استهداف الأجساد.

قال إمام المسجد الكبير والذي غالى في أكل الفتة المشبعة بقطع الضأن حتى أوقع من الدهن على قفطانه فدنسه:

- كفى كلامًا عن السياسة يا أجاويد. أبهجنا يا عبد الشكور وافتنا بالحديث عن الفن ومسارح القاهرة ووصف نساء الإنجليز، يقال إنهن يمشين في الشوارع سافرات مبديات الزينة متبرجات أستغفر الله.

ثم أخذ الحديث سبيلًا آخر اختلط فيه المزاح بالأحاديث الخفيفة.

بعد أن فرغ الضيوف من طعامهم مر الخدم بأباريق الماء والصواني النحاسية واضعين المناشف على أكتافهم، يمدها كل خادم لسيده بعدما يكون قد غسل يده. كان همام قد طلب من قمصان الذي أصبح الصديق الصدوق بالنسبة له والمقرب من دون العبيد بل وعن خلانه وإخوته، طلب منه همام أن يحضر معه بعضًا من زجاجات النبيذ. أعطى قمصان الزجاجات لخبير والكؤوس لجوهر، واحد يصب والثاني يمر بالكؤوس على الضيوف بينما يستمعون للأتوغراف وقد أعجبهم المذاق وكيف مفعوله مزاجهم، ولما رأى همام ما رأى من تأثير الشراب على الجميع لاح في خاطره فكرة شيطانية.

بينما كان السمر على أشده في قاعة الرجال كان عابد وزيدان وعيد في الخارج بجانب شجرة ضخمة في الفناء، يشعلون النار لحرق فحم أحجار الشيشة للضيوف،

وكان زيدان هو المنوط بالذهاب لتغيير الأحجار. رجع زيدان في هذه المرة مغتاظًا، جلس بين عابد وعيد مسهمًا على غير عادته بدون أن ينبس بكلمة، سأله عابد:

- ما بك يا صديق؟

لم يستطع زيدان كبح دموعه وقال باكيًا:

- على الأقل أمام الضيوف كان عليه ألا يعايرني بعلة لساني.

سأله عيد:

- من هو؟

- ابن الطحاوي الأصغر، عمر الشيشة يا ألدغ، تعال يا ألدغ، اذهب يا ألدغ. إني رغم عاهتي لي فضل على الأرض التي تطأها قدماه وها هو وهو سليم معافى بماذا انتفعت به الدنيا بأكملها؟

قال عابد وهو يربت على كتفه:

- وهل على المرض سلطان! قد تصيبه علتك في الساعة والحين.

ضحك عيد:

- يا أخي إنني عملت معهم خمس سنوات كانوا يعيبون خلقتي وأنا سليم، ويهجونني بما هو ليس في وأنا شريف وذلك للسخرية ليس أكثر كنوع من أنواع التسلية، وكأنهم يجدون متعتهم في السخرية من الغير.. صحيح إن له في خلقه شئون.

قال زيدان في غضب:

- ذلك مرض وليست عادة.

قال عابد:

- لا مرض ولا عادة يا إخواني بل هو فراغ. أناس لا يعملون بظنكم ما عساهم يفعلون سوى التمسخر على الغير؟

تنهد عيد:

- منذ أن مات والدهم الطحاوي والذي جمع في حياته من تجارة العطارة ما لم يجمعه بيت في يامنة كلها والأبناء يأتون على الثروة كلها بالتبذير والبذخ كذلك أحفادهم على نفس الشاكلة، تجد الطفل منهم لم يتعد العاشرة ويرتدي الخواتم ويزين عنق فرسه بالسلاسل الذهب. لكن حسبي وحسبكم أن كنوزهم حتمًا ستنفد وسوف يحلون يومًا منازلنا.

أطفأت كلمات عيد نيران غيظ زيدان وهو يتخيل ابن الطحاوي راكعًا على ركبتيه يغير له حجر الشيشة.



-٨-

انفض الحفل بعد منتصف الليل، بعض من الرجال رحل آخذين نسوتهم والبعض الآخر قرر البيات لثاني يوم مع نسائهم وخدمهم. انضم عابد وزيدان وعيد لباقي الخدم في حجرة معدة في الأصل لتخزين الغلال يطلق عليها اسم «شونة». الشونة واسعة لكنها كانت مكدسة بأشولة الغلال، افترش الخدم الزكائب والأشولة الفارغة في المساحة الضيقة المتبقية من الحجرة. لم يطق عابد المكوث في الحجرة ففضل النوم في الطلل عن الاختناق من زحمة الأنفاس البشرية المكدسة.

طوال الليل وحتى خلود الجميع للنوم وسكون حركاتهم كانت تهاني تراقب عابدًا من مشربية مجلس النساء المطلة على الفناء. في تلك الأثناء كان عابد يفكر في الطريقة التي سيطلب بها يد خضرا من سيده عبد الجبار، وكانت تهاني تفكر في أن تلك هي الفرصة السانحة لها من أجل تنفيذ رغبة بداخلها ألا وهي الاعتراف للفتى بما أضمره قلبها ناحيته. وها هي الجرأة في تلك الليلة تواتيها. ستخبره بكل شيء وبأنها على استعداد لترك يامنة كلها إن وقفت حائلًا بينها وبينه. دبت الحرارة في جسد تهاني وتوهج عقلها بفكرتها تلك. اضطرب قلبها وتسارعت دقاته تسائل نفسها أتذهب، أم لا؟ تارة تبتهج وتتشجع للذهاب وتارة ينقبض صدرها من الخوف وتتراجع.

أرهفت تهاني السمع لكل ما حولها ثم نظرت من النافذة، لا يزال عابد مستيقظًا. فقط هي وعابد وكان القمر ثالثهما، وقد أضاء انعكاس نوره الأشجار في الفناء فصنع من ظلالها أشباحًا ساحرة تلوح لها بالإقدام قدمًا نحو ما تنوي عليه. تنصتت مرة أخرى، بدأت امرأة عجوز من الضيوف تشخر أثناء نومها مما أقلق تهاني وجعلها تراجع نفسها مرة أخرى، بعدها رجعت لمكانها واضعة الوسادة

أسفل رأسها لبضع دقائق لكنها نهضت مرة أخرى في هدوء، لفحتها رطوبة نسمات آخر الليل فارتعشت أطرافها، وضعت شالًا قصيرًا على كتفيها وتقدمت على مهل لكنها تعثرت في إبريق الشاي، تسمرت تهاني في مكانها وجمدت الدماء في عروقها ولحسن حظها أن أحدًا لم يستيقظ. انسلت، حذاؤها أسفل إبطها، وتسللت حافية للطابق السفلي تتلفت من حولها متوجسة.

وصلت تهاني للباب الكبير. سألت نفسها، ماذا لو صر الباب وهي تفتحه؟ أنزلت المزلاق بأناة وانسلت إلى الخارج.

الباحة المكشوفة من الباب إلى المصطبة الجالس فوقها عابد كانت تتهادى سابحة في ضوء القمر المتماوج على الأرض المبرقشة بانعكاس ظلال أوراق الشجر وجريد النخيل المحيط بالفناء، يخرج من الأرض غبار مشوب بألق لجيني غيم الرؤية في عيني تهاني فبدا لتهاني أن كل شيء مريب وأن وراء كل شجرة ونخلة عين تراقبها.

ركضت تهاني تخشى الالتفات حولها، كشطت الخلاء في لمح البصر ثم وقفت أمام عابد على بعد أمتار منه. كان القمر يرتعش على وجه تهاني ولم يصدق عابد ما رأته عيناه، هل تلك جنية وقفت على فجأة أمامه أم إنسية ومع ذلك وقف لا يملك أمامها مردًا وكأن الألق على وجهها أمره بالانصياع.

مر ببصره يعاين الوجه الموازي لوجهه ليتأكد إن كان هذا وجه إنسان أم غير ذلك. محيا الفتاة دل على أنها في ربيع عمرها، وجهها الخمري البيضاوي وأنفها الطويل بعض الشيء، عيناها العسليتان الواسعتان والمنسبل منهما رموش طويلة كان يخرج منها انعكاس غريب ومخيف، لكن ذلك ما أساء إلى الانطباع العام بجمالها بل على العكس قد زادها حسنًا وجاذبية.

تقدمت تهاني خطوتين أكثر من عابد. كانت الفتاة في ثوبها الحريري الناعم بلون البنفسج الباهت مشمرة أكمامه حتى مرفقيها، على معصمي يديها اللدنتين التمع سواران عريضان ذهبيان. غديرتاها السوداوان تدلتا حتى خصرها الرقيق،

وكان ضوء القمر ينغزل مع الضفيرتين ويتلألأ فياضًا فوق أساور معصميها منعكس منه شعاع خفيف زاغ عنده بصر عابد. نار شهوة مكفوفة نزقة ألمت بالفتى أمام فتنة تهاني وسحر جمالها. وقف عابد ثم دنا من تهاني وبلا كلفة وبكل بساطة فطرته مسح بطرف كمه جبينه المتعرق ثم سألها:

- هل أنت إنسية؟

- أنا تهاني ابنة همام.

انسحبت أنفاس الفتى ثم سألها مرة أخرى:

- وما الذي أتى بك إلى هنا؟

قالت وهي تقترب أكثر:

- جئت من أجلك، لا بل من أجلنا نحن الاثنين.

غض عابد عنها بصره وهو يقول:

- أجلي أنا؟ لماذا؟

لم يصدق عابد أذنيه واعتراه القلق فما كان يتوقع الصدمة التي رمته بها ابنة سيده، وقال في نفسه «ما أغربها من فتاة! أين الحياء والخجل، يا لها من لعوب ما الحكمة في مخاطرتها بالحضور والحديث؟»

رويدًا، رويدًا اقتربت تهاني أكثر لا يفصلها عن عابد سوى شبرين:

- أنت معجزتي التي كنت أبحث عنها يا عابد، فلقد بلغ مني اليأس مبلغه من إيجاد إنسان في يامنة يعرف الحق ولا يخشى الظلم، إنني أخاف أن أقف في يوم إلى جوار شخص لا يعرف كيف يحميني من اللعنة، لعنة يامنة والتي لا الرضا ولا الخضوع ولا العند قادرون على منعها من أن تحل، لننقذ نفسينا يا عابد ونهرب.

- يا لطف الله!

قالها عابد وهو يستعيذ من الشيطان الرجيم.

- أنا غير قادرة على توجيه القدر لكنني إنما أبغي حياة نظيفة لي ولك قبل فوات الأوان.

قال باضطراب خجلًا، وما كان خجل عابد إلا رهبة من سحر الفتاة الممزوج بجرأة، شيء لم يعتد عليه:

- كفي يا أختاه يلزمني أن أعمل، إنما جئت هنا للعمل لا للهروب مع أهل الدار.

بصوت فيه توسل ملح أكثر منه استمالة نسيت تهاني في طياته أنها السيدة وهو العبد، إذ لم يبق في نفسها سوى الرغبة في النجاة اعتقادًا منها أن لعنة الدم الأسود ستحل بيامنة بظلم أهلها لا محال. قالت:

- إنني مستعدة لأن أطير معك يا عابد بعيدًا عن هذا المكان الموحش بالقهر والظلم، في مكان بعيد جدًا بالدرجة التي من الممكن أن يضيع فيها اثنان بدون أن يعثر عليهما.

كان ضوء القمر يمرح فوق وجه تهاني محدثًا بقعًا نورانية، حسن لم يشهده من قبل عابد ضعفت مرة أخرى أمامه عيناه فأدار مقلتيه السوداوين.. البريق الساحر والألق الغامض، الأنفاس المتقطعة والقلب الخافق جعلت عابد يشعر بالدوار حتى كاد يفقد نفسه أمام تهاني ويختل اتزانه. طوت يدا تهاني معصمي عابد، ارتد بعدها عابد مذعورًا تخيفه تلك الرعشة التي سرت في كامل جسده حين لمسته الفتاة، وقال بصوت أجش مرتبك:

- كفي يا أختاه، ارجعي لدارك بل وليس من اللائق ما بدر منك.

ثم هرع عابد هاربًا من تهاني باحثًا عن مخرج متجهًا نحو حجرة الخدم.



لم تنم تهاني ليلتها وغدا أمر الليلة السابقة أشبه بالحلم الذي قلقل منامها نافية كونه حقيقة، وظن الكل أنها استيقظت مبكرًا قبل الجميع. لم يشعر بتهاني سوى نعسة، وراودها شعور بأن ابنة عمها تضمر شيئًا ما بداخلها زيف سعادتها إذ لم يكن هذا هو حال تهاني المعهود. استأذنت نعسة والدتها للتنزه في البستان القريب من دار عويس قبل رجوعهما للديار.

ظلت ابنتا العم تتمشيان صامتتين، وقفت نعسة على فجأة:

– ما الخطب يا تهاني ولا تقولي لي لا شيء، فثمة أشياء كثيرة بداخلك. إنني الآن وأنا بجانبك وفي هذه اللحظة أحس وكأنني بجوار فتاة أخرى تشبه تهاني وليست هي.

نظرت تهاني نحو الأفق الواسع المضاء بنور شمس الصباح الخفيفة الرائقة متأملة بعض الطيور البعيدة المنتشرة بين الأشجار والسماء، ظلت على هذا الحال حتى ظنت نعسة أن تهاني لم تسمعها من الأساس، فنبهتها:

– تهاني؟

التفتت تهاني نحو نعسة وقالت:

– بالأمس كاد شرفي أن يراق أسفل قدمي ذلك الفتى الأسود عبد الأرض، ولا أعرف السبب الذي حدا بي إلى الذهاب إليه بدون التفكير في العاقبة.

أخذت نعسة تلطم بيدها على وجهها ثم قالت:

– إن الحظ نجاك يا تهاني، ماذا لو كان ذلك حدث بالفعل، ماذا لو رآك أحد من أهل الدار أو الخدم؟

– لا، ليس الحظ يا نعسة إنما عفة عابد التي ما رأيت أو سمعت بمثيل لها في حياتي. إنني أحب ذلك الشاب حبًا مشوبًا بالأمل أن يومًا سننال نحن الاثنان حريتنا معًا مثل تلك الطيور في الأفق.

- انسي ذلك الأمر يا تهاني إنما هو جنون أهوائك أوهمك بذلك. سيأتي يوم تتزوجين ثم تنجبين و..

قاطعتها تهاني:

- ثم أكمل حياتي مثل أمهاتنا وعماتنا وخالاتنا، إنك لا تحفلين إلا بالزواج ألا يوجد بعقلك غير ذلك الأمر؟

- كل فتاة تطمح بهذا لأن النساء خلقن للزواج والإنجاب تلك هي سنة الحياة وهن معدات لذلك الأمر منذ الأزل، ثم إنه أوليست السعادة هي الزواج والزواج هو السعادة؟

- وهل أمهاتنا سعيدات؟

تفاجأت نعسة من سؤال تهاني وقالت متلعثمة:

- على ما يبدو نعم.. إنهن سعيدات.

- لا، بل الحقيقة أنهن لا يشعرن بشيء من الأساس. لا يشعرن بحزن أو سعادة كالأنعام تمشي كما يريد راعيها لا يتذمرن ما دامت بطونهن ملأى.

قالت نعسة مستنكرة:

- وماذا ستضيفين أنت على حياتك مع العبد؟

رفعت تهاني حاجبها وقالت وهي مرفوعة الهامة:

- سأضيف حريتي وحريته.

- لكنك لن تكوني حرة إلا مع حر مثلك.

- حر لكنه غير معترف بحريتي. أين هي إذًا تلك الحرية؟ الحرية ممارسة وفعل يا ابنة العم وليست كنية أو لقب.

هزت نعسة رأسها الذي لم يستطع عقله ترجمة مفردات تهاني:

- تتحدثين وكأنك مكبلة بالقيود والأصفاد، انظري لنفسك أي فتاة تتمنى لو تحيا حياتك التي تتبطرين عليها.

ابتسمت تهاني ساخرة تبتعد عن نعسة متجهة قدمًا باتجاه طيور الصباح:

- النعاج تكون غير مقيدة وهي تمشي أمام الراعي وهو يقودها، ترى هل هي حرة، هل ستستطيع تغيير مسار اتجاهها إن اختارت طريقًا أخرى؟ لن أكون نعجة يسوقها رجل، لا، لن أكون أبدًا.

رجعت الفتاتان وقبل رحيل آل جابر صرحت حماة أخت نعسة بالعروس التي اختارتها الأم لابنها وكانت هي نعسة. زغردت سنية وبكت رئيسة وابتهجت بداخل نفسها تهاني ولم يلحظ أحد أن نعسة قد فقدت الوعي من كثر ما غمرتها السعادة وغيبت وعيها.



مر ثلاثة أشهر منذ الحادث الذي ألم بحجازة وكسر قدمها، وقد فشلت جميع محاولات الإقناع في جعلها تعترف بالطب فتوافق التداوي بعلاج الأطبة، ولكنها لم تقنع إلا بعلاج الوصفات الشعبية وخلطات العطار التي يقوم بإعدادها وفقًا لمعايير متوارثة من جيل لجيل، لكن حالة حجازة كانت تؤول من السيئ للأسوأ، ولما طالت الأيام شخصت حجازة حالتها بأنها سحر وعمل من أعمال الجن ولن يشفيها إلا رقى الشيوخ وتعويذات السحرة.

وعلى هذا قرر جابر إرجاء زواج ابنته حتى تشفى والدته، ولما طال مرضها اعتقد أنه من الأفضل إتمام الزواج عاجلًا غير آجل، ففي اعتقاده أنه كأب عليه ألا يظلم ابنته وأن يعجل بسترها. في حجرة نومهما كان جابر مستلقيًا على ظهره تمسد له سنية قدميه تدهنهما بزيت الزيتون الدافئ، قال مفتتحًا الحديث:

- على ما يبدو أن علاج أمي قد يطول.

- أنا لا أرى يا أبا عبد الجبار إلا أن الأمر يزداد سوءًا، أظن أن مرضها سوف يستدعي أمدًا طويلًا إلى أن تشفى، لقد تورمت قدمها عن السابق وتقيحت أطراف أصابعها.

- ومعنى هذا أن زفاف نعسة يكون مؤجلًا لأجل غير معلوم.

انقلب وجه سنية بما عكس عليه من هم قلبها اتجاه ابنتها وكاد لسانها أن ينطق بما كان يفكر فيه زوجها، لكنها خشيت من أن يكون حديثها فيه مخالفة للأصول، وما فعله جابر هو أن وفر عليها الحيرة.

- من المستحسن الإسراع بإتمام الزفاف، إننا لو فقدنا أمي سنضطر لتأخير الزواج لعام كامل والفتاة لم تعد صغيرة ووقتها سيكون عمرها قارب العشرين، وأنا لا أريد لابنتي أن تدخل بيت عويس وهي عانس، ما رأيك في هذا القول يا سنية هل أخطأت في شيء؟

انفرجت أسارير سنية وقالت بنبرة مبهجة:

- عداك العيب يا سيد الجبابرة ليس في كلامك خطأ. تحدث لعمي عبد الجبار وأظن أنه لن يمانع فالحاج حكيم في تلك الأمور.

- على بركة الله، غدًا سأتشاور معه.



حل الشتاء.. طقس لم يشهده عابد من قبل في حياته. النيران لا تنطفئ في دور السادة، تشتعل لمرة واحدة في حجرات الخدم، غالبًا ما تكون بالليل قبيل النوم من أجل تدفئة المكان وهم نيام وذلك عوضًا عن قلة الغطاء. تفقد عابد حجرة الخدم فوجد أن بها نافذتين، والاثنتان يحتاجان لضلف جديدة عوضًا عن القديمة التي تفلقت وابتعد خشبها بعضه عن بعض منكمشًا؛ لذا قرر عابد مقابلة عبد الجبار لطلب ضلف جديدة للنوافذ وأغطيةٍ وأحرمة زيادة.

في غرفة من غرف الدار اختص بها عبد الجبار لنفسه لاستقبال ضيوفه، كانت الحجرة واسعة مستطيلة الشكل تزدان بالنفائس من التحف والمنمنمات، مزخرفة حوائطها بالفسيفساء، في أعلى كل جدار كانت توجد طاقتان زجاجيتان من الزجاج الملون للسماح لضوء الشمس بالنفاذ إلى الحجرة وإنارتها، وقد فرشت الحجرة بالكامل بالكنب المنجد من القطن وبسطت أرضها بسجاد إيراني، وفي المنتصف استدارت مبخرة كبيرة نحاسية فوق صينية من الفضة وضعت على طاولة كبيرة مستديرة من خشب الأبنوس المطعم ببعض الأحجار الكريمة المنغمسة حول حافتها الدائرية.

كان عبد الجبار جالسًا مستندًا على الأرائك الحريرية مادًا رجليه نحو الصندلية. قبل دخول عابد، دخل عبد الشكور حاملًا بين يديه رزمة من الجرائد وقبل كل شيء سأله عبد الجبار:

- ما الذي بيدك يا عبد الشكور؟

جلس عبد الشكور أمام الصندلية رافعًا يديه فوقها طلبًا للدفء وقال:

- إنها جرائد، لقد أسست جريدة محلية تصدر عن المركز.

سحب عبد الجبار ساقيه الممدودتين وجلس متربعًا ثم قال:

- وما نفعها إن كانت الناس لا تقرأ يا عبد الشكور؟ ليست تلك طريقة جيدة للربح، خانتك في تلك المرة بداهتك.

- ومن قال أن الجريدة من أجل عامة الناس؟ إنما هي للسادة حتى يتسنى لهم التواصل فيما بينهم فيعلنون عن تجارتهم ومحاصيلهم، ثم إن من عينتهم كقائمين على الجريدة من نوعية هؤلاء من يملكون ألف عين بداخل الرأس الواحد. سننشر كل شاردة وواردة في المركز وقراه. غير إعلانات الشراء والبيع وأسعار المحاصيل.

مسح عبد الجبار ذقنه ثم قال بعد تفكر:

- ألا تجدها يا عبد الشكور، مرتعًا للفتن إن كان فيها نقل للأخبار؟

ضحك عبد الشكور:

- الجريدة وصاحب الجريدة ملك يمين سيدي عبد الجبار، إن أراد فتنة أشعلناها وإن أراد سلامًا أطفأناها.

ابتهج عبد الجبار وبصيغة مدح قال:

- بوركت، بوركت يا عبد الشكور.

- علمت أن الحاج جابر ابن سيادتكم ينوي إقامة محلجه الخاص بجانب معصرة زيت بذر القطن.

عقد عبد الجبار جبينه مقوسهما مضيقًا عينيه وقال:

- اكتم يا عبد الشكور، إن الأمور لا تزال في مرحلة الدراسة.

- بمناسبة الدراسة إن المحافظة قد كلفت ببناء مدرسة في يامنة.

- يا للهم، من أين سنجلب أجرية إذًا تعلم الأبناء؟ العلم يا عبد الشكور، أخ! إنه العلم عدونا الأول. فالمتعلم متمرد بطبعه أما الجاهل فعقله مغلق لا يفكر كثيرًا مثله مثل الحمار أو البغل، وهل يشتكي الحمار مهما وضعت فوق ظهره من الأحمال، لا.. لا تشتكي الدواب أتعرف لماذا؟ لأنها جاهلة.

- يقول المسؤولون أن عليهم إجراء بعض التحولات في حياة القرى حتى لا يشاع أن بريطانيا أخرت تطور البلاد التي ترزح تحت سيادتها وأصابتها بالتخلف، ومن ضمن القرى التي وقع عليها الاختيار في إنشاء مدرسة كانت يامنة. ثم لا تقلق سنحاول من خلال مجلتنا التأثير على أصحاب الرأي بجعل علوم المدرسة مقتصرة على تحفيظ القرآن وتعليم الصوم والصلاة وكفى.

أشاح عبد الجبار بيده وقال:

– وكفى يا عبد الشكور وكفى إننا نريد خدمًا وفلاحين مسلمين على حق. وسأتبرع أنا بقطعة الأرض المراد بناء المدرسة أو الكتاب فوقها.. تذكر أن تكتب ذلك في جريدتك يا عبد الشكور.

– بالطبع يا حاج عبد الجبار، نفع الله بك الإسلام والمسلمين.

رفع عبد الجبار بصره باتجاه الباب:

– من على الباب؟

ارتبك عابد وقال بصوت متلجلج:

– أنا عابد.

– تقدم يا عبد.

دخل عابد يجر قدميه، نهره عبد الجبار:

– اخلع مداسك يا هذا، سيتسخ السجاد.

خلع عابد نعليه، وتقدم. وقف أمام عبد الجبار وقد أصابته الرهبة أمام هيبة الحاج الوقور فلم ينطق. سأله عبد الجبار:

– ما حاجتك يا عبد؟

– لي عند سيادتكم مطلبان فأما الأول هو ضلف خشبية لنوافذ حجرة الخدم وفرش جديد وأن تزود حصتنا من الخشب الوقود و..

ثم لم يكمل عابد فسأله عبد الجبار:

– هذا هو المطلب الأول، وأما الثاني؟

لم يجب عابد ونظر لعبد الشكور، فنهره عبد الجبار:

– انطق.

– أريد الزواج.

ضحك عبد الجبار ساخرًا هو وعبد الشكور. شعر عابد بالخجل لسخرية السيدين من مطلبه، قال عبد الشكور:

- لا أستطيع منع نفسي من الضحك، هل تريد بالفعل الزواج أيها العبد؟

- نعم، ولمَ لا؟ أولست بإنسان حالي حال كل البشر؟ أود الزواج من خضرا ابنة عم خليل.

استرد عبد الجبار هيبته وقال:

- لا يوجد شيء البتة. بل إن ذلك سيعد مصدرًا من مصادر الثروة المتجددة، إن هذا يعني إنتاج ذرية جديدة من العبيد، ومع زواج الأبناء سينتج جيل آخر وهكذا وهكذا، إنه استثمار أجود حتى من استثمار العجول.

ثم انفجر العجوز مرة أخرى في الضحك، أثناء ذلك دخل عليهم جابر. أشار عبد الجبار لعابد:

- اذهب الآن يا عابد وسأدرس أمر زواجك هذا، وبالنسبة لغرفة الخدم إنه لا يرضي إنسانيتي أن يلحق الضرر بحشم داري وخدمهم، ثم إن الخادم العفي خير من عشرة مرضى. اذهب لدكان النجارة ومن ثم المنجد واتفق معهم على ما تلزمه الحجرة.

- والمال؟

- قل لهم كالمعهود بينكم وبين الحاج عبد الجبار وسيفهمون.

أثناء خروجه التقى عابد بجابر عند باب الحجرة وكان الأول ممسكًا بين يديه بصينية نحاسية، فوقها خبز طازج وطاجن صغير ممتلئ بالزبدة السائحة حد الغليان حتى طفى على السطح ريمها الدسم، لم يرد جابر السلام وتقدم نحو أبيه الذي عاجله:

- بنفسك يا جابر تجلب الطعام، أين الخدم يا بني؟

قال بعد أن وضع الصينية أمام والده:

- جميعنا خدمك يا أبي.

وقف عبد الشكور:

- أستأذن الآن منكما يا سادة، أدام الله وفاقكما.

بعد خروج عبد الشكور مال عبد الجبار ناحية ابنه جابر وقال:

- عبد الشكور رجل خدوم، لكن يا بني غير مؤتمن يخدمك ويكسبك صحيح ولكن من وراء ظهرك يساوم على أرباحك فاحتفظ بأسرارك لنفسك.

في الخارج كان بشير جالسًا برفقة ريحان وقمصان ومرسال كل واحد منهم ممسك بعود قصب مكوم أمامه كومة من اللبش. وقف عبد الشكور لدقيقتين يتأمل عبيد الأسياد أثناء حديثهم وتصرفاتهم فيما بينهم، ثم مر من جوارهم، وضع عبد الشكور يديه في جيوب بنطاله رافعًا رأسه وهو منفوخ الصدر رافعًا منكبيه في هيئة متكبرة تغطي موقفه المحرج أمام العبيد، الذين ما كلف واحد منهم نفسه الوقوف احترامًا لعبد الشكور كما يفعلون مع أسيادهم أو إلقاء التحية عليه. قال عبد الشكور متكئًا على مخارج الكلمات:

- إن احتجتم مساعدة في هذا البلد الغريب سأكون في الخدمة، أي خدمة كانت لا تترددوا في طلبها مني.

ومضى عبد الشكور يردد عبارة «أي خدمة». رمق بشير عبد الشكور بعينه أثناء حديثه ثم لم يجد بدًا من الوقوف أمامه وجهًا لوجه ومد له يده بالسلام قائلًا:

- بالأصالة عن نفسي والنيابة عنا جميعًا نحن عبيد الأسياد أتقدم بخالص الشكر لك يا سيد عبد الشكور، وإني لأطمح بتعاون جاد بيننا.

صافح عبد الشكور بشيرًا بكلتا يديه شادًا على يده ثم مضى في طريقه.



خارج الدوار كان عابد يدور حول نفسه يبحث عن من يدله على دكان النجار أو المنجد. شاهد عبد الشكور خارجًا من الدوار فركض وراءه يهتف:

- سيد عبد الشكور، سيد عبد الشكور.

التفت عبد الشكور.

- سيد عبد الشكور، هلا تساعدني في العثور على النجار والمنجد؟

أشاح عبد الشكور بيده قائلًا:

- أنا مشغول يا هذا ابحث أنت بنفسك.

ثم تركه ورحل.

ظل عابد يمشي وهو يسر في نفسه «لا يعقل أن أعيش في البلدة ولا أعرف حتى معالمها وحوانيتها.. علي الاعتماد على نفسي». عندما وصل للجسر سأل أحد المارين عن نجار القرية فأشار له نحو الناحية الأخرى للجسر:

- هناك ستجد قهوة بجانبها دكان بقالة ومن بعده زقاق صغير ستجد في آخره دكان جرجس النجار.

عبر عابد الجسر حتى وصل لدكان جرجس، الباب مفتوح فوقف عابد أمام الدكان ينتظر أن يأذن له صاحب المكان بالدخول، انتبه له جرجس وكان جرجس كهلًا لكن ما يزال محتفظًا بصحته، نحيف الجسم طويل القامة يكشف عن ساعدين يابسين تبرز منهما عروقه الخضراء، على معصمه المشمر الأيمن وشم صليب كبير، يرتدي جلبابًا قطنيًا كان لونه أبيض قبل أن يصفر من القدم، يضع فوق رأسه طاقية رمادية مشغولة من الصوف يكاد لا يظهر وجهه منها من كثر ما هو ضامر. هتف جرجس على عابد:

- تعال يا بني، ادخل الدكان مفتوح.

دخل عابد، فطلب منه جرجس الجلوس مشيرًا إلى قفص موضوع فوقه صوفة خروف سوداء. جلس عابد:

- ما حاجتك يا بني لكن في الأول دعني أسأل هل أنت غريب عن يامنة؟

- نعم يا والدي غريب، أنا عابد عبد الأرض لدى السيد عبد الجبار.

أزاح جرجس طاقيته قليلًا عن رأسه، هرش شعره بيده ثم قال:

- كانت تلك الليلة، ليلة توزيع العبيد صاخبة عامرة، كنت أرى خيول وعربات الأشراف والملاك على بعد مسافة في رتل عظيم.

- ربما كانت كذلك.

صب جرجس الشاي لعابد من براد أهال عليه السخام طبقات من السواد، كسرت يده فلحم مكانها قطعة حديد مثنية تشبه حدوة حصان. المكان كله قديم قوالب الطوب فيه متشققة، مطموس جزء منها بالطين المختلط بالتبن، وكان سقف الحجرة منخفضًا يتدلى منه ثلاثة فوانيس زيتية مضاءة بالنهار، وذلك لأن الدكان كان مطمورًا آخر الزقاق لا تصله الشمس. الحجرة كانت مليئة بالأبواب والنوافذ مرصوصة بشكل منظم، بعض منها مكتمل الإنجاز والآخر قيده. في جانب من الحجرة باب آخر يظهر أن الدكان عبارة عن حجرة مقتطعة من منزل جرجس. قال جرجس:

- قلت لي ما طلبك؟

- بعثني الحاج عبد الجبار لطلب ضلف خشبية لعدد نافذتين وقال لي أن أخبرك بأن الحساب كما المتفق عليه.

تنهد جرجس ثم قال:

- المتفق عليه، أتدري يا بني ما هو المتفق عليه بيننا؟

- لا.

- كنت أعمل لدى معلم كبير هنا في يامنة، لم يكن معلمي صاحب ضمير حي ولنقل ما كان يملك ضميرًا من الأساس، كنت أعمل لديه قدر عمل ثلاثة رجال وكان يعطيني أجر رجل واحد بل ويماطل فيه. على العموم كان يعطي أجرًا ولو بعد حين وهذا ما جعلني أصبر مر الصبر لعشرين عامًا. مات معلمي مخلفًا دكان نجارة ذا سمعة وصيت وابنًا مقامرًا لاعب ورق فاشلًا حاول أباه الإصلاح منه فبعث به للأزهر في القاهرة لكنه هرب وتعلم المقامرة. أخذ قاسم ابن معلمي يأتي على كل شيء في دار والده وقبل أن تمتد يده للأخشاب عرضت عليه صفقة كان السيد عبد الشكور إن كنت سمعت عنه شاهدًا عليها. وكانت الصفقة هي أن يعطيني الخشب وعدة النجارة التي تركها والده مقابل نصف أجر ما أكسبه.

إن قاسمًا لا يترك لي من المال إلا الفتات بحجة استرداد أرباح الأخشاب قبل تصنيعها متكئًا على قيمة الأخشاب التي لم أدفع ثمنها، وقد تعاون مع عبد الشكور ضدي إذ جعلني أبرم عهدًا أمام الشهود بأن ما يتفق عليه من عمل يكون ربحه مناصفة بيني وبين قاسم ابن معلمي، شرط أن يسترد هو نصيبه كاملًا ثم أبدأ أنا في تحصيل نصيبي. وإنه من المتعارف عليه في يامنة أن الزبون يدفع نصف الأجر ويقسط الباقي بحسب مواسم حصاد الأرض.

قاطعه عابد:

- هذا يعني أن قاسمًا يتحصل على نصيبه مما دفع فوريًا وأنت يا عم جرجس تكون الأقساط من نصيبك.

- بالتمام يا بني بالتمام.

أثناء حديثهما ترامى صوت توجع آدمي من الداخل، تنهد جرجس بحسرة ملتفتًا ناحية الصوت الآتي من داخل الممر:

- وها هي زوجتي تتألم باستمرار لا تستطيع أخذ أنفاسها، ولا أدري لعلتها دواء، جربت معها جميع وصفات الحلاقين والعطارين ولكن مرضها لا يحتاج إلا للطبيب. من أين لنا أجرة الطبيب وأجرة السفر وليس من قرش زائد في المنزل؟

- - أليس في القرية طبيب يا والدي؟

ضحك جرجس:

- نسمع أن واحدًا من أبناء يامنة تخرج من مدرسة الطب، لكن أين هو من الفقراء غير القادرين على الدفع. إن حياته كلها خارج القرية. خيره لغيرها يا بني.

قال عابد مواسيًا:

- إن لم تجد المال فلا تهتم، سأتدبره مع الأصدقاء من العمال.

ثم أكمل بحماسة:

- وإن اقتضى الأمر فسوف أجمع العمال ونذهب لعبد الشكور للضغط عليه في أمر تحصيل الأرباح بشكل عادل.

رنا جرجس نحو عابد مجاهدًا نفسه في إبداء بعض من الرضى بل والسعادة المفتعلة أمام الفتى، ربت على ظهره قائلًا:

- يا بني لا نفع من هذا كله إن قدر الله لها الشفاء ستشفى أما غير ذلك فهو تحصيل حاصل، إن أعتاب بيوت الأغنياء أطول من هاماتنا، ولو ملأنا الكون صراخًا بشكوانا فإننا أبعد من أن يسمع لنا صوت. إني راضٍ بقضاء الله وهل يحزن المرء إن سد دينه؟ إنما الحقوق ديون.



خرج عابد من دار جرجس النجار مليئًا بالشجون والحنق وقد كان يظن من قبل أنه أبأس الناس حالًا. إن القوة في يامنة تميل لجانب صاحب السلطة والمال لتثقل كفة ميزانه فيهوي من في الكفة المقابلة بمن فيها سواء هو أو جرجس أو زيدان أو عيد أو صاحب عربة البطيخ أو الرجل الذي طالب بحقه في سقاية رقعة أرضه وكل عامل أو عبد أو فقير.

كان كدر عابد جليًا على وجهه أثناء سيره باتجاه الحقل، في الطريق التقى به زيدان وكان التفكير قد شوش قدرة إبصار عابد فلم يلحظ صديقه، هز زيدان كتف عابد:

- أخ! يا عابد كأنك لا تعرفني.

- اعذرني يا زيدان فالهم يعمي.

- أي هم يا صاح، لم تكمل إقامتك نصف عام في يامنة وتتحدث عن الهم. تعال واشرب الشاي معنا، لقد تركنا لك نصيبك من الطعام.

ذهب عابد وزيدان للحقل حيث الأجراء والعمال ينعمون بقيلولتهم منهم من استلقى فوق العشب متوسدًا حزمة من البرسيم أسفل رأسه، وآخر كان يرقع نعله وواحد يعد الشاي، وكان فيهم أجري وجدوا في صوته ملاحة فطلبوا منه أن يشجيهم بموال. شارك زيدان وعابد الفلاحين في مجلسهم وقد ابتهج العمال لأغنية الشاب، لكن عابدًا كانت نفسه مع النجار لا يصل لسمعه سوى صوت زوجة جرجس وهي تتوجع من الألم فبكى حتى احمرت عيناه. انتبه له عيد:

- هل أبكاك الموال يا عابد؟

- لم أسمعه يا عيد من الأساس، وكنت أسمع الوجع. أحوال جرجس النجار وصرخات آلام زوجته. إن المسكين لا يجد ما يسد به جوعها فمن أين له بعلاجها؟

بادر زيدان في حماسة عارضًا على الفلاحين الأمر:

- أيعقل أن لا نساعد ضعيفنا، هات يا أخ كل منكم ما عنده، وأنا سأطلب المساعدة من ستي تهاني.

انتفض جسد عابد حين سماعه اسم تهاني:

- تهاني ابنة همام، بالله عليك يا زيدان هل ترجو الخير من هؤلاء؟

- ليس لك حق في أن تذم الطيبة.

مط عابد شفتيه:

- الطيبة؟

دافع عن تهاني أحد الأجراء:

- نعم الطيبة، إنها تختلف عن أسيادك يا عابد، ستثبت لك الأيام القادمة صدق كلامنا حين تجدها في الأعياد وقد فردت ذراعيها بالحلوى والقرص لأبنائنا، أو حين تمر ليلًا على ديارنا تكسونا من ثوبها وتطعمنا من طعامها وربما تجدها تدس في يد أحد منا بعض المال.

صدق على كلامه باقي الأجرية، في ذهول من عابد وقد لاحت أمامه ذكرى تلك الليلة المقمرة التي جمعته بها، وكاد لسانه يزلف بما بدر من تهاني لولا خوفه من تلويث سمعة الفتاة.

كان كل واحد من العمال قد فك حزامه وأخرج ما فيه واضعًا إياه على منديل فرده زيدان، ولو كان بحوزة عابد نقودًا لجاد بها بلا تردد لكنه شكرهم وعانقهم لجميل صنعهم، هؤلاء الفقراء بسطاء المظهر الذين أبدوا غنى في الخلق وشهامة فاقت أسيادهم.

قبيل العشاء بعث زيدان المال مع عابد وعيد وذهب هو لملاقاة تهاني. وقد حالفه الحظ أن وجدها في فناء الدار جالسة فوق عتبة المنزل الكبير. وقد اعتادت تهاني منذ أن لفت عبد الأرض نظرها ومس قلبها أن تجلس كل ليلة قبيل العشاء تنتظر عابدًا وهو آتيًا مع خليل ممسكًا معه زمام دواب الحقل من ثيران وبغال،

المستخدمة في الحرث أو السقاية فيدخلونها الحظيرة ومن ثم يودع عابد خليلًا متجهًا لحجرة الخدم.

ولم تكن من عادة عابد النظر قط ناحية المنزل أو رفع رأسه عن عمله حين يكون في فناء الدار، خشية من أن تخدش عيونه حرمة الدار ان كانت هنالك نافذة مفتوحة أو باب موارب أو أن يصادف مروره وجود إحدى النساء في الفناء. وكانت تغتاظ تهاني من فعل الفتى العفيف فتحاول هي بدورها لفت نظره بكل الطرق بأن تهتف أحيانًا على خليل طالبة منه شيئًا ما أو بإلقاء حجر صغير أمام عابد، لكنها ما كانت لتجرؤ على أن تتقدم خطوة واحدة ناحيته كما تقتضي القواعد والأصول، ومع هذا لم يحدث أن أمسكت تهاني عابدًا متلبسًا بالنظر ناحيتها أو الالتفات صوب الصوت.

اتجه زيدان نحو تهاني التي لاحظت أنه أتى منفردًا فعاجلته بالسؤال:

- أين عابد؟

انتبهت تهاني لسؤالها فأعادته بصيغة أخرى:

- أقصد أين البقرات؟

- الدواب والبقرات سيأتي بهم عم خليل وعابد بعثت به لمنزل جرجس النجار، الرجل حالته صعبة وزوجته مريضة و...

قاطعته تهاني:

- لا داعي لأن تكمل يا زيدان سأفعل ما يتوجب علي فعله، اذهب أنت وسوف ألحق بك.



في حجرتها أخرجت تهاني الملاءة المرقعة والثوب البالي، فتحت صندوق حليها ثم أغلقته لما تذكرت ذلك الموقف حين تفحصت والدتها الصندوق واكتشفت غياب

بعض الحلي منه، وكيف أن أمها كانت ستعاقب الخدم متهمة إياهم بالسرقة بل وكادت أن توصل الخبر لوالدها وجدها، لولا اعترافها بذاتها أو بالأحرى كذبها حين قالت لأمها أنها باعت الحلي للدلالة لقاء أن تجلب لها ملابس حديثة الطراز مثل تلك التي ترتديها هوانم العاصمة، لأن هذه الملابس إن وضعت في جهازها ستكون مدعاة فخر وتباه تعلوا بهم قيمتها وسط أهل زوجها، وقد صدقت الأم، بدون أن تفصح بحقيقة أخذها للحلي من أجل أن تعطيها للفقراء والمساكين.

تذكرت تهاني الورقة المالية التي سرقتها من حافظة عمها جابر قبيل سفره ولم يكتشف غيابها إلا وهو في الطريق وظن أنها سقطت منه. أمسكت بالورقة المالية قلبتها بين يديها وهي تفكر «ربما لا تكفي تكاليف العلاج».

أمها رئيسه وإن كانت تكنز من الحلي صناديق فهي ملمة بكل قطعة فيها، إذًا جدتها التي تكتنز كل ثمين في حجرتها من حلي ومال إلى أفخر أثواب القماش والفرش، لكن الدخول لعرين الأسد لهو أيسر من دخول حجرة جدتها حجازة فهي امرأة داهية لا تغيب عنها شاردة حواسها كلها يقظة ولو كانت ممددة على فراش المرض. الجد العجوز حويط لا تخفى عنه خافية، يمتاز بفراسة وقدرة على استبيان الأمور ومن الصعب بل من المستحيل سرقة المال منه.

لم يكن أمام تهاني سوى والدها همام وهو رجل رغم قسوة طباعه وصعوبة مراسه فإنه لم يكن خبيثًا أو حويطا وفي الغالب غير حريص على عد ما في محفظته، حتى إن تهاني بنفسها ولعدة مرات شاهدت والدتها وهي تأخذ المال من جيب همام بدون علمه ولم يكن الآخر ليلحظ أو يكتشف السرقة.

كان همام في الآونة الأخيرة منغمسًا في شرب النبيذ وذلك طوال الليل وإن كان يبدو في النهار حريصًا على إبداء التماسك والاهتمام أمام والده وأهل الدار. ذلك اليوم بعد العشاء كان همام وأخوه جابر مع والدهما عبد الجبار في صحبة وفد من بيت الطحاوي في مندرة عائلة الجبابرة، وذلك لمناقشة ترتيبات عرس ابنتهم نعسة على ابن الطحاوي.

عندئذ تسللت تهاني لحجرة والدها بدون أن تلحظ وجود قمصان في أحد جوانب الحجرة الواسعة أثناء ملأه قنينة النبيذ لوالدها. لكن قمصان رآها وما إن لمحها حتى انحنى متسللًا أسفل المنضدة مراقبًا إياها.

اطمأنت تهاني لعدم وجود أحد كما ظنت وبسرعة وخفة يد فتحت خزانة والدها وأخرجت صندوقًا صغيرًا كان همام يضع فيه بعض رزم من الأوراق المالية، استلت تهاني ورقتين ثم راجعت نفسها آخذةً ورقتين أخريين لما تذكرت جدتها آمال وأنها ربما تكون في عوز للمال هي الأخرى.

هتفت تهاني على فرحة فأجابتها مسرعة:

- نعم يا ستي.

- اسمعي، هاتي قفة واملأي نصفها بدقيق القمح والنصف الآخر بالجبن والعسل والفطير ثم ضعيها خلف الدار من ناحية باب الخدم وبوابة الدواب والماشية.

- أمام زريبة المواشي وإسطبل الخيول عند حجرة الخدم؟

نفخت تهاني بغيظ:

- هل أنت غبية شيئًا ما، أوليس ذلك يسمى خلف الدار أيضًا؟

- كنت أسأل للتأكيد يا ستي.

- افعلي ما طلبته منك سريعًا.. كوني حريصة على أن لا يراك أحد.



-٩-

خرجت تهاني من دار الخدم بثوبها القديم وملاءتها المرقعة متجهة إلى دار جرجس النجار حيث كان زيدان وعيد وعابد ينتظرون زيارة تهاني التي وعدت بها. طرق الباب وقبل أن يفتح جرجس سأل بصوت منخفض:

- من الطارق؟

- أنا تهاني يا عم جرجس.

- ست تهاني! تفضلي يا بنت الأصول.

هم زيدان بحمل القفة عن رأس تهاني، وفرد جرجس يديه وهو يقول:

- هذا كثير يا ست تهاني.

ابتسمت تهاني في بأس وقالت:

- البيت الفقير لا يروب فيه لبن، ولا يبس فيه خبز.

- تفضلي ست تهاني لمَ أنت واقفة؟

- عليّ الرجوع للدار سريعًا، خذ يا عم جرجس هذا المال واذهب بزوجتك للطبيب وعالجها وإن احتجت لمال ابعث لي.

دارت تهاني بعينيها في الحجرة تبحث عن عابد بين الوجوه ولما وجدته لم تعط رد فعل ظاهر لما خالج قلبها تجاه رؤياه، بهوينى تقدمت نحوه حتى أصبحت أمامه، فزع الشاب واقفًا على الفور وهو عاقد يديه وقد غلب الخجل إحراجه من نظرات تهاني المصوبة إلى عينيه، ولم يجد منها عابد مخرجًا إلا أن طأطأ رأسه قائلًا لنفسه «يا لجرأتها تلك الفتاة إنها لا تستحي من الخلق الجالسين».

رفعت تهاني حاجبها وقالت:

- والآن وقد شاهدت بنفسك أحوال أهل يامنة، ألا يراودك خاطر أيها العبد بأن تهرب وتنفذ بجلدك فعلى كل حال لن يكون حالك هنا بأحسن حال من هؤلاء؟

- لا يهرب إلا الجبناء.

ابتسمت تهاني بتهكم وقالت:

- خلاصة القول أنك كلب معتبر.

هنا رفع عابد رأسه، عقد حاجبيه في غضب زامًا شفتيه بدون أن ينطق يود لو يطبق يديه حول عنق تهاني أن أهانته وسط الرجال، تدخل زيدان وقد رأى رد فعل وجه عابد إزاء حديث تهاني فخاف من أن يتهور صديقه فيرد الإهانة بإهانة وحينها سيغيب الغضب عقل تهاني.

- هل أوصلك للدار ست تهاني؟

التفتت تهاني نحو زيدان ثم وضعت يدها حول خصرها وقالت:

- وأنت الآخر أخرق معتبر، ماذا لو لمحك أحد معي وتعقب سيرنا نحو الدار هل جننت؟

- بل خوفًا عليك.

- أفسح الطريق دعني أذهب.

خرجت تهاني من الدار تشيعها دعوات أهل الدار ماعدا عابد الذي كان لا يزال غاضبًا من تعدي لسانها عليه. فهم زيدان عابدًا فوضع يده على كتفه قائلًا:

- صحيح أن هذا طبعها لكنها طيبة.

أزاح عابد يد صديقه من على كتفه نافثًا غيظه في صمت.

في الطريق أحست تهاني بوقع أقدام تمشي وراءها، راحت تردد ما تحفظ من قرآن إلى أن أمسك شخص ما بملاءتها جاذبًا إياها للخلف، وقبل أن يعلو صوتها

بطلب النجدة كمم الشخص بيده فمها. كان هو بشير، ظل بشير يتأمل عيون تهاني المرتاعة لنصف دقيقة قبل أن يسحب يده قائلًا:

- هذان حاجبان أم هلالان، رموش أم سيوف، مقلتان أم فلقتا قمر!

رفعت تهاني يدها لصفع بشير لكنه التقطها بسرعة، لم تستطع لحظتها تهاني إفلات يدها لكنها قاومت بشدة بكل ما أوتيت من عزم، وحين وجدت أنه لا مناص من الاستسلام خفت مقاومتها حتى تلاشت هنا سحب بشير يد تهاني نحو فمه ملثمًا إياها، بسرعة أفلتت تهاني يدها وهي تقول في غيظ محموم:

- هل تستجرئ يا كلب السيد على فعل ذلك؟

- نعم أستجرئ، ما رأيك أن أجرك الآن وأنت في ثوب الخدم هذا إلى جدك عبد الجبار نحتكم أمامه؟ ثم إنه هل من المناسب لابنة الأصول أن تمشي وحدها هكذا في الطريق ثم تدخل بيوت الغرباء، أمن أجل هؤلاء سرقت أموال والدك أم من أجل من؟

- تكسر عيني، تساومني أليس كذلك؟

- هو كذلك.

- ماذا تريد مني إذًا؟

- في الوقت الحالي أريد إيصالك للدار في أمان.

- إن كان هذا فلا بأس بشرط ألا تلمسني.

في الطريق وقبل وصولهما للدار سألت تهاني بشيرًا:

- ماذا كنتم تعملون قبل مجيئكم لهنا؟

- أنا كنت أخمر العنب في عصارة خواجة بريطاني، هاج أهل البلد عليه فقفل الخمارة وسافر.

- وباقي العبيد؟

- أنا وجوهر وقمصان كنا نعمل في نفس الخمارة، أما الباقون فكانوا إما عمال بناء أو أرزقية.

- وعابد؟

- كان فلاحًا كما هو الآن أيضًا.

في الطريق قبيل الوصول للدار بأمتار قابلهما أحد أبناء جابر الذي استوقفهما:

- من التي معك يا بشير؟

رفع بشير صوته:

- ها هو الدار أمامك يا خضرا اذهبي.

هرولت تهاني نحو الدار تتسارع دقات قلبها بعد أن كاد يفضح أمرها.

في دار جرجس تصادف أن زاره قاسم شريك جرجس في حضور عابد وزيدان وعيد بعد خروج تهاني من الدار. دخل قاسم وهو رجل في أواسط العمر يبدو منمق جدًا في جلبابه الفضفاض الذي يلتمع فيه الخيط الحريري المغزول مع النسيج بشكل طولي، كان منزعجا، ترتعش أصابعه ووجهه مليء بالجروح، قال كلمتين ورحل سريعًا:

- أمامك يومان حتى تتدبر باقي نصيبي في ذلك الخشب الذي أعطيته لك وإلا حرقت لك الدار بما فيها، هل سمعت ؟.

خاف جرجس أن ينفذ قاسم تهديده فأعطاه الورقة المالية التي أعطته إياها تهاني في الحال والتو.

جلس جرجس محاولًا تبرير موقفه:

- إنه على الأرجح خرج للتو من جلسة ورق خاسرة وقد يصيبني بأذى أنا وأبنائي إن لم أعطه المال، والرجل العاقل هو من يتفادى الأذى. أليس كذلك؟

على أي حال لم يجد الرجال قولًا يردون به على جرجس أكثر تفهمًا من الصمت، هل يواسون الرجل في مصيبته؟ أم يعاتبونه على تهاونه؟!



في حجرة الخدم كان يرقد عابد بعد مجيئه من عند جرجس، وبدون إرادة منه استدعى عقله صورة تهاني بشكل عفوي وذكرى لقائه بها في تلك الليلة في فناء دار الطحاوي، جاذبيتها المفرطة وسحرها الغامض وذلك الشعور الغريب عليه والذي ألم به حين لمسته أو بالأحرى حين مسته، ثم حدقتاها الممتلئتان بوجهه في منزل جرجس، ابتسم عابد وأسر في نفسه «فتاة عابثة». ثم تراءت له صورة خضرا ابنة خليل الفتاة ذات الابتسامة الخجولة والوجه الصادق فقال في سره «تلك لنا خيط ثوبها من ثوبنا أما الثانية فلا».

في حجرتها قررت تهاني أن تبعث برسالة لعمها عبد الحكيم تصف فيها حاجة يامنة لعلمه وحكمته، فكتبت في الرسالة:

«عمي الغالي، لي عتب عليك وملام لكن بادئ ذي بدء دعني أبوح لك بما ضمره ضميري نحوك وأخبرك برأيي فيك. أنت يا عمي وافر النعمة، غزير الثقافة، فياض القلب، فصيح اللسان صريح، وإن أشعر الشعراء إن أراد نظم الأبيات في وصف شمائلك لعقد لسانه ولجم قلمه لأن يا عمي مزاياك تفوق الوصف، ومع هذا فإن الجرأة تعوزك والإقدام ينقصك. لقد فضلت في دحض الظلم أضعف الإيمان ثم حين وجدت من جدي وأبي وعمي الرفض والعناد تركت البلاد والعباد. يامنة في أشد الحاجة لعلمك يا عمي وعملك».

في الصباح أعطت تهاني الرسالة لزيدان وقد صادف أن عبد الجبار أعطى لزيدان رسالة أخرى يبعث بها في بريد المركز لابنه عبد الحكيم يخبره فيها موعد زفاف نعسة، الذي حدده الجد على طلوع هلال الشهر القادم ويطلب منه الحضور.

منذ ذلك اليوم الذي سافر فيه عبد الحكيم لم تطأ قدماه ثرى يامنة بل إن الجزع كل الجزع كان يملأه اتجاه زيارة القرية، وقد ازداد ذلك الشعور من فرط ما كان يلقى عبد الحكيم من عظات حكمة التاجر على يد والده وتأنيب أخويه بسبب ميله لأن يجالس الفقراء والاستماع لشكواهم، ومن ثم إيصالها لأولي الأمر من الملاك والأثرياء كي يبتون فيها، وكان فعل عبد الحكيم يسبب حرجًا لوالده بين أصدقائه وأقاربه بل وأحيانًا كان يضر بمصالحهم المشتركة في أمور تجارة الأغلال والأقطان مع باقي التجار، فحدد الوالد إقامته في يامنة بأن لا يبرح الدار الكبيرة إلا حين ذهابه لدار أخيه جابر فقط فعزت عليه نفسه وقرر مقاطعة يامنة بمن فيها، ولكنه لن يقدر على عدم حضور زفاف ابنة أخيه إن لم يكن من أجل والده وأخيه فمن أجل نعسة.

في وقت سابق قد رق قلب عبد الحكيم لحال زين ومما زاد إعجابه بها عزة نفسها وكبرياؤها فقد وجد فيها شجاعة تعوزه وإقدامًا ينقصه فباتت بجرأتها مكمل نقص لذاته. حتى وصل الحال بعبد الحكيم لأن يرى دمعاتها في قطرات الندى فينقبض قلبه، وابتسامتها في إشراقة الشمس فتبتهج نفسه، وكم كان يبهجه أن يرى طيفها ذات ليلة في حلمه، فيستيقظ وهو يشعر بأن هواءً طلقًا حرًا قد مر على صدره نشر رطوبة وديعة فيحس في حلقه طعم شراب حلو لا يعرف مصدره، وهكذا كان حاله متأرجحًا ما بين الحزن والسعادة أمام وجه السمراء.

وثق عبد الحكيم بأنه سيلتقي ذات يوم بالفتاة التي ينجذب إليها ويكمل حياته معها حتى الرمق الأخير لكن ما هذا الإعجاب الغريب، أحقًا أعجبته العبدة؟ وكان عبد الحكيم رغمًا عنه حنينه ينزع نحو يامنة لكن عزته كان تأبى عليه الرجوع.

بعد رسالة تهاني وعبد الجبار قرر عبد الحكيم الرجوع ليامنة. ومن جهة أخرى لم يخبر الوالد ابنه من قبل بحالة حجازة الحرجة حتى لا يرجع، وكان يبعث له في الرسائل أن حال والدته كان يؤول من الأحسن للأحسن إذ إنه برغم محبته لابنه الأصغر كان هانئًا بسفره حيث لا يوجد في يامنة من يعكر صفو أعماله

وعلاقاته. حزن عبد الحكيم لما رأى حال حجازة وقرر معاتبة أبيه، وفي حجرة عبد الجبار جلس عبد الحكيم قبالة والده.

- اشتقنا إليك يا فلذة الكبد.

- لمَ لم تخبرني بحال والدتي يا أبي؟

- وماذا كنت ستفعل حيال مرضها؟ ما كان لينوبك سوى الهم والكدر يا بني.

- حتى أمي تفرق بيني وبينها. حددت إقامتي في يامنة وفرضت علي الوصايا ولم أعترض لكن هذه أمي، ربما كنت أقدر على إقناعها بالذهاب إلى الطبيب، إن حالتها متأخرة جدًا كيف صبرتم عليها؟

- وكأنني منعت عنها الأطبة والدواء! يا بني لقد بعثت لها بأكبر الأطباء وكانت أمك ما إن ترى واحدًا منهم حتى تشتمه بأقذع الشتائم وتمنعه من الكشف عليها، يا ولدي أتدري وهي في حالتها تلك إنها قطعت أذن واحد منهم وآخر كسرت له أنفًا لكنها تكره الطب وتصفه بالسحر، والدتك صعبة المراس وأنت تعلم ذلك.

صمت الاثنان قرابة الدقيقة ثم استطرد عبد الجبار قائلًا:

- ألم يأن الأوان لتكمل نصف دينك يا بني؟

- لم يأن يا والدي.

- لقد أوصيت عبد الشكور أن يبحث لك عن ابنة باشا في القاهرة، يلزم لدمائنا أن تخالط دماء البشوات عن قريب، سيقيم أخوك عبد الجبار محلجه الخاص ونسب كهذا سيفتح لنا الأبواب لأن ننتقل بتجارة الأقطان من قطر الصعيد إلى الوجه البحري وإني لأطمح ببناء مصنع نسيج.

- لا تقل أطمح قبل تسبيق المشيئة يا والدي إن هذا كله يلزمه التوفيق لا النسب.

- إن بحر التجارة واسع يا بني فيه من غرق وطمس اسمه ووصل إلى القاع وفيه من نجا ووصل للبر بأمان. لديكم والد ابيضت لحيته في التجارة طاويًا فيها شبابه وكهولته فعرف خفاياها والمناطق الضحلة في بحرها والعميقة. إن كان اليوم عندكم والد فغدًا لا، هل فهمت الآن قيمة النسب يا بني وقصدي من تزويجك بابنة أحد المسؤولين؟



منذ أسبوعين وقبل زفاف نعسة انتقلت أسرة جابر لمنزل الجد الكبير حيث منه ستزف إلى عريسها. لم يتبق على اليوم الموعود سوى أسبوع واحد. وكان من العادة أن يجلب العريس هداياه محملة على البغال والجمال قبلها بأسبوع.

الأطفال منذ الصباح الباكر أمام دوار عبد الجبار ممسكين بسلالهم منتظرين نفحات أهل الدار من هدايا العريس، عند الضحى جرت البغال عشرين عربة كلها محملة بالخيرات من غلال ودقيق وتمور وبقول، غير أثواب قماش القطن والكتان والحرير ومن خلف العربات كان الخدم يسوقون من العجول زوجًا ومن الخراف خمسة أزواج ومثلهم من الجديان الصغيرة بالإضافة لجمل صغير. كانت الهدايا جزءًا من تقاليد يامنة وبر الصعيد كله التي لا غنى عنها، وقد تلغى الخطبة تمامًا إن كانت الهدايا لا ترقى لمستوى أهل العروس ومكانتهم إذ يعتبر ذلك إهانة وتقليل من شأن رب الدار.

من أمام البوابة الكبيرة للدوار وقف عبد الجبار وأبناؤه الثلاثة بالإضافة لأبناء جابر الخمسة، مستقبلين الهدايا، وكان الأطفال من أبناء العمال والخدم كما النمل زحفوا يجمعون المتساقط من الأشولة بعدما استطاع بعض من الفتية شق بعض الأشولة؛ فصرخ خليل في الأطفال مبعدهم عن الهدايا على مرأى ومسمع من عبد الجبار وأبنائه غير أنه لم يتصد له سوى عبد الحكيم:

- هذه فرحتهم دعهم يا خليل لا يستدعي الأمر نهر الصغار.

صرخ جابر في وجه أخيه عبد الحكيم مستاءً:

- ألا ترى أنهم قطعوا الأشولة، أي قلة أدب تلك؟

نفض جابر عباءته بغضب واتجه للداخل مقوسًا حاجبيه يتمتم بالشتائم. لم يعبأ عبد الحكيم وحل الأشولة معطيًا الأطفال منها في سعادة منهم ودعاء له بطول العمر والعافية.

مال عبد الجبار ناحية همام وقال:

- لجابر الحق في أن يغضب فهذا السفيه عبد الحكيم إن مكنوه على خزائن سليمان لنفدت على يده من أجل الرعاع.



عبد الحكيم هذا المنكوي قلبه بذلك الحب الغريب للغريبة والذي تمكن منه على غفلة وما كان يظن في ذلك الحب إلا ضرًا أصابه، لكن دعاءه برفع البلاء لم يُستجب ليتأكد بذلك أن حب زين قدر على قلبه وليس عقابًا مما عزز رغبته في التشبث بغادته. وها هو والده يبحث له عن عروس أخرى غير ما قدرت لقلبه، وجب على عبد الحكيم أخذ قراره السريع والحاسم بأن يخطب زين من أخيها عابد، وقبل تلك الخطوة كان عليه أن يستشير في الأمر زين.

وسط حالة الهرج والمرج في الدوار وداخل الدار استطاع عبد الحكيم الاقتراب من زين، همس في أذنها «اتبعيني». ثم غادر خلسة في غمضة عين. ظل خياله كان متجهًا لإسطبل الخيل فتبعته زين. بداخل الإسطبل كان الجو هادئًا والأضواء خافتة هذيلة والخيول راقدة ساكنة إلا من صهيل أحد الخيول المذعورة، أمسك عبد الحكيم بلجام الفرس مربتًا على ظهره، وكان ذلك الجو مبعث خوف وارتياب بالنسبة لزين، مثلما الحصان كانت خائفة مرتعبة، قال لها عبد الحكيم:

- اهدئي أنت الأخرى يا زين..

صمت قليلًا ثم تجرأ قائلًا:

- زين أنا أريد الزواج بك بأن أخطبك من أخيك فما ردك؟

ازدردت زين ريقها، وجمت للحظات ثم استجمعت قواها وقالت:

- سيدي عبد الحكيم إن ما تطلبه مستحيل في استحالة اعتصار الماء من صخر الأراضي الجدباء.

- أجيبي يا زين بالموافقة وثقي بأن الأمر سيكون سهلًا في سهولة جريان ماء الجداول في المروج الخضر.

- لكنني أخاف، أخاف من أن يكون قرارك هذا مجرد رغبة مندفعة ما ألبث أن أجني أنا كبوة تسرعي منها.

كما لم يخطئ السهم قلب عبد الحكيم فلم يخطئ قلب زين، ولم تكن زين لتتوقع أن يتقدم عبد الحكيم الشاب الثري المتعلم لخطبتها وهي العبدة السمراء خادمة داره. قالت له في خجل:

- لكني سوداء أشبه ظلمة الليل.

- بل قولي أن في صفاء سوادك تشبهين بدرًا ظهر في وضح النهار، وهل ألوان الحسن في الدنيا كلها فاتحة اللون؟ أجمل الزهور زنبقة سوداء وأقيم الخيول مهرٌ أسود وأثمن المجوهرات ماسة سوداء وأجمل النساء أنت يا زين. إن بشرتك السمراء منفردة بذاتها في الجمال مزيج هي بين الأناقة والغموض، السحر والوضوح، إنه لون الحزن الأسطوري الفخم فالأسود يتربع ملكًا مستقلًا خارج سيطرة حدود كل ألوان الطيف العشوائية، نشاهده واضحًا حين لا تتأثر عيوننا بأي أشعة ضوء وهكذا رأيتك يا زين بعين قلبي الوحيدة المتربعة فوق عرش النساء أجمعين.

غطى الحياء وجه الفتاة وأسرعت من أمام عبد الحكيم هاربة كومضة نجمة وقد لجم الخجل لسانها.

ما انفك عابد عن العمل ذلك اليوم في دار الحاج عبد الجبار، وفود الضيوف لم تنقطع وكان معظمها من النساء اللائي أتين لاستطلاع هدايا العريس، ثم استكمال عقد مراسم الفرح بالدفوف، والطبول التي لم يسكن لها صوت منذ ليالٍ، والخدمة داخل الدار لا تقل مشقة عن خدمة الأرض. أنهك الفتى ودارت رأسه بسبب الضوضاء وقرع الطبول وصراخ الأطفال ولغو النساء وضحكاتهن، مضى عابد إلى حجرة الخدم أشعل فتيل مصباح الغاز ثم مدد جسده فوق لبادة قديمة مهترئة، الجو كان باردًا والأرض رطبة ومع ذلك كان عابد يشعر بالراحة في الهدوء.

فجأة انفتح الباب ولاح عبد الحكيم، وقف عابد سريعًا فور رؤيته إياه:

- سيد عبد الحكيم، تفضل.

تقدم عبد الحكيم، صافح عابدًا وجلس فوق اللبادة فعاجله عابد:

- هذه اللبادة لا تليق بك، ستتسخ ملابسك إثر الجلوس عليها.

- وهل من كان يجلس عليها أقل مني؟ اعلم يا عابد أنه لا فرق في الدنيا بين إنسان وإنسان، سيأتي يوم على المرء لن يحول بينه وبين ثرى الأرض لا فرش أثير ولا صوف خشن. اجلس يا صنديد هنالك أمر أريد التحدث فيه معك.

جلس عابد بجوار عبد الحكيم:

- كلي آذان صاغية.

- عابد، بدون مقدمات أنا أتقدم لك لخطبة أختك زين للزواج بها بشرع الله وسنته.

ذعر عابد وانتفض واقفًا، فأمسك عبد الحكيم بيده جاذبًا إياه:

- اجلس يا عابد إن الأمر ليس بالمرعب لهذا الحد.

- بل هو كذلك يا سيد عبد الحكيم. مر علي فصلان من فصول السنة في دياركم ولم أجد إلا التفرقة حتى في المعاملة بين العبيد فيما بينهم فقسموا القسمة ما بين عبيد أسياد وعبد أرض.

- لكنني غير هؤلاء يا عابد.

- وإن كان كلامك صحيحًا فهل أنت منفصل عن والدك وإخوتك يا أخ عبد الحكيم؟

- فصل الله قلبي وعقلي عنهم ما العجب في ذلك؟ دعنا نتدبر الأمر عوضًا عن الجدال، فكر معي إن كنت أريد الزواج بأختك ولا أجد منها مانعًا أو منك فكيف إذًا سيحدث ذلك؟

أطرق عابد قليلًا ثم قال:

- إن هذا الأمر ليستعصي على أحكم الحكماء وأذكى الأذكياء، يلزم للتفكير فيه شيطان.

ومضت الفكرة في رأس عبد الحكيم:

- أنت تقول نحتاج لعقل شيطان إذًا ليس أمامنا سوى تهاني.

انقبض قلب عابد وقال في نفسه «هذه الفتاة ألا مناص للهروب منها؟ إنها تأتيني من حيث لا أحتسب من كل الجهات». انتبه عابد وقال:

- وهل ستكون السيدة تهاني أمينة على السر؟

- اسمع يا عابد أنا أدرى بابنة أخي، إن تهاني يا عابد فتاة طائشة جامحة الأهواء متسرعة، ولكنها فطنة حكيمة تطوي في أفكارها عقلًا مستنيرًا، وصحيح أنها تحمل من الشر كمًا لا بأس به قادر على الفتك لكن في نفس

الوقت فهي تمتلك من الطيبة والفضيلة الحية ما هو قادر على تقييد ذلك الشر، حادة الطبع صعبة المراس اتجاه كل جبار، لينة عطوفة اتجاه كل ضعيف، تجيد الكذب والخداع متلونة متقلبة كحرباء ولكن قلبها لا يعرف إلا الصدق والشهامة، وفي جميع الأحوال هي سليطة اللسان وهي الصفة الوحيدة التي لا أجد عندها نقيضًا لها. وبرغم كل مساوئها الظاهرة أمام الناس فتهاني في قرارة نفسها تخفي نفسًا أخرى طاهرة صافية عفيفة ودافئة حنونة.

فكر عابد بداخل نفسه «أي فتاة تلك التي تحمل جناحي ملاك وقرني شيطان في نفس الوقت؟»

أكمل عبد الحكيم:

- وإني سأثبت لك تمسكي بزين بالتضحية من أجلها وستبرهن لك الأيام صدق قولي يا عابد.

نظر عابد مباشرة في وجه عبد الحكيم وسأله:

- ولماذا زين بعينها يا ابن الأسياد؟

- لا تظن يا عابد أن ما في قلبي اتجاه زين هو هوى أو ضرب من ضروب جنون العقل، لا بل هو تآلف روح مع روح واتصال إحساس بآخر بدون اقتراب حقيقي، إنه اقتراب ترى فيه العين العين في الغياب وتتحادث الألسنة بلا كلام وتتلامس الأفئدة بوصال ليس فيه اتصال.

دبت الغيرة في نفس عابد اتجاه أخته:

- كيف لك أن تبث لي حبك لأختي أمامي، أنا أخوها، إني وإن كنت خادمك فدمائي عزيزة حرة.

ابتسم عبد الحكيم وقال في نبرة نمت عن إخلاص وصدق:

- هذا لأنني لا أرى في طهر مشاعري شيئًا مشينًا أستحي منه، أو فيه من الرذيلة ما يجعلني أتستر عليه. وإني لا أرى زين إلا متممة لروحي، إنسانة تطابق طباعها طباعي وأخلاقها أخلاقي.

شرد عابد قليلًا وهو يفكر في أن زيجة كتلك قد تكون محررة لأخته من قيد العبودية، لمعت عيناه مستخرجًا من أعماق صدره رده على عبد الحكيم:

- وأنا موافق يا أخ عبد الحكيم.



ترك عبد الحكيم عابدًا وظل يبحث عن ابنة أخيه، ولما وجدها أمسك بيدها ثم سحبها لحجرة فارغة من البشر. هنالك أقر لها بنيته في الزواج من زين وأنه يريد منها مساعدته في حبك الخطة المناسبة من أجل تحقيق ذلك المراد. سقط قلب تهاني فقد صدمتها الفكرة، سهمت لدقائق. سارع الخال مجتهدًا في إبداء مبرره من الزواج من خادمته لكن تهاني ظلت على حالها، بعدها أخرج عبد الحكيم ورقة مالية ووضعها بداخل كف ابنة أخيه، ومع ذلك لم تنتبه إذ كان يشغل عقلها في ذلك الحين أنه أخيرًا الحظ سيبتسم في وجهها إن حققت مطلب عمها، مما سيلفت ذلك ناظر قلب عابد إليها فيتجرأ هو الآخر على الاعتراف لها بنيته في الزواج منها، وسيجدا المدد من عمهما الذي سبقهما في كسر القواعد. ولما طال صمت تهاني أخرج عبد الحكيم ورقة مالية أخرى دسها في كفها، خشخشة الأوراق المالية نبهت الفتاة فنظرت ليدها فاتحة راحتها لتجد الورقتين الماليتين، طالعتهما بعدم اكتراث ثم ابتسمت وأغلقت كفها مرة أخرى وقالت:

- سيتم تنفيذ الخطة يوم زفاف نعسة وعلى الجميع تنفيذ ما سوف أقوله بشكل دقيق.



- ١٠ -

أتى يوم زفاف نعسة، ذلك اليوم الذي انتظرته منذ أن نما إدراكها وبزغ وعيها للحياة، وبرغم مجاهدتها في إبداء الحزن المصطنع أمام قريناتها والنساء من الأقارب والجيران فإنها لم تستطع إخفاء لهفة قلبها حين دخل المأذون وفقًا للعرف يسألها عن رأيها، فأجابت على الفور بالموافقة بدون أن تتمهل كما أوصتها والدتها حتى يعيد سؤاله، ولما جاء وفد العريس ودخلت والدته وباقي النسوة من أهل العريس تغامزت قرينات نعسة فيما بينهن بضحكات متوارية، ورحن يقرصنها ويلكزنها في السر في محاولة من نعسة في كتمان ألم لسعاتهن بالكز على أسنانها تحت الغلالة التي غطت وجهها كي تظهر وقارًا أمام الحماة.

في الخارج في باحة الدوار أمسى الاحتفال على أشده حين ظهر العريس في هودجه محاطًا بالشباب من عائلته وأصدقائه. نخ الجمل ونزل من عليه العريس، ظهرت زمرة أخرى من شباب عائلة الجبابرة من أبناء عمومة العروس وأقاربها، التحم الجمعان في عراك مزيف بالعصي ولما فارت دماء الشباب ودبت الحمية في عراكهم تدخل كبار العائلتين في فض النزاع المصطنع، ليصدح على الفور المزمار ويدخل مضمار المعركة حصان راقص، بعدها تبادل الجمعان الرقص بالعصي فيما يسمى بالتحطيب بشكل فيه احتفال لا عراك. دخل العريس مقر الضيافة، ذلك الرجل الذي لم تره نعسة إلا في خيالها بوصف الصبية الصغار له، توسط العريس جمع الرجال ثم بدأت صواني الطعام تدور على الحاضرين والمدعوين بما لذ وطاب.

بالنسبة للشطر النسائي فحين بلغهن أن وفد العريس حل، علت أصوات زغاريدهن وتصفيق أيديهن المتناغم مع قرع الطبول على أغاني العرس. أما تهاني

فكانت تحاول مداراة قلقها من فشل خطتها بمحاولات مبالغ فيها مبدية الصخب والفرح، فلم تنفك عن الرقص أو الغناء حتى أخذ منها التعب منتهاه، واتخذت ركنًا قصيًا تفرك قصبتي رجليها وكعبي قدميها، على فجأة لاح بخاطر تهاني وجه عابد فقررت البحث عنه وسط انشغال الكل.

عهد إلى عابد تقديم الشاي للضيوف ومن سعد حظه أن من كلف بعمل الشاي كانت خضرا، فكان عابد يروح ويجيء مستبدلاً منها الأكواب الفارغة بالأكواب المليئة يتبادلان النظرات فتحدث النظرة في كيانهما مردود لطمة الموج فوق الصخر وهدرة الرعد في السماء دون أن يحركا ساكنًا، من يراهما يحسبهما غير حبيبين. وهنا سنحت الفرصة لعابد الاقتراب أكثر من خضرا رغم أنه في كل مرة وفي طريقه لأخذ الأكواب منها كان يعد نفسه «سأقول لها أنني طلبت يدها من الحاج عبد الجبار». وما إن يصل حتى يتلعثم لسانه، وعوضًا عن مصارحتها كان يطلب دور شاي آخر هاتفًا «الشاي يا أختاه». وهكذا كل مرة حتى واتته الجرأة في تلك المرة «لن أطلب الشاي هذه المرة بل سأطلب يدها». أثناء غدوه ومجيئه كانت تهاني واقفة من بعيد تراقبه بدون علمه أو ملاحظة خضرا، حتى باغتتها المفاجأة تلك التي شهقت على أثرها تهاني شهقة شبيهة بشهقة الموت، وقت أن اقترب عابد من خضرا وقال لها في كلمات متلاحقة قبل أن يخطف منها صينية الشاي «لقد تقدمت لخطبتك يا خضرا»، ثم فر من أمامها في لمح البصر حتى إنه من ارتباكه نسي طريقه واتجه لصوب آخر حيث كانت تهاني واقفة ارتطمت عيناه بعينيها الغارقتين في الدموع، عبثًا حاولت تهاني مداراة عيونها المبللة مولية وجهها ناحية الجدار الواقفة بجواره، تلبك عابد وارتعشت يداه فوقعت الصينية منه، رجعت تهاني للشطر النسائي، أخذت الطبلة من يد إحدى الفتيات واسترسلت في الغناء بينما كانت روحها تنتحب.



ودعت زين أخاها عابدًا، تبادلا بعض العبارات بوشوشة لا تكاد تسمع ثم خرجت من بوابة الدار الخلفية وقت أن كان الجميع مشغولاً بإرسال نعسة لدار

عويس، يعتريها القلق اتجاه المستقبل الغامض المقبلة عليه. بدت زين أقل حجمًا من كثر انكماشها على نفسها من الرهبة رغم أن الطريق كانت خاوية تمامًا من أي عابر أو مار كأن يامنة وقد صبت أهلها جميعهم داخل دوار عبد الجبار.

أودعت زين سرها لنجمة هي الوحيدة في السماء في تلك الليلة الجهمة حتى وصلت لجسر القرية، ولما تباعدت أصوات الفرح وأنواره شعرت زين إزاء ذلك ببعض من الارتياح، رفعت رأسها تتأمل شكل الجسر، فبدا لها أن الجسر طويل جدًا والبوم راقد على أغصان الأشجار القائمة عليه متربصًا لها. سكون يامنة زاد من برودة صقيع الجو مما جعل أسنان زين تصطك بعضها ببعض من الخوف والبرد معًا. تجرأت زين ومدت قدمها اليمنى بتوخٍ وقبل أن تثبت الأخرى بجوارها مرت على فجأة لفحة هواء اهتزت لها أغصان الشجر، فانبعث منها صوت حفيف عنيف تطايرت إثره بعض الطيور الصغيرة التي أوت بها.

فزعت زين مصدرة صرخة مكتومة ثم انطلقت بسرعة الريح وهي تنظر من خلفها وحولها بدون أن تنتبه للصخرة الكبيرة قبيل نهاية الجسر، والتي ارتطمت بها زين ثم سقطت على وجهها. إثر تلك السقطة شج رأسها لكنها لم تأبه للألم ولا لتلك الدماء التي انسالت على وجهها. تداركت نفسها سريعًا ونهضت مكملة عبور آخر خطوات من الجسر.

تبعت زين وصف عابد، الذي قال لها يكفيها أن تصل إلى الجسر تعبره ثم تقف منتظرة الفرج. لم يطل انتظارها، وها هي خطة تهاني تأخذ حذو اكتمالها بوصول فرج، وفرج هو سائق إحدى العربات التي كان يستخدمها الحاج عبد الجبار في تجارة الأقطان والغلال، واحدة من ضمن عشر عربات كبيرة كل واحدة يجرها زوج عفي من الأحصنة تجوب العربات الصعيد ومن الصعيد إلى القاهرة.

قال فرج يستحثها «هيا بسرعة أنا فرج الذي حدثك عنه أخوك». خلفت زين فرجًا حتى وصلت لداره، استقبل زين بعض الأطفال الصغار، قالت زين «لو أعلم بكم لكنت أحضرت لكم من حلوى الحفل». أزاح فرج الأطفال «ادخلي يا زين، لا يوجد غريب هذه زوجتي وزوجة ابني، والدة هؤلاء الشياطين الصغار». ترددت زين

ﮞ الدخول وهي تقول «وهل ابنك بداخل الدار يا عم فرج؟» ابتسم فرج ﮞ شجن وقال «ابني توفاه الله منذ حولين». تقدمت زين على مهل ﮞ خجل مطبق بالحرج، يراودها هاجس، ترى كيف يفكر فيها أهل الدار، هل يقولون عنها فتاة بلا خلق قادها قلبها نحو الهروب مع حبيبها فالفتاة العاقلة لا تتزوج بعيدًا عن دارها، لكن أين هو دارها وأين هم أهلها؟

سلمت زين على الجميع ثم جلست على حصيرة افترشت الأرض ﮞ منزل لا يختلف عن منازل أهل يامنة الفقراء، ولا عن بيتها الذي خلفته من وراء ظهرها. قال فرج موجهًا حديثه لزوجته وزوجة ابنه:

- اجلسا أنتما مع الضيفة، وسأقوم أنا بإعداد الشاي.

وضع فرج أمام زين كوب الشاي بجانب طبق به بعض من خبز البتاو وقطعة جبن، وطبق آخر وُضع فيه حبتان من الطماطم وقلب خس أخضر.

- تفضلي يا ابنتي لمَ أنت مرتابة، سريعًا ستعتادين الدار وأهله، مدي يدك أم تراك بخيلة. ألن تضايفيني ﮞ منزلك؟

- بلى يا عمي.

مدت زين يدها على استحياء متناولة قطعة خبز. وسريعًا اندمجت مع أهل الدار وتعارفت.

انفض الحفل وسكن الليل لكن سكان الدار لم يستكينوا كل ﮞ فلكه الخاص يدور، كان خبير يجالس ربيعًا أحد أبناء جابر والذي اعتاد المقامرة ﮞ بيت قاسم، وكان الأول قد لقي الثاني وهو يحاول التسلل خفية إلى الدار، وقد ضمد كتفه بقطعة قماش تنضح بالدماء من الواضح أنه شقها من تلفيحته البيضاء التي عمم بها رأسه. ساعد خبير الفتى حتى استطاع أن يصل به لحجرته ﮞ الخفاء، علم خبير أن ربيعًا كان ﮞ جلسة مقامرة بالورق ﮞ منزل قاسم فانتهز العبد الفرصة

أن وسوس في أذن ربيع بمحاولة إقناع والده جابر بل والضغط عليه لاستحضار عبيد أسياد له وبقية إخوته؛ لأن كون استحواذ أخيهم الأكبر عبد الجبار على العبدين الخاصين بعمهم في فترات غيابه في القاهرة دونهم هو تقليل من شأنهم سيتبعه عدة احتقارات لهم، أولها كون عبد الجبار هو الابن الوصي وريث العمودية عن أبيه جابر وجده عبد الجبار.

في ناحية أخرى استولى مرشد على عقل همام يزين له فكرة أن يتاجر في العنب المخمر وأن ينفرد بها هو كما انفرد جابر بتجارة الأقطان، مستوليًا على حصة القطن جميعها من أرض والده بأبخس ثمن، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه قمصان يتسامر مع رئيسة زوجة همام يلقي على سمعها بعض النوادر والأحاجي، وكأنه قد صار واحدًا من أهل الدار أو كونه شخصًا قريبًا، ولم يشجعها على ذلك سوى أن حجازة طريحة الفراش.

في شرفة حجرتها وقفت تهاني تطالع تحرك القمر في السماء، اختفاءه خلف أستار الغيوم ثم ظهوره بدرًا مكتملًا يتوسط السماء، في محاولة لإلهاء نفسها عن ذلك الألم الذي يشعره قلبها بعد أن أيقنت أن عابدًا معجب بفتاة أخرى، بل وقد تقدم لخطبتها بالفعل. كانت نفس تهاني تنشوي بحمى الغيرة من منافستها وتتقلب. أدارت تهاني وجهها لتجده واقفًا على سور شرفة حجرتها مكسور الجناح، قالت تحدث العصفور «آه يا صغيري إنه في العالم كله لا يوجد من يشاركني نفس الشعور إلاك يا مكسور الجناح. إنني طوال الليل أضحك وأتسامر كأنني أمتلك قلبًا حديديًا غير محطم بالمرة».

انتبهت تهاني لصوت طرق الباب فمسحت دموعها بسرعة والتقطت منديل الشعر واضعة إياه فوق رأسها، ثم قالت وهي تنصب رقبتها وتشد جزعها في محاولة لاستدرار بعض من كبريائها الذي ذهب به قلبها:

- تفضل أيها الطارق.

دخل عبد الحكيم مبتسمًا فاردًا ذراعيه:

- ابنة الأخ العزيزة.

قبل رأسها ولما نظر إلى وجهها سألها:

- هل كنت تبكين؟! ثم إن تلك النظرة الساقمة الملولة لا تليق بك، أين ذهبت روحك الفتية البهيجة؟

أطرقت تهاني ثم التفتت ناحية العصفور، مسكته برفق تمسد على ظهره:

- ربما من أجل ذلك الطائر أنا حزينة.

- أنت تغارين يا تهاني؟

انتقع وجه تهاني في الصفار «هل باح عابد لعمها بما بدر منها تلك الليلة في دار الطحاوي؟» أكمل عبد الحكيم حديثه:

- ولدت أنت ونعسة في نفس اليوم وكنت تأملين أن تزفي أنت وهي في نفس اليوم، أليس كذلك؟

تنفست تهاني الصعداء بعدما انتظمت ضربات قلبها المتوتر، حاولت إبداء الارتباك وكأن عمها اكتشف حقيقة مشاعرها فقالت متلعثمة:

- بلى.. لا بل أقصد.. لا..

وضعت تهاني العصفور فوق طاولة وأخذت تفرك يديها متصنعة حالة أن عمها اكتشف حقيقة مشاعرها.

- عمي، أنت تعلم أن نعسة ليست فقط ابنة عم هي صديقة وأخت فكيف تفكر بي هكذا؟

- على العموم لم أكن لأتمنى لك أنت بالذات زيجة كتلك، لقد جئت حتى أشكرك لما فعلته معي ومع زين، شكرًا لأنك أسعدت قلبين يا تهاني.

ابتسمت تهاني في يأس:

- هل سأكون سعيدة؟

- ولمَ لا؟

توهجت عينا تهاني بتحدٍ غريب على فجأة، زرتهما قليلًا وهي

تركز ببصرها على الطائر مكسور الجناح وقالت:

- سيشفى العصفور وستلتئم جراحه وأنا.. -صمتت لثوانٍ- أنا سأجد لقلبي سبيلًا للسعادة وإن اضطررت لأن أخطفها من فم الأسد سأفعل.



في الصباح وقبل زيارة العائلة لمنزل العروس استفرد همام بوالده عبد الجبار، وقبلها ظل يكرر مع نفسه مرارًا ما سوف يصبه فوق سمعه:

- ما بك يا همام ربع ساعة وأنت صامت؟ من يراك بالأمس وأنت تهمهم في أذني، أريد التحدث معك على انفراد، أريدك في موضوع هام، لا يراك اليوم وأنت معقود اللسان.

ازدرد همام ريقه:

- والدي.. أنت تعلم أن جابرًا استفرد بالقطن وتجارته وكلانا يعلم أن الأرباح جميعها غير منتقصة قرشًا واحدًا يستحوذ جابر عليها.

- حقه فتلك فكرته وذلك مجهوده.

- وأنا غير معترض بارك الله له وعليه، وما دام أنه امتلك حق الفكرة فأنا الآخر لدي فكرة ومخطط تجاري آخر.

فرد عبد الجبار ذراعيه:

- عظيم هات ما عندك.

أخرج همام منديلًا من جيبه، مسح حبيبات العرق التي ندت جبينه وقال بعد مدة:

- لدينا مزرعة عنب وتوجد أخرى بجوارها ملك لشابين صغيرين مات والدهما تاركًا تركة من الديون لا بأس بها، فإن استطعنا الضغط عليهما لأخذناها بمبلغ بخس.

- فكرة ممتازة ولكن أين جديدك في هذا؟ حدثني عبد الشكور عن المزرعة وهو منذ شهر يفاوض مالكيها.

- الفكرة هي.. هل تذكر يا حاج ذلك الشراب الذي أحضره قمصان معه وسقى منه الضيوف في حفل سابع حفيد وقد استساغوا مذاقه وأعجبهم؟

- أخ! يا همام إنه لشراب سالب للألباب.

تجرأ همام وقال متفائلًا بعد أن أثنى والده على الشراب:

- نعم يا والدي نعم إنه كذلك، إنه مصنوع من العنب المخمر.

تغيرت ملامح عبد الجبار وانقلب وجهه وهو يقول في غضب:

- خمر؟ هل تقصد أن ذلك الشراب خمر؟ هل سقيت الناس خمرًا؟ أي عار ذلك أنا عبد الجبار يدخل جوفي الخمر ويكون ابني هو الساقي!

وضع عبد الجبار يده مكان قلبه وقال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ينخفض صدره ويعلو:

- ارحل يا همام ولا ترِني وجهك.

فر همام بأسرع ما يمكنه ليتجنب مشاحنة بينه وبين والده إذ لم يكن لديه ما يقوله في الوقت الذي لم يرتب فيه لردة فعل أبيه الغاضبة، تسلل همام لخارج الغرفة في هدوء على نغمة الوالد المتتابعة:

- يا للعار سقيت خمرًا، يا للعار، يا للعار!

اصطدم همام بجابر أمام الباب، أشاح الأول بيده وخرج في اندهاش من جابر الذي اتجه ناحية والده، وجلس بجانبه في أدب زائد كعادته حين يتعلق الأمر بطلب ما، لم يدم صمت الابن طويلًا بعدها دخل في لب موضوعه بلا مقدمات:

- نريد منك يا حاج إذنًا بذهاب أولادي إلى السودان لشراء عبيد أسياد لهم، إن أبناء جابر ابن عبد الجبار الوصي على القرية بعد عمر طويل جزء لا يتجزأ من الجبابرة بل إنهم الدعامة لأخيهم الأكبر مثلما همام وعبد الحكيم بالنسبة لي، وأنا لا أريد شقاقًا بينهم تكون سببه الغيرة.

في آخر عبارة من حديثه نظر جابر لوالده نظرة مفادها «لا أريد لأبنائي مصيرًا مثل مصير أعمامي». ثم استطرد:

- أريد من أبنائي أن يتجنبوا هفوات السابقين وسقطاتهم وأبدًا لن يحدث هذا إلا لو كنت أنا حذرًا منتبهًا لكل شق قد يدخل منه الشيطان لقلوبهم.

رجع عبد الجبار بذاكرته لذلك اليوم الذي وسوس فيه الشيطان له بقتل إخوته برميهم واحدًا واحدًا من أعلى الجرف بعد أن وضع لهم السم في الشاي، تلووا كالأفاعي حوله، صرخوا من الألم لكن هيهات أن يسمعهم وهم في حضن الجبل أحد. سكن الأول ثم الثاني ثم الثالث إلى أن لفظ الخامس أنفاسه بعد صراع مع الحياة والموت معًا، جر الأخ إخوانه ثم دحرجهم من فوق الجبل ثم ألقى بنفسه هو الآخر متدحرجًا يهز صوته الخلاء، دار ودارت الرمال حوله في دوامات ثم ارتطم بحجر وأغمي عليه ومن سوء حظه أنه للمصادفة لم يمت، كان من الممكن أن يموت لولا أن القدر أمهله عمرًا من أجل اكتمال قصيدة الظلم.

وجد الغفر في صبيحة اليوم التالي أن الإخوة جميعهم صرعى ما عدا عبد الجبار المصاب ببعض الخدوش وكسر في معصم اليد. خرجت تنهيدة عميقة جافة من القلب القاسي لاحقتها تنهيدة أخرى. السبب الأول الذي حرضه على قتل إخوته، هو شهوة المال وحب الحياة، مفكرًا، ماذا لو لم يقدم على ذلك الفعل؟ بالطبع لتناقصت ثروته أضعافًا ولما استطاع أن يحظى بتلك المكانة التجارية ولما استطاع تحقيق كل المكاسب التي جناها بعد اغتصابه لأرض إخوته، يكفي أنه رمى لأبناء من كان فيهم متزوجًا بعضًا من فتاتها بحجة أن الأبناء صغار لا طاقة لهم بتحمل هموم الأرض وأشغالها.

ثم التهى عبد الجبار بحساب تدابيره التجارية، مزرعة العنب وكيف أن عبد الشكور لم يستطع البت فيها إلى هذا الحين؟ وهو يهمس لنفسه «وجب علي أن أرسل عبد الشكور مرة أخرى لمالكيها». ثم ابتعد فكره أكثر فأكثر في حساب بعض الديون المتأخرة على بعض التجار الصغار، وكيف أنه بحنكته استطاع وضع المغرس المناسب لهم وعاجلًا أم آجلًا سيرهنون أراضيهم، بعدها رجع بعقله لفكرة المتاجرة في العنب المخمر فلحق نفسه بالاستعاذة من الشيطان الرجيم والاستغفار بصوت عالٍ. سمعه جابر فعقب:

- هل من شيء يا والدي أسمعك تستغفر؟

قال عبد الجبار وهو حريص على عدم إبداء مشاعره إزاء الذكريات التي لاحت أمامه كقطار سريع فوق شريط سكة حديد:

- لا يا جابر ما من شيء، أرجئ الآن أمر العبيد لحين أن أنتهي من بعض الأشغال. اذهب أنت ولا تنس أن تبعث لي بعبد الشكور. اجعل خليلًا يحضر العربات واترك خبرًا للنساء أنهن سيذهبن الآن جميعًا لدار عويس، أما أنا فلن أبرح الدار قبل البت في أمر مزرعة العنب مع عبد الشكور.

جاء صوت رئيسة من الخارج يسابقها:

- يا حاج، يا حاج.

وبصوت زاعق قال عبد الجبار:

- ما بك يا امرأة هل لسعت؟

- لا يا حاج بل عمتي حجازة.

- هل ماتت؟

- بعد الشر عنها، لكنها تريد الذهاب لدار عويس ولو محمولة.

- تلك المرأة المكابرة لا أمل في إصلاحها، ستجعل من نفسها فرجة للخلق

-صمت قليلًا- الأمر لله ستنفذ ما في رأسها ولو ذهبت زحفًا على مقعدتها، عجوز ماكرة. لتحملها خضرا وفتحية.



لم يعد سوى خطوة واحدة وتكتمل خطة عابد وعبد الحكيم تلك الخطة التي دبرتها تهاني، إلا أن الخوف ما يزال يعتصر عابدًا ليس على نفسه بل على أخته التي ليس لها في الوجود بين البشر سواه.

لم يلحظ غياب زين سوى خضرا حين لم تلحظ وجودها فظنت أنها ذهبت مع من أرسلتهم رئيسة بصواني عشاء العروسين، ومع الانهماك في العمل نسيت الصديقة أمر صديقتها. في الصباح اكتشفت خضرا أن زين لم تبت في حجرة الخدم ولما سألت أمها عوالي إن كانت زين ذهبت معها لدار عويس لإيصال العشاء، أجابت الأم بالنفي، لم يمض إلا دقائق حتى ذاع خبر غياب زين بين الخدم نساء ورجالًا. فاتفقوا على البحث عن زين قبل أن يصل الخبر لأسيادهم ثم يجدونها بعد ذلك فيصيبها مكروه أو عقاب.

قبيل فجر الليلة التي هربت فيها زين تسلل عابد حين كان جميع من بالدار نائمًا، حمل ملابس زين متجهًا لضفة النهر، وضع الملابس هنالك ثم رجع لفراشه. لما عرف عابد من خليل بأن زين غير موجودة في دار عبد الجبار أو همام تصنع المفاجأة ثم الصدمة والحزن وراح يبحث عنها مع الخلق، ولما وجد أحد العمال ملابس زين بجانب النيل أتى بها لعابد وهنا صرخ عابد، لطم الخد وشق الجيب وهو ينوح «غرقت أختي، أكلها البحر». وهكذا انتشر وسط العمال والخدم خبر غرق زين. رغم ما أبدى عابد من حزن وتأثر فإن دمعة منه لم تذرف وهذا ما لاحظه زيدان، لكنه لم يصرح وقتها بالشك الذي خالجه وقال في نفسه «قريبًا سيكشف السر نفسه بنفسه».

بعدما ذهب الجمع من دار عبد الجبار إلى دار عويس، مستبقين بشيرًا وريحان ملازمين ككلبي حراسة أمام حجرة عبد الجبار، استقبل عبد الجبار عبد الشكور لكنه لم يستهل حديثه عن مزرعة العنب وبدأه بما هو في نظره أولى وأهم:

- كيف حال زوجتك جولفدان هانم يا عبد الشكور؟

- بخير يا حاج تسأل عنكم باستمرار.

- ألا تفكر الهانم في زيارة ثانية ليامنة؟

- قريبًا إن شاء الله بل ربما نستضيفك نحن في منزلنا قبل ذلك، حين نتقدم لخطبة الآنسة جوزال كريمة معاون مهردار جناب الخديوي لابنكم الغالي عبد الحكيم.

وكان عبد الشكور متزوجًا من امرأتين الأولى هي ابنة عمه ووالدة أبنائه المقيمة في يامنة والثانية هي امرأة تركية تكبره بخمسة عشر عامًا، تعمل رئيسة الوصيفات في حرملك الخديوي إسماعيل، التقيا في رحلة كان فيها عبد الشكور راجعًا من تركيا محملًا بما وصي بإحضاره من تركيا لأسياد وأعيان الوجه القبلي وليس فقط عبد الجبار، حيث إن علاقات عبد الشكور المتشعبة لم تقتصر على علاقته بعائلة عبد الجبار وحسب بل كان له مجلسه في منزل كل ثري ووجيه في الصعيد، وساعده في ذلك سعيه الحثيث لإقامة العلاقات الاجتماعية.

وكانت جولفدان يومها راجعة من تركيا على نفس السفينة التي ابحر بها عبد الشكور بعد تأبين زوجها ودفنه. امرأة تركية متشحة بالسواد محاطة بحشم وحرس، لم يكن صعبًا على عبد الشكور هذا الرجل الداهية المتفنن في أمور المكر والدهاء اصطيادها ببيت شعر عربي فيه إطراء وغزل بعد فهم عبد الشكور طبيعة جولفدان كأنثى، فما امرأة تكون حزينة على زوجها تضع البودرة فوق بشرتها والحمرة على وجنتيها وتحرص على التعطر وتنسيق الهندام والمظهر بالشكل الملفت، إنها من ذلك النوع الذي لا يستبقي على ذكرى زوج ميت ما دام أنه قد

وجد البديل. أسلمت المرأة سمعها لعبد الشكور ومن ثم بدأ سريعًا التعارف بينهما وانتهى بخطبته لها على رصيف الميناء ولم يكن قد مضى على موت زوجها أكثر من شهر، لكنها الطيور القبيحة على أشكالها تقع.

في العام السابق زارت جولفدان يامنة وقد استضافها عبد الجبار في منزله وليس دار الضيافة كما هو معهود بالنسبة لاستضافة الضيوف من خارج البلد، وكان يقوم على خدمتها بشخصه حتى إنه وصل الحال بعبد الجبار أن يقوم بعمل فنجان قهوتها بنفسه مطلقًا العنان في المبالغة في احترامها وتقديرها، مما استثار ذلك غيرة حجازة لذا ظهر عدم رضاها واضحًا، ولأن عبد الجبار كان يعلم طباع حجازة وأنها امرأة حيزبون لن تخجل بل ولن تتردد في إطلاق نيرانها، كان يخاف منها إن غضبت تصرفت بلا وعي، تصرفات من شأنها اهتزاز صورته والإقلال من هيبته أمام ضيوفه لذا حاول تلطيف الجو بالذهاب بحجازة في المساء للصائغ، وقد اختار لها كردانًا على شكل طبقات وزوجين من الأساور زادتهم هي بعقد على شكل رقائق دائرية رقيقة وصغيرة متراصة بعضها فوق بعض، وكان ذلك العقد موضة حديثة في وقتها وقد أطلقت عليه النساء اسم «مشخلعة»؛ وذلك لأنه حين كانت تضعه المرأة فوق صدرها وتتحرك وتميل كانت تهتز الرقائق محدثة صوت رنين ترق له الأذن، وقد أعجبت تلك القطعة الذهبية حجازة منذ أن سمعت عنها، وقد تفاجأ عبد الجبار باختيارها لما قد تختاره صبية في عمر حفيداتها وليس امرأة ودعت فتنة الصبا وغنج الشباب منذ زمن، لكنه لم يهتم ما دام قد نال رضاها واشترى تقديرها له. ومن ناحيتها لم تجد حجازة حرجًا في ارتداء المشخلعة فوق رداء مقور بفتحة صدر مربعة متباهية أمام ضيفتها التركية بحليها وسط همز ولمز من زوجتي ابنيها.

وقد وعدت جولفدان عبد الجبار قبل عودتها للقاهرة بعروس من البلاط الخديوي لابنه عبد الحكيم. وأخيرًا وبعد مرور عام استطاعت جولفدان إقناع أختها لاله زار بعبد الحكيم كزوج لابنتها جوزال والتوسط لدى زوجها سكرتير المهردار ليوافق هو الآخر بزواج ابنته بعبد الحكيم.

لما اطمأن قلب عبد الجبار لأمر عبد الحكيم انتقل لموضوع مزرعة العنب:

- وبالنسبة لبستان العنب يا عبد الشكور؟ يجب العض على هذين الشابين.

- كل ما أردته سيتم بالأصول وليس بالتخويف يا حاج، الحياة تغلي وتفور ومال الدين مغرٍ وغزير لكنه مثل القش فوق الماء ما إن تطأ فوقه القدم حتى تنسحب للقاع.

- هل يعني ذلك أن المزرعة باتت في يدنا؟

- بل والدار أيضًا.

مسح عبد الجبار على كرشه في رضا وهو يقول:

- يا لك من رجل داهية يا عبد الشكور، لنذهب لدار عويس إذًا لمباركة العروسين.

- سأخرج لإعطاء الأمر لسائس العربة، استرح أنت يا حاج.

في الخارج أوقف بشير عبد الشكور:

- هنالك أمر عليّ الحديث فيه معك يا سيد عبد الشكور.

ابتسم عبد الشكور بخبث، برم شاربه ثم قال:

- ليس هنا بل في داري، مر عليّ في المساء يا أخ بشير.

ابتعد عبد الشكور متجهًا لإسطبل الخيول يتمتم «يومًا ما سينقلب عبيد الأسياد على أسيادهم».



في منزل نعسة الجديد دخلوا بحجازة تحملها خضرا وفتحية، وقفت باقي النساء تحية واحترامًا للسيدة الكبيرة مقامًا وسنًا، ثم تعاونّ فيما بينهن في حملها فأجلسنها بجوار العروس وجلست الحماة الناحية الأخرى من نعسة. كانت نعسة

حزينة.. حزينة جدًا انطفأت من وجهها فرحة الليلة السابقة وانسحبت البهجة. لم يكن بوسع سنية الاقتراب من ابنتها وسؤالها عن حالتها لأن الحماة ما فارقتها طوال الجلسة التي امتدت لآخر النهار وكأنها كانت تحرسها، لكن الإجابات كلها كانت بائنة في عيني نعسة الذابلتين فلم تكن نعسة هي نفسها تلك الفتاة التي كانت بالأمس؛ وذلك لأن قلبها قد انكلم منذ ليلة الأمس منذ أول نظرة ألقتها على زوجها.

ظنت النساء أن حجازة غفت فغطتها إحداهن بشالها، لكن غفوتها طالت وتحولت لنوم ثقيل لم تؤثر عليه الأصوات الصاخبة المختلطة، وفي الحقيقة لم تكن تلك نومتها الصغرى بل الأبدية والأخيرة، وسط الزغاريد والتصفيق والرقص على إيقاع الطبل والغناء صعدت روح حجازة بدون أن يشعر أحد. خرجت حجازة محمولة من دارها حية وشيعت إليه محمولة وهي ميتة. وكان ذلك من حظ عابد لا سيما أنه لم يهتم أحد من السادة بحادثة غرق زين، معتبرينها خسارة لا تساوي أكثر من خسارة نفوق أحد الدواب فلا بأس إن غرقت عبدة فلتكن فداءً للأبناء والأرض.



-11-

ثلاثة أشهر انقضت منذ موت حجازة، حدث فيهم من الأحداث في يامنة ما لم يتوقع حدوثه في العمر كله لأي نفر فيها. فبعد أربعين يومًا من موت حجازة أتم عابد وعبد الحكيم بمساعدة فرج خطة تهاني لتهريب زين التي كانت تقيم وقتها في منزل فرج مع عائلته متسترة عن الأنظار، وقد تمكنا من تهريب زين للقاهرة حيث سيتزوجها عبد الحكيم هناك. سافر في البداية عبد الحكيم ومن ثم انتظر فرج حتى حان الوقت المناسب، حين طلب من فرج تحميل أجولة القطن في العربات والذهاب بها للقاهرة لبيعها لتاجر آخر يبيعها هو بدوره إما لأجنبي بغرض التصدير أو صاحب محلج.

بداخل الجرن الواسع والمليء بالقطن المجني الذي يشغل مساحة كبيرة في جانب رصت الأجولة المخصصة لكبس القطن فيها، الجوال كان بطول ثلاثة أمتار وقطر متر، في اليوم الأول ملئت ثلاثة أرباع كمية القطن، وقبيل الفجر طلب فرج من العمال الذهاب لمنازلهم على أن يعودوا للعمل صباح اليوم التالي وسيظل هو وعابد يحرسان القطن. بعد ذهاب آخر نفر من العمال طلب فرج من حفيده الذهاب للمنزل الذي لم يكن يبتعد عن مكان تعبئة القطن أكثر من بضعة أمتار والإتيان بزين في يده، ولحين أن تأتي قام فرج وعابد بأخذ جوال ثنيا أطرافه ووضعا فيه مقدار ثلاث أذرع من القطن كبساه جيدًا بداخل الجوال، ولما أتت زين طلب منها فرج الوقوف فوق القطن بداخل الجوال ثم بدأ هو وعابد كبس القطن من الأسفل للأعلى عموديًا محيطين زين بالقطن.

شعرت زين باعتصار عضلات جسدها وتصلب أطرافها كما لو كانت زمت بكفن لكنها تحاملت على نفسها دون إبداء أي أسى، مجاهدة نفسها تستعيد الابتسامة

أمام وجه أخيها فيطمئن هو، وذلك حين كانت تحس اضطرابه لما كان يسأل فرجًا مشفقًا عليها «ألا يكفي ذلك يا عم فرج سيتكسر عظمها!» فيجيبه الآخر «لا، بل علينا كبس القطن جيدًا». لكن زين ومع جلدها لم تستطع كبح أنفاسها لما شعرت بالاختناق حين وصل القطن لرقبتها، قال فرج «من هنا -مشيرًا لنحرها- وحتى رأسها سنرخي قليلًا، حاوط وجهها بيدك حين أطلب منك فعل ذلك وأنت يا زين أغمضي عينيك». شق فرج الشوال شقًا صغيرًا بحجم برتقالة كبيرة ثم رفع حواف الشوال، كان موضع القطع تمامًا حول أنفها وفمها وقد ثبت عابد حافتيه بيده ثم أكمل فرج ملء الجوال، وبعدما انتهى ربط الجوال وأماله ناحية الأرض ثم سحباه إلى مكان منزوٍ بجانب حطب القطن حتى لا ينتبه إليه أحد. رقد الجوال تغوص زين بداخله في نفق ظلام لا آخر له، لا يظهر منها سوى فمها وأنفها.

في الصباح أتى العمال لاستكمال عملهم، ساعتان وأتموا ملء ما تبقى من حشو القطن ثم بدأوا بتحميله على العربات، وكانوا ثماني عربات خشبية كبيرة منوط بجر كل واحدة زوجان من الأحصنة العفية.

الأجولة ثقيلة يجرها الرجال المدبوغون بالشقاء كل واحد منهم نشفه الفقر والجوع فلا تميز فيهم سمينًا أو تبصر فوق العظام لحمًا، يربط الواحد منهم حزامه فوق خصره النحيل يكز بأسنانه مستحضرًا كل عافيته في رفع الجوال مع زملائه، وحين لا يجدون القوة كانوا يزيحونه بالجر والسحب حتى يصلون بالجوال للعربة يتوقفون قليلًا آخذين أنفاسهم، يفك أحدهم منديله ليمسح به عرقه ويتناول آخر قلة الماء صابًا ماءها في جوفه الجاف، لا تمر نصف دقيقة حتى ينقضون على الجوال بأيديهم ساندين الرسغ على عظام الفخذ يستنجدون القوة من القوي في صرخة واحدة «يا قوي، هيلا هوب». وفي لمح البصر يكون الجوال فوق العربة.

في الذهاب والمجيء كانت عينا عابد معلقة بالجوال المنزوي بجانب حطب القطن والقش يراقبه بشكل متعاقب، ولما لاحظه فرج دار ناحيته ولكزه أسفل كتفه ففهم عابد قصده بأنه لا يريد لفت الأنظار إليه. تمت المهمة بنقل جميع الأشولة

إلا ذلك الشوال وقبل أن يتجهوا نحوه صاح فيهم فرج «عوفيتم يا رجال يامنة، اتركوا لي أنا وعابد هذا الجوال». وكأن همًا انزاح من فوق كاهل الرجال، جوال من أربعين جوالاً صحيح أنه لن يفرق إن سحبوه أو تركوه لكنهم وجدوها منحة عظيمة وعطفًا كثيرًا.

وقف عابد أمام الجوال المنصوب بداخله أخته يلقمها فرج بعض اللقيمات ويشربها الماء بعناية من خلال فتحة الجوال.. قال لنفسه وقد تعاظمت عزة أخته في نفسه «أي ذل هذا، لعن الله القهر!» قالها بصوت منخفض ثم سهم يفكر لعل خطيبها الآن يجلس متكئًا على إحدى الأرائك يأكل طعامه متلذذًا ويشرب الماء كما الآدميين فما الذي دفعه إذًا لقبول تلك المهانة على أخته، ابنة أخي عبد الحكيم زفت فوق هودج جمل معززة مكرمة أخذها عريسها من يد جدها، أما أخته زين فتزف إليه بداخل جوال يسلمها ليده رجل غريب عنها، وأغلب الظن أنه أراد الزواج بها ليس لشيء إلا لتذوق مذاق ذلك النوع الغريب عليه من النساء، الفتاة السوداء «لا، لن أقبل بتلك الزيجة». قالها عابد بصوت عالٍ وراح يفك الجوال، حاول فرج عقد ذراعي عابد خلف ظهره لكن عابدًا أفلت منه ودفعه ليقع أرضًا، خاطبه فرج برفق «سامحك الله يا عابد». هرع عابد نحو فرج يستسمحه «والله ما قصدت يا عمي، لقد عزت علي أختي أن تزوج بتلك الطريقة بعيدًا عن عيني». نهض فرج متكئًا على ساعد عابد، نفض جلبابه وهو يقول «لقد فات الأوان يا عابد، زين في نظر أهل يامنة ميتة ولو رجعت سيقولون كانت هاربة وستنال من التعذيب ما لن تحتمله لا هي ولا أنت، ثم إن عبد الحكيم غير والده وإخوته، لا تقلق يا ولدي فهي لن تظل على هذا الحال حتى ذهابها إلى القاهرة، من يامنة إلى البندر أربع ساعات ومن البندر إلى المنيا ثلاثة أيام بلياليها سوف نطويها على مهل، وذلك إن ساعدتنا الخيول وكانت الطريق الوعرة سالكة، سأطعمها وأسقيها مرتين في اليوم ولها أن تتبول وتتغوط في الجوال فلقد أحضرت معي لها ملابس وضعتها في الكيس الخاص بي».

- ولمَ ستتخذون الطريق الجبلي الوعر، ألا تخشون السرقة؟

- بل سنكون في حماية السارقين، لا تتعجب. الحاج يدفع للثعلب لقاء تأمين عرباته وتجارته، فلو مررنا بالطريق الزراعي السهل فسوف تمر العربات بمنازل وأراضي الفلاحين والعمال، الذين طفحوا من دمائهم لقاء إنتاج هذا القطن ولم يأخذوا من خيره ولو اليسير، وها أنا أمامك أدير عربات الحاج التي تأتي وتروح بعشرات القناطير من القطن ولا أستطيع أن أفصل لنفسي جلبابًا كالذي يرتديه الحاج أو أبناؤه. وستمر العربات أيضًا على أصحاب الأراضي الصغيرة المعدمين الذين اضطروا لبيع قطنهم لقاء تسديد ديون الشتاء، ففي الشتاء يا ولدي لا حصاد ولا مال ولا أحرمة ولا لباس، ماذا بربك هم فاعلون؟ مضطرون للاستدانة من أصحاب الأراضي الكثيرة الأغنياء الذين لا يفرق معهم فهم يملكون المال صيفًا وشتاءً، وحين يأتي الصيف وينور القطن يحجزه عبد الجبار بنصف ثمنه الحقيقي ليبيعه هو بأضعافه. ترى في رأيك لو مرت العربات من أمام كل هؤلاء ماذا سيكون رد فعلهم؟ تخيل أنت، يا بني إن الظلم لن يخرج من بين يديه إلا الأحقاد والضغائن.

- صدق قولك يا عم فرج.

- وجب عليك أن تشد على عضد أختك وتبتسم في وجهها مباركًا لها زيجتها، الفتاة لم تشِنك لقد خطبها عريسها منك وها أنت تحمل الجوال الذي هي فيه بيديك، يومًا ما ستحكيان لأحفادكما قصة العروس التي سافرت لعريسها مكبوسة في جوال مع القطن.

ضحك عابد وضحكت زين وقال فرج معقبًا «وستحكيها الربابة أيضًا مثل قصة أبي زيد الهلالي».

حُمِلت الأشولة جميعًا وسافرت العربات بعدما بخرت وباركها الشيخ والقس وفقًا للعادات. ثلاثة أيام بلياليها مرت أمر بعدها فرج سائسي العربات بالانحدار

نحو الطريق الزراعي للتزود بالماء والطعام، وكانت هنالك قهوة يتردد عليها فرج في ذهابه وإيابه، صاحب القهوة يدعى مرتضى وهو صهره أخو زوجته، وهو رجل يعرفه منذ أن كان يجلس بجوار والده فوق العربة طفلًا صغيرًا، في منتصف الطريق كان والد فرج يتخذ القهوة مرفأ له لنصف يوم من الراحة. توطدت علاقة الرجلين فكان يجلب والده معه لمهاداة أبي مرتضى التمر والخبز الشمسي في مشنة جديدة صنعتها زوجته أم فرج.

يجلس الرجلان يشربان الشاي ويلعب الأطفال فرج وأبناء المعلم أبي مرتضى في الشارع أمام القهوة، وكان من ضمن الأبناء فتاة صغيرة تدعى فرحة اعتادت كما إخوانها اللعب مع فرج، ولما كبرت ووصلت لسن التاسعة من العمر قرر والدها أن الفتاة كبرت وليس من الواجب تركها تختلط مع الصبيان، وحين افتقد فرج فرحة ذهب لوالده وكان صبيًا لم يتعد الحادية عشرة، فرد قامته وخشن صوته وقال «لقد أصبحت رجلًا يا أبي وبمقدوري التحكم في عربة قطن كاملة». رد عليه والده «فعلًا يا فرج كبرت يا بني». عقب فرج «إذًا زوجني فرحة». لم يكذب الوالد خبرًا، أمسك بيد فرج وسافر للمنيا وهنالك طلب يد فرحة لفرج ولم يمانع الوالد لترجع في الزيارة التالية فرحة مع فرج ليامنة كزوج وزوجة.

عامان لا يدرك الصغيران معنى للزواج إلا مسابقة القطط والخراف الصغيرة وبناء بيوت من الطين والقش. في يوم ذهب فرج يبكي لوالده وقد انشق وجهه على حسرة لا تليق إلا بكهل لا صبي، قال فرج يشتكي «عامان ولم تنجب لي فرحة طفلًا صغيرًا كمثل النساء يجدر بي الزواج عليها». ضحك الوالد «وكيف تنجب لك إن كنتما لا تتشاركان إلا في التسابق والنقار!». لم يمض بعدها تسعة أشهر إلا وكان فرج يحمل توأمه من فرحة، كبر الزوجان وشاب شعر رأسيهما ولا يزالان يسابقان الخراف الصغيرة ويبنيان بيوتًا بالقش، طوال النهار يتناقران حتى يأتي المساء يتصالحان ويغفو كل واحد منهما في حضن الآخر.

يتذكر فرج ومرتضى الأيام الخوالي، يسردان ذكرياتهما تنعكس الذكريات

على القلب فيبتهج الوجه، يضحكان حتى تدمع عيونهما حنينًا واشتياقًا للأموات والأحياء من الأحبة والأهل ومن باعدت بينهما وبينهم المسافات.

انتحى فرج بمرتضى:

- هل وصل عندك عبد الحكيم؟

- نعم منذ ليلتين، وقد أطلعني على الخطة كلها، هل جلبت أنت الفتاة؟

- بداخل أحد أجولة القطن لكن كيف سأحل الجوال والعربات واقفة أمام القهوة، لربما يلاحظني أحد من العمال؟

- لقد تدبرت الأمر، انتظر قليلًا ريثما يأتون.

- من هم؟

- ستعلم حالًا.

لم تمر ربع ساعة ودخل القهوة جوقة من الزمارين والطبالين وعازف ربابة يتقدمهم مداح، سلبت الألحان انتباه كل من في القهوة منتشين بعزف الربابة وشدو المنشد، وفي أثناء انشغالهم خرج فرج ومرتضى حلا الجوال وسريعًا أخرجا زين التي استلمتها نعمة زوجة مرتضى، لفتها بملاءة وانطلقت بها للمنزل الذي لم يكن بعيدًا عن القهوة.

كانت زين كالقشة، ضعيفة جدًا بدرجة أفقدتها القدرة على الرؤية بشكل طبيعي، كانت الصور أمامها تتماوج باهتة لذا أمسكت بطرف ملاءة المرأة أثناء سيرهما، آلام مفاصلها كانت لا تطاق في كل خطوة كانت تحرك فيها كاحلها أو تثني ركبتيها. لما وصلت بها نعمة المنزل سقتها في البداية الماء ثم ناولتها كوب عصير ليمون، لم تشأ نعمة الإثقال على زين بالكلام فغيرت لها ملابسها بدون أن ترهقها بالحديث ثم أجلستها على كرسي خشبي وأخذت تهيل الماء الدافئ فوق جسدها، ألبستها ملابس نظيفة، وحين بدأت تسرح شعرها بدا لها أن زين تتوجع فلملمت شعرها وربطت رأسها بطرحة خفيفة ثم أجلستها واضعة وراء ظهرها بعض المساند.

في تلك الأثناء كان عبد الحكيم جالسًا مع فرج يشكر حسن صنيعه معه ووقوفه بجانبه هو وزين، وأبلغه أن يطمئن عابدًا على أخته، مشددًا على ضرورة إبقاء الأمر سرًا بينهم. استأذن فرج من عبد الحكيم مودعًا إياه قائلًا «الحديث معك متعة لا تنتهي فلسانك حلو وطبعك حسن وخلقك طيب، لكن يا ولدي أنت تعلم العمل لا ينتظر، إلى اللقاء». بعدها جمع فرج عماله وعرباته ضاربًا السوط بالأرض «تشي» ثم انطلق حتى اختفى في خدر الوسن.



كانت نعمة تطعم زين حين دخل عليها محروس.

- قمح! تطعمين ضيفتك قمحًا مسلوقًا يا امرأة، أين ذكر البط الذي كنت ترعينه من ثلاثة شهور؟

- كلي يا زين لن يرمم عضل جسدك إلا القمح.

ثم اتجهت بوجهها نحو زوجها:

- هل تريد قتل الفتاة، ثلاثة أيام معدتها جافة وتريد إنزال لحم البط فيها؟ ستتعفن أمعاؤها بالتأكيد. عليّ تدريب أمعائها على الطعام كما الطفل الصغير، إننا منذ عهد آدم ونحن نعرف أن الطفل لا يطعم إلا ماء القمح، هذه حبوب مباركة سيلين ماؤها الأمعاء المتيبسة وستبني غلتها عضل جسدها الضامر، ومن ثم سأطعمها خبيصة وحريرة وبعدها سأضع أمامها ذكر البط كاملًا هنيئًا مريئًا لها.

اقتنع محروس بكلام زوجته لكنه كابر:

- يا لمكركن يا نساء، كي يجاب على سؤالي عليّ سماع مائة موعظة، وهل تظنين أنني لا أعرف ما تقولينه ذلك لقد جئت في الأساس لأخبرك باتباع تلك النصائح.

ضحكت الزوجة ساخرة في نفسها من صغر عقل زوجها لكنها لم ترد إحراجه مجيبة:

- وهل ينافسك في الفهم أحد يا سبعي!

رجع محروس أدراجه لضيفه عبد الحكيم يخبره أن زين بخير لكن يلزمها بعض الوقت لاسترداد عافيتها. ثلاثة أيام بعدها عقد عبد الحكيم قرانه على زين وسافر بها للقاهرة. سافرت زين تحمل في قلبها اشتياقًا جمًا لأخيها الذي ربما لن يسعها أن تراه مرة أخرى.



- ١٢ -

ولإقناع عبد الجبار بفكرة المتاجرة في العنب المخمر ذهب بشير لمنزل عبد الشكور لعقد صفقة يتوسط عبد الشكور فيها بين عبيد الأسياد وأسيادهم، لقاء نسبة من الأرباح ستؤول إليه إن ساعدهم ووقف بجانبهم دون أي أحد وإن كان عبد الجبار وأبناءه، وقد تم الاتفاق على تمهيد عبد الشكور الطريق القذر لعبيد الأسياد للتخلص من أسيادهم، لم يتحدثوا في ذلك الأمر صراحة لكن مجاز الحديث كله وارى ما بالضمائر.

في اليوم التالي ذهب عبد الجبار برفقة عبد الشكور لتفقد بستان العنب.

قدر عبد الشكور مساحة البستان بأربعة فدادين لكن واحدًا من الشابين عارضه قائلًا له أنهم أربعة فدادين ونصف، لكن عبد الجبار وبعين التاجر الخبيث نظر في عيني الشاب قائلًا «يا ولدي وهل ترضى على نفسك الحرام؟ ما نفع عبد الشكور بالضحك عليك». أردف عبد الشكور «حسنين شاب حاشا الله بينه وبين الحرام يا حاج إنه ابن رجل صالح، أنا أعرف والده رحمه الله وأعرفه هو وأخاه منذ أن كانا يمسكان أذيال جلباب والدهما، لعله كان يقصد النصف فدان الإضافي الذي يضم المنزل وزريبة المواشي».

كان الكرم مكون من عشرات الصفوف الطويلة من دوالي العنب، أوراق العنب الخضراء تلمع فيه تحت أشعة الشمس وتتمايل مع النسيم الرائق. أقواس العرائش كانت متينة والأحواض بين الدوالي منظفة من العوالق والحشائش مما يدل على أن البستان معني به، المحصول كان ناضجًا ووافرًا وعناقيده ثقيلة ممتلئة. جرى ريق عبد الجبار وهو يتفحص البستان بعين طامعة جوعى. قال واحد من الشابين:

- الكرم يساوي ضعف فدادينه وكل شيء به جاهز.

قال عبد الجبار وهو يتململ في الحديث رافعا كتفيه:

- البستان لا بأس به يكاد يكون جيدًا لكن ليس أيضًا كما تدعي أنه يساوي ضعف فدادينه، أليس كذلك يا عبد الشكور؟

- يا حاج إن الشابين يتيمان وهما واقعان في عرض كرمك وعاطفتك الرؤوفة.

- وكأنك لست على علم بضائقتي المالية يا عبد الشكور، أنا في أمس الحاجة لمالي، لن آخذ البستان لكن يعطونني المال الذي استدانوه مني؟

قال الشاب مترجيًا:

- يا حاج والأرض هي الأخرى فيها الخير كله، إن أمامك كرمًا جاهزًا لن تنتظر حتى تغرس فيه غصن فيكبر ثم يخضر فيثمر. إن من اشترى أرضًا سمن وعوفي.

قال عبد الجبار بعد وقت وكأنه يفكر:

- ما العمل يا ولدي؟ عليّ بأي شكل مساعدتكما في قضاء دينكما إنه حق المسلم على أخيه المسلم. إنني لو طالبتكما بدفع الدين لكان ذلك تعجيزًا لكما لذا سأضطر لأخذ الكرم، وبالنسبة للمنزل وزريبة المواشي فأنهِ الأمر مع عبد الشكور، لن نختلف يا ولدي لن نختلف.

أثنى عبد الشكور على عقل الشابين أنهما أرادا سد دينهما «من اليوم وبعدما سددتما دينكما ستمشيان في يامنة مرفوعي الرأس».

صمت الشابان ورحلا مغلوبي الخاطر حتى غابا وراء عرائش العنب الحية لا يعلمان أي قول سيقولانه لأمهما الأرملة التي فقدت الزوج ومن ثم الأرض والدار، وسيؤول بها الحال لعشة صغيرة ملحقة بالبستان لأنهما بعدما فقدا مصدر رزقيهما الوحيد سيضطران للعمل في بستانهما الذي كان سابقًا ملكًا لهما، كخدم بعدما كانا مالكين له.

وقف عبد الشكور مع عبد الجبار يتفحصان الكرم مرة أخرى:

- مبارك عليك يا حاج.

- هذا بفضل جهودكم يا عبد الشكور.

- حاج، ما بالك لو ضاعفنا أرباحك من الكرم؟

لمعت عينا عبد الجبار وهو ينتظر باقي حديث عبد الشكور.

- التجارة الذي حدثك فيها ابنك همام.

قاطعه عبد الجبار:

- الخمر، كان يريدني هذا العاق أن أتاجر في الخمر.

- اسمه نبيذ يا حاج وليس خمرًا.

- إنه عنب مخمر وكل ما هو مخمر حرام.

- يختلف الناس في تحديد الحلال والحرام يا حاج ذلك لأن فيما بينهما متشابهات. ثم إنه لو افترضنا أنه حرام فالحسنات يذهبن السيئات وها أنت منذ قليل فككت ضائقة يتيمين وسددت دينهما، وقد تبرعت بقطعة أرض من أرضك لبناء مدرسة وجامع، إنك بكل تلاوة ركعة فيه سيكون لك فيها نصيب من الحسنات.

- حرام ولن أتاجر في الحرام انتهى الكلام.

رحل عبد الجبار سريعًا ولكن عبد الشكور ظل يهرول وراءه مصممًا على إقناعه:

- يا حاج قطعت نفسي، أعطاك الله الصحة، افهمني يا سيد الجبابرة أليست البوظة شعيرًا مخمرًا يشرب على الملأ؟ لقد رأيت بأم عيني شيخ مسجدنا يتجرع البوظة في القهوة ولو كانت حرامًا لما فعل، لنقل إن النبيذ هو بوظة الأغنياء وشرابهم.

وقف عبد الجبار على فجأة:

- وهل بوظة الأغنياء تلك مكسبها وفير؟

- جدًا جدًا مكسب خالص كأنه بئر لا تنفد.

استيقظت شهوة حب المال في نفس عبد الجبار على أعقاب وصف عبد الشكور لمكسب المتاجرة في الخمور ولم يشعر عبد الجبار إلا بالرضا وحسب، ناسيًا قوله فيما سبق عن الحرام والحلال. وضع يده على كتف عبد الشكور:

- إذًا على بركة الله.. ولتقل أمامي عنها بوظة العنب ولا تقل نبيذًا إن أردت مني الموافقة على مشروع همام، وما دام شيخ جامعنا يشرب البوظة فبوظة العنب حلال هي الأخرى.

وهكذا أصبح في يامنة معصرة لعصر العنب ومن ثم تخميره كان يشرف عليها كل من العبدين جوهر وفضل، بعدما سحبهما عبد الجبار من عبد الجبار الصغير ابن جابر لحين ابتياع عبيد جدد له ولإخوته.

الكنتان بعدما انقشعت حماتهما وأصبحت الدور ملك يمينهما أصبحتا لا تفترقان، فزوجة جابر سنية التي خاصمت الدار لأعوام أمست كل يوم من الصباح وحتى العشية في الدار الكبير، وتخلت رئيسة عن مكرها وبغضها اتجاه الأخرى وراحت تستقبلها ببهجة وتودعها بوعد بزيارة أخرى، ولم يكن يحدث ذلك إلا لشيء واحد وهو ملء الفراغ الذي قد يحدثه غياب حجازة في الدار فلا يشعر عبد الجبار بالوحدة حين يكون الدار ممتلئًا من حوله بأبنائه وأحفاده، وبذلك لا يفكر في الزواج مرة أخرى ويأتي لهم بحماة أخرى تضيق عليهما الخناق وتحاسبهما حساب الملكين كما كانت تفعل حجازة.

ولغياب نعسة لم تكن تهاني تفضل الذهاب مع أمها للدار الكبير، مفضلة حبس نفسها في حجرتها جل همها كيف تفرق بين عابد وخضرا. في تلك الليلة بعدما

رجعت رئيسة من الدار الكبير توجهت لحجرة ابنتها دخلت بدون استئذان، ظلت واقفة تتفحص ابنتها وكلها حسرة وغيظ:

- ستموتين حتمًا كمتشردة على قارعة طريق فوق سريرك هذا، شهور وأنت على هذا الحال يا تهاني لقد فاض الكيل منك، شعرك المشعث وملابسك القذرة التي لا تغيرينها إلا كل حين وحين، لا تفعلين شيئًا في تلك الحياة غير الحديث لذلك الطائر المتشرد مثلك.

لم تكلف تهاني عناء النظر لوالدتها وهي تقول:

- ومن قال لك لا أفعل بل أفعل الكثير.

- وماذا تفعلين؟

- أفكر، طوال الوقت أفكر.

ضربت رئيسة كفًا بكف مقتربة من ابنتها:

- لقد جننت حقًا جننت.

وبابتسامة شامتة أكملت:

- إن كنت حزينة يا قلب أمك أن نعسة قد تزوجت قبلك ها هي قد رجعت لمنزل والدها مريضة محمولة على الأكتاف.

- لعلها حامل؟

- لا، ليست حاملًا بل مريضة. لقد قلت من قبل هذه الفتاة لا طاقة لها بالزواج. غدًا يا زهرة أبيك تذهبين لزيارتها معي. سأبعث لك خضرا الآن تحممك وتسرح شعرك.

نظرت تهاني نحو وجه رئيسة قائلة:

- لو أتيت بها لهنا سوف أقتلها.. أنا جادة.

أطلقت رئيسة شهقة عميقة ثم تركت تهاني وهي تتمتم:

- لها حق أن يخف عقلها، هل يوجد في الدنيا فتاة قاربت العشرين من العمر ولم تتزوج أي حظ هذا؟! جمال ومال وأصل رحمتك يا رب، لا بد أن القيامة قد اقتربت فانقلبت الأحوال.

بعثت رئيسة بطلب خضرا ثم ناولتها صينية نحاس متوسطة الحجم لا صغيرة ولا كبيرة، تحمل لوفة من جزع النخيل وصابونتين واحدة صفراء لتحميم الجسد مصنوعة من الجيلسرين وشمع العسل الأبيض وعجينة اللوز، وأخرى خضراء صنعت من خلاصة الصبار وزيت الزيتون وتلك لغسل الشعر بجوار الصابونتين، وضعت مشطًا مصنوعًا من خشب الأبنوس مزخرفة حوافه برسومات زهرة اللوتس المنقوشة بماء الذهب بالإضافة لمكحلة بها كحل ثمود، وبرطمانين صغيرين واحد به دهان للبشرة وهو مكون من الفازلين وعجينة المسك وزيت اللوز ومطحون ورق الياسمين والورد والفل، مخلوطين ببودرة دم غزال حمراء أعطت للدهان لونًا ورديًا، والبرطمان الآخر به خلطة زيوت الزيتون والسمسم واللوز والقرنفل وكانت تلك لدهن الشعر، وكان يؤتى بتلك الدهانات من أسوان، كان تبيعها دلالة غجرية تطوف على منازل القرية كلها غنيًا وفقيرًا فالنساء هن النساء حين يتعلق الأمر بدهان لتوريد الخدود وكحل لتحديد العيون أو زيوت عطرية وحناء.

طلبت رئيسة من خضرا أن تحضر الحمام لتهاني في حجرتها منبهة على ضرورة سكب زجاجة ماء ورد كاملة في ماء الاستحمام. دخلت خضرا شطر المطبخ حاملة الصينية، عاجلتها فرحة واحدة من الخادمات:

- ستدلل نفسها الليلة رئيسة.

- لا، ليست رئيسة بل ابنتها تهاني فغدًا في الصباح الباكر سيذهبان معًا للدار الكبير.

- منذ متى لم تخرج تهاني من حجرتها؟ يقولون أن عقلها خف مثل حسنة.

- منذ...

سهمت خضرا.

- منذ متى يا خضرا؟

ازدردت خضرا ريقها:

- منذ تلك الليلة المشؤومة صبيحة زواج نعسة لما ماتت حجازة وهربت زين.

- ما زلت تقولين أن زين هربت في حين أن الجميع يجزم بموتها غريقة.

- عقلي لا يألف فكرة أنها ماتت غريقة، ربما لو ماتت بأي طريقة لكنت صدقت لكن غريقة، كيف؟ طوال الفترة التي عاشتها هنا لم تكن لتذهب للنهر بمفردها بل كانت تبعث لي بمرسال مع أمي نتفق على موعد ونذهب. لم أر في حياتي شخصًا رجلًا أو امرأة أمهر منها في العوم، الأسبوع الماضي زارتني في المنام كانت حزينة وسعيدة معًا تبكي عيونها وثغرها باسم.

- كفي لغوك واذهبي لغسل أواني الاستحمام ريثما أسخن الماء، أم تريدين لنفسك توبيخًا وسبابًا من رئيسة؟

وضعت خضرا ماء الورد بداخل طست الماء الساخن الذي غطته بالصينية النحاس، ثم حملته فوق رأسها وذهبت تمشي مشيًا حثيثًا متجهة لحجرة تهاني، دقائق معدودة وخرجت خضرا تولول ومن ورائها تهاني حاملة السكين، وقفت الأم في وجه تهاني التي هددت بعيون جاحظة:

- ألم أقل لك إن بعثت بها إلي سأقتلها؟

رمت تهاني السكين:

- سأذهب لأحمم نفسي وإياك أن تجعليني أرى وجه تلك الساقطة مرة أخرى.

لم يكن الذي ألم بتهاني جنون إنما كان ... خيبة أمل.



بداخل المنزل الكبير، دخلت تهاني على نعسة حجرتها القديمة التي لطالما احتفظت بأسرارهما بداخل صناديقها وسكنت أحلامهما فوق وسائدها، الحجرة التي عايشت معهما تحولات مزاجهما ما بين حزن وسعادة والجدران التي سمعت شكواهما ولم يسعها الإفصاح، كانت الحجرة في ذلك الحين غارقة في عتمة سحابة الحزن الذي خيم فوقها والكآبة التي لفت بها الجدران، إنه الهم المنعكس من وجه نعسة والذي ألقى بظلاله على كل ركن من الأركان وقد أمست مرعبة، امتصت الكآبة نضارة الشباب من نعسة، لتحولها لكائن عابس نحيل وضامر. جلست تهاني بجانب نعسة التي كانت مستلقية معلقة عيناها بالسقف العالي تشخص خيالات الماضي القريب.

- هل وجدت سعادتك في الزواج يا نعسة؟ هل وجدت سلوتك فيه؟ أم ترى هربت من يديك الأمنيات جميعها بلا رجعة. كان عليك البقاء والرضى بما حكمت به على نفسك، لمَ رجعت؟ كان عليك البقاء يا ابنة العم لأنه لا مناص من قدرك الذي اخترت.. تظنين أنك لو رحلت لعدت، لا، إنه الطريق الذي لا عودة منه يا صديقة العمر.

- ليس من الواجب أن تقسي علي يا تهاني لأنني استحوذت على العريس ولم تفعلي أنت. من الوضاعة أن تأتي عندي وأنت تلبسين زي الصديقة صابغة وجهك بالوداعة بينما أنت غير قادرة على كبح مشاعر كرهك وغيرتك، يا لك من وغدة! كم أنت وضيعة!

ابتسمت تهاني بأسى وقالت:

- إنما أردت بكلامي إيقافك عند حدود الحقيقة لتكوني شاهدة على نفسك وليس كما تظنين أنني جئتك شامتة. عليك أن تشفقي على نفسك من نفسك يا نعسة فمنذ أن بدأنا رحلة العمر ونحن لم نفترق ورغم ذلك تطعنين في صدق صداقتي لك. ماذا تسمين هذا.. خيانة للعهد مثلاً؟ خذي نصيحتي واطلبي الطلاق إن كنت تعيسة ولا تحملي نفسك عمرًا من الأسى، أنا أحبك يا نعسة ولا أريد لك إلا الخير.

- أنا في غنى عن كلامك لأنني لم آتِ لأعود فأنا لن أرجع أبدًا وسأظل أنا الفائزة ما دمت قد حصلت على العريس، وتلك هي الحقيقة التي علينا نحن الاثنتين الوقوف عند حدودها، موتي بغيظك واخرجي يا تهاني من عندي ولا ترجعي لتتحدثي معي مرة أخرى فأنا أكرهك.

كل يوم كان يمضي في دار عويس كانت نعسة فيه تزداد خيبة أمل في زوجها عن اليوم السابق. لم يكن فاروق هو نفسه الشاب الذي راود خيالها في يقظتها أو منامها، كان شابًا أبهق على غير إخوته ووالديه بشعر أصفر باهت يميل للأبيض بلا رموش أو حواجب، وردي البشرة ضعيف البنية قصير القامة، انقبض قلب نعسة أول ما رأته عينها وخافت أن يقترب منها فابتعدت حتى التصقت بعمود السرير النحاسي لا تستطيع منع دموعها، كلما اقترب تبتعد هي أكثر، شعر فاروق أنها ربما تكون تقززت من شكله ونفرت منه وكان هذا الأمر مسببًا حساسية له.

غرابة ملامح فاروق تسببت له بعقدة في حياته لطالما أزعجته وأشعرته بالنقص فأحدث ذلك قسوة في القلب وغلظة في الطبع في فترة طفولته، ولكي يخاف الأطفال التجرؤ عليه ومناوشته بالسخرية والازدراء كان يصطاد القطط الصغيرة يعذبها أمامهم ثم يقتلها. كبرت القسوة بداخله مع العمر فعرف عنه سوء معاملته للخدم والعمال والتفنن في تعذيبهم.

لما شعر فاروق النفور من نعسة اتجاهه سارع بالتقاط سوطه آتيًا به على ظهرها، وكانت الحماة لا تقل غلظة عن ابنها إذ إنه لما علا صوت نعسة بالصراخ مستنجدة همت أخوات العريس البنات وزوجات الإخوان لنجدتها، لكن الحماة وقفت أمامهن فاردة ذراعيها وقالت «دعوه يؤدبها». في الصباح دخلت غالية حماة نعسة حجرتها فوجدت نعسة ملقاة على الأرض عارية لا ينطق فيها لسان ولا يرمش فيها رمش، تنزف من كل جزء من جسدها تسيل الدماء من أنفها وفمها وصدرها وبين فخذيها وآثار السوط قد طبعت فوق كتفيها وبطنها وساقيها. لم تتوقع الأم أنه مهما وصلت قسوة ابنها أن تصل به لهذه الدرجة من الوحشية فصرخت على

التو «يا ربي!» راحت بعدها تحرك نعسة تقلبها ذات اليمين وذات الشمال، ولولا أن قلبها كان يخفق وتحققها من أنها على قيد الحياة لجزمت بموتها.

لم تكن خيبة نعسة مفردة بل كانت مزدوجة في زوجها وأهل زوجها معًا، وكان آل عويس معروفين ببخلهم على غير باقي دور الجبابرة وخاصة دار عبد الجبار الذي نشأت فيه نعسة، والذي لم يخلُ من الولائم والذبائح. كانوا في دار عويس لا يقيدون على قدر إلا مرة في الأسبوع أو مرتين وفي النادر ما كانوا يقيمون الولائم، حتى إن الطعام الذي كانت تأتي به سنية أم نعسة كانت أم فاروق تحجزه ولا تخرج منه إلا أقل القليل، لدرجة أن معظمه عطب ولما بدأت بوادر العفن تنمو فوق الطعام أفرجت عنه موزعة إياه على أهل الدار. وحتى يقللوا من عدد الخدم في الدار كانت النساء هن المتوليات شئون الخبيز والطبخ والغسيل إلى غير ذلك من طحن الحبوب وإطعام الطيور وتربية الأطفال، ولما كانت صحة نعسة على غير ما يرام بجانب سوء حالتها النفسية لم تقدر على التحمل فانهارت مغمى عليها.



كانت العائلة كلها مجتمعة لا تزال متواجدة في منزل الأخ الكبير منزل جابر، في ذلك اليوم ظلت تهاني النهار كله برفقة الصغار أبناء ولدي عمها بعد رفض نعسة التحدث إليها وملاقاتها. لم يكن في نفس تهاني طاقة لصياحهم وشجارهم مع بعضهم البعض ولم يكن التذمر واجبًا في منزل جدها في الوقت الذي من المفترض أن يكونوا في حداد على جدتها. فاضطرت تهاني لجمع الأطفال حولها تلاعبهم لعبة أن يصمتوا جميعًا ومن سيتحدث أولًا ستتلو عليه تعويذة ستسخطه لحمار، اعتصم الأطفال بالصمت مكممين أفواههم بأيديهم يتغامزون بوجوههم ويتناوشون بأرجلهم، لم تمض ربع ساعة حتى مرت سنية زوجة جابر تستفسر عن سبب صمتهم المريب بعدها صاحوا جميعًا في نفس واحد «جدتنا سنية ستسخط لحمار». علت ضوضاؤهم بالضحك وسط صراخ سنية فيهم فلم تطق تهاني الوضع فخرجت سريعًا هاربة.

رغم أنه كان منتصف الربيع ومن المفترض أن يكون الجو معتدلاً فإن الأصيل في ذلك اليوم سحب معه سحبًا مثقلة داكنة ورياح متربة، الجو كان رطبًا وباردًا لكن تهاني فضلت البقاء في الخارج تقلب بعينيها الباحة المكشوفة من الدوار، لم تجد شيئًا جديدًا يستدعي التأمل حتى وصلت بعينها لأقصى اليمين من الدوار، حيث كان يجلس عابد فوق فلقة نخل مستلقية بجانب السور، اتجهت نحوه وكان هو شاردًا في العد على يديه.

- ماذا تعد يا عابد؟

عرف صوتها فاضطربت أصابعه وارتعشت مقلتا عينيه وبدون أن يلتفت قال:

- أحسب أيام القمر لأحسب كم مضى على وجودي في يامنة.

- القمر؟

- وهل لا تعرفينه؟

- بلى أعرفه وهل يجهل الشخص نفسه؟

ضحك عابد نصف ضحكة:

- تشبهين نفسك بالقمر؟! إذًا لايوجد من يضاهي جمالك أحد، أليس كذلك؟

- بلى يوجد، الشخص الذي ينظر صوب وجهي بالمرآة.

صمت عابد ولم يحاول فتح باب نقاش مع تهاني لكنها قاطعت صمته:

- رحلت أختك ألا تود أن تتبعها؟

تأفف عابد ضجرًا:

- السماء بدأت تندي يجدر بك الدخول للدار.

- لن أذهب قبل أن تجيبني.

التفت نحوها، لم تكن تلك تهاني التي اعتاد وجهها، أين ذهبت الحياة ومن أين أتى وجهها بشحوب الموتى هذا؟ رق لحالها مسرًا في نفسه «لعلها مريضة». لانت نبرة صوته وهو يسألها:

- ماذا تريدين أنت بالرحيل يا تهاني؟ تعيشين في قصر لا تنقصك سعادة أو يعوزك جاه أو زاد؟ -أشاح بيده- اذهبي قبل أن يزداد مرضك.

- لا أريد العيش في بلد ظالم.

- جميع البلاد فيها ظلم حتى البلاد البعيدة والمنعزلة التي تسكن وراء الجبال والبحار والتي يسكنها بشر غيرنا لهم ألسنة غريبة وأشكال مختلفة، تلك البلاد فيها أيضًا ظلم. لا يوجد عدل صافٍ يا تهاني خالٍ من أي شائبة إلا في القبور. ثم إن قلبي معلق بيامنة فكيف لي أن أتركها؟ إنه أمر ليس بيدي.

ازدادت زخات المطر متحولة من قطرات متباعدة لخيوط متصلة مع هبات رياح باردة كانت تغاير اتجاهها معها، ترك عابد تهاني وخرج نهائيًا من الدوار غير مولٍ وجهه ناحيتها مرة أخرى.

انسحبت تهاني جالسة في نفس البقعة الواقفة فيها فوق الأرض الموحلة تفكر فيما تكشف لها من عدم نية عابد بالرحيل مثل أخته، وأنه يفضل العبودية ما دام قلبه مملوكًا بخضرا، ثم استقر بها التفكير لفكرة شيطانية ونية سيئة زفها لعقلها قلبها الموتور.

خرجت رئيسة تبحث عن ابنتها فوجدتها جالسة في الطلل فوق الأرض الطينية المنخفضة التي تجمعت المياه فيها فصنعت بركة صغيرة، توسطتها تهاني متربعة تستقبل المطر الذي تسارع رتم انسيابه بلا مبالاة منها، وكانت السماء بدأت ترعد وتهدر، يبرق البرق فوق المنزل فيتفرع لأربعة أفرع يشبهون خطاطيف صاعقة تتدلى لتمسك بجوانب المنزل الأربعة، فقد المنزل أضواءه فجأة، لا بصيص ولو لنور شعلة فتيل مغموس في الزيت يشع، حل ظلام كظلمة القبر كل الأصوات خرست فلا

صوت إلا صوت المطر والرعد ونعيق بومة حطت فوق سطح المنزل. وقفت رئيسة بجوار تهاني تستحثها الدخول إلى المنزل:

- ادخلي معي يا تهاني، سيقتلك البرد، يا إلهي كيف انطفأت الأنوار كلها مرة واحدة؟ لم أشاهد في حياتي وحشة كتلك.

في شرود أجابت تهاني:

- لا ظلم في القبور.. ولا ظلام في قبور المظلومين، وحدهم الظالمون يرون الظلام.

حاولت رئيسة أن تحملها لكنها لم تستطع وانزلقت قدماها في الطين، كلما حاولت النهوض مرة أخرى اختل توازنها وسقطت في الوحل لتنغرس أكثر في الطين، بدأ يتصاعد بداخل رئيسة شعور بالخوف وصارت ترتعش لما حاق بها من ضروب مخوفات، فالطين أمسى ثقيلًا ودبقًا وهي لا تستطيع السيطرة على ساقيها فيه. صاحت في وجه تهاني أن تنقذها وهي مرتاعة حد الموت لكن تهاني لم تتطرف ناحيتها.

- أدركيني يا تهاني إنني أنغرس بداخل الطين.

- إنها لعنة الخبز الأسود، خبز الظلم والقسوة الذي استحله الجبابرة، وخبز الفلاحين والعمال الملون بسواد القهر والحاجة والذل والوجوه المدبوغة بالشقاء، إنها اللعنة ولن ينجو منها أحد، ليس الطين هو من يسحبك بل تلك أرواح العبيد القانطة أسفل أرض يامنة.

كانت رئيسة راكعة على ركبتيها تبكي وتصرخ مستنجدة وسط رحم الظلام السرمدي وقد بدا لها الظلام كفنًا يلفها، بدأت الرياح تشتد، نوافذ نزل الخدم المجاور لهما كانت تلطمها الرياح فترتطم بعضها ببعض محدثة صفيقًا مدويًا، وقد صدقت رئيسة حديث ابنتها فجحظت عيونها وقد شخصت خيالًا عبارة عن جسد جسمه الطين يخرج من بين يديها فتمتم لسانها «أيتها الأرواح باسم ربك ارحلي عليك السلام، يا أسيادي ارحموا ذلي». ساح في الجو صوت رئيسة غير مسموع

من شدة ما كانت تهدر السماء أكثر وأكثر وتصفق النوافذ وينهل المطر، وكانت تهاني لا تزال تهذي «لعنة الخبز الأسود لن ينجو منها أحد.. لا ظلم بعد الموت.. ولا ظلام في قبور المظلومين». تصاعد القلق بداخل رئيسة دون انقطاع وقد تأكدت أنها ستغرق في الطين لا محالة، وأن أرواح العبيد سوف تنتقم منها بلا شك فسكن صوتها واستسلمت.

كان بشير يمشي في الفناء حاملًا فانوسًا وقد خيل له أنه سمع أصواتًا تشبه الاستغاثة، انعكس النور على تهاني ورئيسة فلمحهما بشير وركض ناحيتهما، رمقته رئيسة التي هتفت عليه بصوت مبحوح متوتر وهي تمد يدها «بشير.. بشير انقذني إن الأرواح تسحبني». أمسك بشير برسغ رئيسة يساعدها في النهوض، وما إن أدركت أن قلبها لا يزال ينبض ورئتيها تعملان فرت هاربة مخلفة ابنتها تحت ماء المطر، في اندهاش من بشير الذي التفت ناحية البقعة التي كانت تجثو فوقها رئيسة مشدوهًا فوجدها بقعة طينية ليس أكثر، غرس فيها عصاه فلم تغُص لأكثر من بضعة سنتيمترات، ولما رق السمع وجد أن الأصوات التي كان يسمعها اختفت وتلاشت فقال في نفسه «لعله كان صفير الرياح».

دثر بشير تهاني بعباءته وحاول أن يسحبها من الماء لكنها رفضت، ظل بشير واقفًا أمام تهاني لا يملك مردًا إلا مراقبتها، ود لو استطاع خطفها لكن لكل فعل حينه، فقرفص أمامها:

- ما بك يا تهاني؟

- حزينة يا بشير، حزينة بالدرجة التي تجبرني على البوح بحزني لكلب مثلك، حزينة مثل طفل نام متعلقًا برقبة أمه ثم استيقظ واجدًا نفسه يتيمًا، حزينة مثل طائر قصقصوا جناحيه ثم فتحوا له باب القفص ومثل سمكة موضوعة في حوض ذهبوا بها لنزهة إلى البحر ثم رجعوا بها.

- أعلم أن من يكون حزينًا تدمع عيونه وأنت لا تبكين؟

- قلبك إذًا لم يذق الحزن من قبل يا بشير.

- عرفته مرة واحدة في حياتي، كنت صغيرًا جدًا لدرجة لا أستطيع فيها إدراك معنى الحزن لكنني عرفت أن ذلك كان هو الحزن بعدما كبرت، كان عمري آنذاك ربما ثماني سنوات، كنت ألعب مع الصبية خارج الدار وقت ما جاءوا بوالدي محمولًا وقالوا لدغه ثعبان، ليلتها وبعد أن فاضت روحه أيقظتني أمي.. صفعتني مرتين على وجهي ولما بكيت زادتهم مرتين وقالت «من اليوم عليك أن تعتاد صفعات الدنيا والبشر فقد مات أبوك». ومن بعدها لم أذق لا طعم الألم رغم صفعات الزمن ولا الحزن رغم الأسى.

دخل فضل جهمًا غاضبًا على باقي العبيد في الحجرة المخصصة لهم بداخل دار عبد الجبار فبادره جوهر:

- هل تعرض لك أحد؟

- لا، لكن بشيرًا. يا شوم ما اخترناه قائدًا لنا!

قال قمصان:

- تكلم ولا تطل الألغاز يا جوهر.

- لقد رأيته عرضًا جالسًا بجوار تهاني ابنة عبد الجبار في باحة المنزل المكشوفة يتهامسان، إننا يا سادة لسنا في ظروف تسمح لنا بالعشق والهيام في الوقت الذي نجاهد فيه لتأسيس ثقة من ناحيتنا في نفوس الجبابرة، توزعنا سلطة في يامنة من جهة ومن جهة أخرى تهبنا مقدارًا من الحرية للتخطيط لما عزمنا وتعاهدنا عليه، أليس ذلك هو اتفاقنا؟ إن انشغل قائدنا وزعيمنا قلبه وعقله بامرأة فسوف نتوانى جميعًا في تحقيق غايتنا، ولو فرضنا أن اكتشف واحد من الجبابرة ما خالج صدر بشير فإننا لن ننجو من براثن انتقام الجبابرة، ولا أحد يعلم ماذا سيحل بنا فلربما ينزلوننا منازل العبيد والخدم من بعد العز والسيادة.

لم يعجب الكلام قمصان فعقب:

- كنت أول المعترضين على بشير يا فضل، كلامك ليس إلا علامة على حقدك وبغضك له والذي هو أقوى من تلك الأقاويل التي لا شأن لها بأهدافنا. إن بشيرًا حكيم وعاقل وليس من نوعية هؤلاء الرجال الذين تحركهم أهواؤهم، ثم ما أدراك فربما تهاني هي طريق آخر لمبتغانا؟

بتهكم رد عليه فضل:

- كما رئيسة أليس كذلك؟ والله إني لا أجد أننا طلنا من يامنة سوى بأم وابنتها، هل ذلك هو مبتغانا اللهث خلف النساء أي حقارة تلك؟

هب قمصان من مكانه ممسكًا بياقة فضل، دافع عن فضل جوهر وخبير ودعم مرشد ومرسال موقف قمصان، أما ريحان فقد وقف حائرًا ولما علا صوت العبيد بالشجار، ما كان من ريحان إلا أن تراجع مرتبكًا وركض سريعًا لتبليغ بشير بما يحدث كي يجد حلًا في كبح جماح المتنازعين.

همس ريحان في أذن بشير بأخبار النزاع بين عبيد الأسياد وعلى ذلك غضب بشير واستبد به الغيظ فهرول على الفور كي يلحق بالعبيد قبل أن يأكل بعضهم بعضًا. دفع بشير باب الحجرة بكلتا يديه ومن ثم أحكم إغلاقه.. ظل بشير واقفًا في مكانه عند مدخل الحجرة الآخذ شكل مقصورة نحو الدقيقتين يتفرس الموقف والغيظ الشره على وجهه، بدون أن ينتبه له أحد من رفاقه الذين كانوا لا يزالون في خضم النزاع وهوجته. تقدم بشير ثم هوى بعصاه في وجه الكل وبغيظ محموم، في لحظتها سكت الكل وثبت في مكانه مكتومًا، قال بشير «هل تريد يا فضل أن تكون القائد؟» وقبل أن يجيب استطرد قائلًا «قبل مجيئي كانت النيران تشتعل بينك وبين رفاقك، هل استطعت أن تخمدها وكنتم على وشك فض سرنا؟ لا، لم تستطع بل كنت كالزيت فوق النار حتى حضرت أنا فكنت كالماء التي أخمدت النار، هذا هو الفرق بيني وبينك يا فضل أنا أجمع بينما أنت تفرق، كيف أنك فاشل يا فضل!».

رغم شتات قلوبهم فإن عبيد الأسياد كانوا على وفاق مبدأه الغاية المنشودة التي جنح طموحهم إليها منذ أن جمعتهم الحجرة المظلمة المسلسلين بداخلها في دوار عبد الجبار، شهد عابد على الاتفاق لكنه رفض ما تعاهدوا عليه وهو الخيانة وانتحى عنهم مكانًا قصيًا، وكانت معاهدتهم تنص على خيانة كل من آمنهم من أهل يامنة وسرقة كل ما تطوله أيديهم ويرميه موج الحظ أسفل أقدامهم، حتى آلت الأقدار بهم لتلك المكانة عند أسيادهم عندئذ تضاعفت أطماعهم فأصبح عندهم طموح وهدف يعملون عليه ويخططون بكل الطرق له، وكانت غايتهم المنشودة هي.. يامنة.



-١٣-

ما بين السكر وغياب الوعي كان همام غارقًا حتى شحمتي أذنيه. العصارة تعصر وفضل يخمر وقمصان يسقي سيده. لم يكن همام يميز الليل من النهار ولا اليقظة من النوم تخاله مستيقظًا وهو نائم وتخاله نائمًا وهو مستيقظ. ما عاد همام يحضر جلسات الرجال ومآدبهم ولا يهتم بالمعصرة التي أنشئت خصيصًا له وحارب من أجلها. نزع همام إلى الوحدة والكآبة يدس في عقله قمصان حقدًا وبغضًا ضد أخيه جابر يؤلب عليه الماضي والحاضر والمستقبل كل ليلة، يسامره ويضاحكه ثم يبكيه.

يضحكه بقول النكات والأحاجي ثم يبكيه بتحريك مشاعر التوق لولد يحمل اسمه ويرث إرثه، تتعاقب الليالي جهماء وتتوالى الأيام قفرًا، يسأل نفسه ثم يجيبها فلا يد ستأخذ بيده في عجزه ولا كف سيرفع للدعاء له بعد موته، الفتاة.. من قال أنها ابنة أبيها حتى وإن كانت من صلبه هي في النهاية ابنة زوجها وابنة ابنها، الأفكار ما انفكت تقلب همامًا على الجنبين أسفل جمر متقد وإحساس بالنقص يداهمه.

ذات ليلة حدث من همام ما لم يكن متوقعًا لا بالنسبة لقمصان أو لرئيسة فقد تجاوز فعله خيال الاثنين وفاقه، بكت حينها رئيسة وقالت «حتى الشياطين لا تقوم بفعل ذلك». وغضب العبد قمصان من سيده همام ولم يك قادرًا على مواجهة وجهه في اليوم التالي.

ليلتها أمسك همام بيد قمصان ساحبًا إياه لحجرة نوم زوجته ثم زجه لفراشها وقال «ائتني بولد منها». رفض ورفضت لكن إبليس أخضعهما إذ وجد من الميل والتوق بين الاثنين طاقة مشرعة للذة فاكهة غير مشروعة التقطا منها غير

آبهين لحرام أو أذى، ما دام الزوج والسيد قد صرح فما المانع أن يغض الطرف ضميراهما وتهنأ نزواتهما، نزوة العبد للحم الأسياد أن يتذوق ما قد تذوقه سيده ونزوة الزوجة لرجل يجعلها تظن أنها لا تزال مرغوبًا فيها كأنثى. خانت الزوجة وخان العبد ورضي الزوج.

حتى الشياطين لا تقوم بفعل ذلك.

وهل الشيطان اكتفى؟

لا لم يكتفِ..



مرضت تهاني مرضًا شديدًا ألزمها الفراش منذ تلك الليلة التي قضتها أسفل المطر، أصابتها قشعريرة شديدة ومن ثم حمى أرقدتها في الفراش، استدعت رئيسة غنية، وغنية امرأة متعددة المواهب تلقب بالحكيمة تعمل عطارة تبيع صنوفًا منها نادرة وغريبة، معروفة بكونها معالجة بالرقى والوصفات ولها مهنة أخرى في نفس الوقت بجانب مهنة العطارة، فهي قابلة تولد النساء والحيوانات على حد سواء. حين بعثت لها رئيسة أسرعت على وجه السرعة فهي تعلم العطايا التي ستعم عليها بعد شفاء تهاني مثلما حصل العام السابق والذي قبله وقبله.

خاطبتها رئيسة:

- سيدتك تهاني مريضة يا غنية وهذه المرة ليست ككل مرة فلم تنفع معها وصفاتك.

- هل لزقت حول أذنيها عجينة القمح وسقيتها ورق الجوافة والكافور ومسدت جسدها بزيت الحنظل؟

- نعم ومسحت رأسها بالخل والبصل لكن المرض يزداد، تتنفس بصعوبة شديدة لدرجة أن وجهها يزرق تتخطف روحي وأقول ستموت وحيدتي، ثوانٍ وتنتظم أنفاسها فأطمئن ويهدأ قلبي وأقول لن تحدث لها تلك النوبة ثانية لكنها تباغتها مرة أخرى.

صمتت غنية قليلًا ثم قالت «ابنتك محسودة ولن يجدي معها نفعًا سوى الرقية، بالأمس قدر لي أن رقيت بقرة وشفيت بإذن خالقها وفي الصباح كان خوارها يصدح في الجوار كله». تهلل وجه رئيسة «إذًا أريني عجائبك في تهاني ولك عندي كسوة عامين لا بل ثلاثة أعوام».

اقتربت غنية من تهاني، تعوذت وقرأت آيات من القرآن لم تجِد قراءتها فتلعثمت فيها وأخطأت ثم تمتمت ببعض من التعاويذ والرقى بعدها بصقت على اليمين وعلى الشمال، أخرجت من جيبها صرة قماش صغيرة وطلبت تحضير فحم متقد بداخل مبخرة. ما إن وضعت غنية ما باللفة في المبخرة ونفثت فيها حتى تصاعد دخان أسود كثيف سرعان ما اختلط بهواء الغرفة مشكلًا سحابة رمادية داكنة. قلقت رئيسة إذ كانت الرائحة نفاذة وغريبة تشبه رائحة الشعر الشائط:

- هل أنت واثقه يا غنية من وصفتك هذه؟

- اصمتي يا ست رئيسة دعي البخور يأخذ طريقه لجسد تهاني ويقتل كل جرثومة أودعتها بداخله عيون الحاسدين.

صمتت رئيسة دقائق لكنها ما صبرت:

- تهاني لا تنطق يا غنية وقد بدأ وجهها يزرق.

- ألم تقولي أن وجهها يزرق ثم ما تلبث أن تعود لطبيعتها؟ اصبري.

مرت دقيقتان، بعدها صرخت رئيسة حين رأت الريم الأبيض يخرج من فمها:

- تهاني تموت، لقد قتلتِها يا غنية، قتلت ابنتي.

ظلت رئيسة تحرك جسد تهاني وتقلبه كقطعة قماش في يدها، في ذلك الحين أدركت غنية أن تهاني بالفعل تموت لذا تراجعت للخلف، لكن رئيسة التفتت نحوها ممسكة بتلابيبها وهي تستدعي الخدم. دخل همام وخليل هو وزوجته وابنته خضرا، أمسكت عوالي بغنية وحمل همام تهاني مخرجًا إياها من الحجرة ومن ثم الدار كله، أراحها فوق العشب ثم أمسك بشاله وراح يهوي بارتباك أمام وجهها لعلها تفيق، أثناء ما كانت رئيسة تولول وتصرخ نهرها همام «اصمتي يا امرأة هل تستدعين ملك الموت لابنتك؟ لا يزال فيها النبض». لما طالت غيبوبة تهاني طلب همام من قمصان الذهاب لدوار عبد الجبار وأخذ خليل معه للذهاب للبندر والرجوع بالطبيب.

لم تمض ثلث ساعة وأتى قمصان يركض. كانت تهاني كما هي لم تتحسن حالتها لا يتحرك فيها سوى خافقها. قال قمصان وهو يلهث:

- الحاج عبد الجبار جعل خليلًا يذهب لإحضار الطبيب ومعه سيدي جابر ويطلب منك أن تأتي وست تهاني للدار الكبير وشدد في ذلك الأمر، وقال لي أن أقول لك إنه أكرم لتهاني أن تموت في دار جدها وأن تشيع منه لذا عليك إحضارها للمنزل الكبير منزل العائلة.

في الدار الكبير هرج ومرج الخدم يروحون ويجيئون وقد أرسلوا لطلب حكيم لكنه لم يأت إلى الآن، وكان حاضرًا إمام المسجد والمغسلة وقد تم فتح القاعة الكبيرة التي لا تفتح إلا في مناسبتين اثنتين إما عرس أو موت، كما طلب من الخدم والعمال جميعًا أن يتجمعوا في باحة دوار الحاج عبد الجبار وكان من ضمنهم عابد.

مال عابد على عيد وهمس «هل مات أحد من الجبابرة؟»

- لا أعلم ولا أحد من العمال يعلم، لكن السر معلوم عند خدم الدار بالداخل.

- أليست أمك من خدم الدار؟

- بلى وإني لمتأكد أنها تعلم ما الخطب لكن كيف لي الوصول إليها؟ ألا ترى الغفر وعبيد الأسياد كيف أنهم واقفون أمام الأبواب مثل الديدبان، ألم تر زيدان؟

- لا لم ألمحه.

- أراهن على أنه يعلم ما يحدث وما الخطب، لولا أني رأيت الحاج عبد الجبار منذ قليل أمامي لقت إنه المقصود وإنه المتوفي، أغلب الظن أنه واحد من عبيد الأسياد، ولمَ لا؟ فلقد نزلوا منزلة أسيادهم في الحياة.



لما أرسلوا لفتحية أم زيدان من دار عبد الجبار قالت لها الخادمة المرسلة إليها أن تهاني ماتت وكانت قد خرجت إشاعة أن تهاني قد ماتت بالفعل، وصودف أن زيدان كان بالدار ساعتها. استقبل زيدان الخبر بصمت لا حيلة له أمام الصدمة التي عصفت بقلبه فبدا له للوهلة الأولى أنها خدعة، لكن لا، لا يمكن أن تكون خدعة فتلك الأمور لا تحتمل الخداع إنه الموت فمن تراه يجرؤ على التلاعب بالموت؟ بدأ يزاوله شعور بالبرودة وهبوط حاد ما لبث أن تحول إلى سخونة شديدة غلت على إثرها دماؤه في العروق لحظة ما علا صوته يشق الحجر «تهاااااني» وهرع هاربًا، أمسكت به أمه لكنه أفلت منها قائلًا «دعيني أودعها، أرى وجهها لآخر مرة ولا يهمني إن قتلني السيد بعدها».

ركض زيدان الذي لطالما اعتصم بحب تهاني ضد ظلم سادته، عطفها عليه وبشاشة وجهها، لسانها الحاد أحيانًا وأكثر الأحيان المواسي والمهون، إن لا أحد يعرف مقدار حب تهاني في فؤاد زيدان كما أنه لا إنسان في هذا العالم كله أحبها قدر ما أحبها هو.

دخل زيدان منزل همام وعند صدارة المنزل وقف أمامه قمصان وريحان مانعينه الاستمرار زاجينه للخارج وهو يصرخ بعزم صوته «أختي، إنهم لا يريدون مني توديع أختي يا حاج همام قل لهم إن تهاني أختي، يا ست تهاني حرام عليهم أن لا يودع الأخ أخته».

بالفعل كانت تهاني أخت زيدان! أخته في الرضاعة. لما وضعت رئيسة تهاني منذ تسعة عشر عامًا لم تستطع إرضاعها وذلك لأنها أصيبت فور ولادتها بحمى نفاس جففت اللبن في صدرها، وقد رفضت سنية إرضاع تهاني متعللة بأن نعسة ابنتها والتي ولدت في نفس اليوم رضيعة ضعيفة تشبه الخدج وأنها لو لم تهتم بها لربما تموت.

ولم يكن من همام إلا أن يبحث عن مرضعة لابنته ووقع اختياره على فتحية أم زيدان وكان عمر زيدان وقتها عامًا واحدًا، أخذت فتحية تهاني وربتها لمدة عامين مع زيدان وباقي أبنائها ولما أتمت العامين استرجعت رئيسة تهاني.

لم تكن تهاني تعرف في سنوات طفولتها الأولى أمًا لها سوى فتحية تناديها بأمي مما استثار ذلك غيرة رئيسة التي ما شفعت الأمومة في قلبها اتجاه ابنتها، فعند أول زيارة لفتحية لمنزل عبد الجبار بعد إرسال تهاني لحضن أمها حيث كان جابر وهمام يقطنان في نفس الدار الكبير، أشارت تهاني على فتحية تناديها بأمي، فسخرت منها سنية مما أشعل الحقد في قلب رئيسة التي أذهبت قسوتها عقلها فما فعلت إلا أن سخنت سيخًا لسعت به كتف صغيرتها.

ورغم ذلك لم تتأثر علاقة الأمومة بين فتحية وتهاني ولا الإخوة بينها وبين زيدان، بل استمرت على وتيرتها منذ كانت طفلة تهرب من منزل والدها لتلعب مع زيدان بالطين والقش وأعواد البوص وترجع للمنزل متسخة فتضربها أمها، صحيح أن العقاب لم يكن يخيفها أو يهمها من الأساس فلتعاقبها ما شاءت وكيفما شاءت لكن ما لم تعد حسابه هو أن يعاقب أحباء قلبها من كانت تلعب معهم من أطفال يامنة، لما أصبحت تهاني في عمر العشر سنوات وحين وجدت رئيسة أنها بطول السنوات الماضية ومع كل صنوف العقاب لم تستطع ردع ابنتها عن التردد على منازل الفقراء والتعلق بأطفالهم، أوكلت أمرها لوالدها الذي أقر قراره الرادع «تهاني لن تخرج من المنزل ثانية وإن فعلت، فسوف يذبح زيدان مثل ذبح العجول والخراف».

قال الأب سيذبح زيدان ولم يقل سيذبحها بما أنها لا تخاف على نفسها ولا يجدي العقاب مع عنادها، لقد فهم همام شيئًا عن طبيعة ابنته تهاني التي يسكنها الخوف على أقرانها من أبناء الفلاحين ويشغل بالها حالهم، قال لرئيسة يومها «هذه الفتاة اختلط دمها بلبن الفقراء والمقهورين وهي تميل إليهم، الفلاحين والخدم، لأن فيها شيئًا منهم». ولعل ميل تهاني لعابد كان لهذا السبب.

ومع ذلك فإن تهاني لم تنزل عند رغبة والديها ولم تقطع علاقتها كليًا بعائلة زيدان وباقي عائلات يامنة الفقراء منهم والمستضعفين، تحتويهم وتدنيهم منها وحين كانت تمرض فتحية كانت تزورها، ما إن تراها أم زيدان حتى تهم بالنهوض واستقبالها لكن تهاني كانت تسندها بيدها قائلة «ارتاحي يا أمي واضطجعي إلى جانبي». تستغرب المرأة الكلمة «أمي» فتقول لها تهاني «إن كنت نسيت أنك أمي فذلك الحرق في كتفي كفيل بتذكيرك». ثم تكشف تهاني عن كتفها لفتحية التي تتسرب الدموع من عينيها فتضم عليها جفونها قائلة «فديتك يا ابنتي بعمري».

خرج همام على صوت زيدان:

- اصمت يا كلب وإياك أن تقول أختي مرة ثانية.

- أريد توديع ستي تهاني يا سيدي قبل دفنتها أقبل قدميك أن تسمح لي برؤيتها.

ثم ألقى زيدان بنفسه أسفل قدمي همام ليقبلها.

- قم يا ولد، وهل ماتت ستك تهاني لتودعها، خذه يا قمصان لخارج الدار.

جر قمصان زيدان حتى وصل به لأعتاب الدار ثم رماه بكل عزمه ليتدحرج بعدها زيدان على الأرض دورتين كاملتين ثم أغلق قمصان الباب بالمزلاق. نهض زيدان ينفض الغبار من على جلبابه وهو يردد «لا يهم إن غبرت أو حتى أهالوا فوقي التراب ما دامت أختي وستي تهاني على قيد الحياة». رفع زيدان رأسه متجهًا ببصره نحو السماء تنقب عيونه عن نافذة فيها وقال بعيون أغرقها الدمع فطمس معالمها «يا رب إن تهاني إنسانة تقترب لأن تكون شيطانة عن إنسية يعوزها الكثير

من التقويم والإيمان حتى إن ارتقت إليك كانت نقية خالصة مستعدة لحسابك، وأعلم يا ربي أنك سوف تطلبني في الآخرة شاهدًا على حماقاتها كما ستطلبني للشهادة على حسناتها المكفرة عن جميع زلاتها، فكم كذبت واحتالت وواعدت الشباب بالمحبة والغرام حتى إن فيهم من ترك زوجة أو خطيبة، حمقاء يا ربي سامحها فلا أحسب أحدًا في طيبتها وعطفها وإنسانيتها».

انخفض زيدان برأسه، صمت قليلًا ثم استجمع قوته مرة أخرى مكملًا «إن الفضيلة فيها غلبت الرذيلة، فاشفها يا رب، اشفها يا رب».

أثناء ما كان زيدان يدعو لتهاني خرج بها همام يحملها فوق ذراعيه ومن ورائه رئيسة وفتحية وعوالي، ثم وضعها بداخل العربة وانطلقت الخيول يركض خلفهم زيدان، وصلت العربة لمنزل الحاج عبد الجبار، دخل همام بتهاني ثم أغلق الباب في وجه زيدان مرة أخرى. لم يجد زيدان بدًا سوى البحث عن صاحبيه والجلوس بجوارهما. سأله عابد:

- ما الخطب؟

فأجاب وكأن فوق لسانه ثقل بحروف متقطعة:

- ستي تهاني مريضة، مرض موت.

دارت الدنيا بعابد. هل عزت عليه؟ هل تفاجأ؟ أم أن كلمة الموت نفسها هي التي صدمته، مرض والده فمات ومرضت والدته فماتت فارتبط المرض في عقله بالموت، وهو لا يخشى في الدنيا شيئًا سوى الموت فالكلمة تجعل الأرض تدور من تحته ويدوخ معها رأسه. قام عابد منتحيًا جانبًا أسفل حائط وراح يستفرغ ما في معدته من بواقي طعام الإفطار التي لم تهضم بعد. ذهب إليه عيد، جعل ذراعه حول كتفه ساندًا جذعه وراح به لمجلسهم مع الخدم «من الجائز أنك أصبت بضربة شمس».

جلس عابد تتصاعد أنفاسه وتنخفض:

- قل لي يا عيد هل تعرف قصة آدم وحواء؟

- نعم سمعتها مرة من عازف الربابة.

- هل أمنا حواء كانت شريرة؟

- غواها الشيطان فغوت أبانا آدم ثم هبطنا للأرض نزاحم بعضنا بعضًا.

- هي شريرة إذًا؟

- أظنها كانت شريرة لحظتها لكن ليس لي علم بقبلها أو بعدها.

- هذا يعني أنها كانت آثمة وليست شريرة.

- وما الفرق يا عابد بين الشر والإثم؟

- الشر طبع كائن متأصل لكن الإثم فلا. قد يرتكب الصالح إثمًا ثم يتوب وقد يرتكب إثمًا ثانيًا وثالثًا ولا يكون أيضًا شريرًا، لم تكن أمنا حواء شريرة وتهاني أيضًا ليست شريرة أليس كذلك؟

- لا أعرف، ربما، وهل دخلت أنا قلبها وعلمت ما خبئ فيه وانطوى عليه، ولكن من أين عرفت أنت قصة آدم وحواء؟

- أنا حامل للقرآن يا عيد.

- هل تحمل مصحفًا في جيبك؟

ابتسم عابد:

- بل في قلبي يا عيد، كان والدي قبل أن يموت حين كنا نملك رقعة أرض ومنزل وزوجًا من البغال يجران عربة، كان يأخذني للكتاب أحفظ القرآن وأتعلم أمور ديني، وأنت يا عيد من من عرفت أمور دينك؟

- لم أذهب لكتاب لا أنا ولا أحد من أقراني فما إن ينصب منا الفتى ظهره يأخذه والده التراحيل، يلتقط الدود من القطن ويجنيه ويلم الحشائش من بعد العزق، يسقي الدواب ويحمم الخيول ولما يأتي يوم الجمعة نرتدي جلبابًا نظيفًا ونقف وراء الإمام في المسجد نسجد مع الساجدين ونركع مع

الراكعين، نختن الذكور والإناث على حد سواء لكن الابن وحده كان يرث وأما الفتاة فنعلم أنه حرام توريثها. ينادي منادٍ أن غدًا رمضان فنصوم لمدة شهر بعده يأتي العيد، نزور القبور ونقف فوق الكولة لنصلي صلاة العيد بعدها نقف في طابور طويل نأخذ الكسوة والعيدية كل من سيده. يأتي العيد الكبير فنقف في نفس الطابور لنأخذ اللحمة، نحسب على أيدينا المواسم نصف رجب ونصف شعبان وعاشوراء وحين تحل المواسم يفك الرجال أحزمتهم ويذهبون للجزار يشتري كل واحد فيهم رطلًا أو رطلين من اللحم، والهم كل الهم إن كان للرجل فتيات متزوجات لأن عليه مواجبتهن في المواسم، لكن نساء يامنة ناصحات يزغطن البط والإوز لزوم تلك المناسبات، ودمتم على هذا وذلك هو الدين في يامنة.

- دينكم غريب يا أخي.

كأن زيدان كان موجودًا وغير موجود، لا يتحرك فيه سوى تلك الدموع السائلة فوق وجنتيه بلا فاصل.. تأخذه الطفلة الشقية لعالمها طفلة عمرها سنتان تخلط الحروف وتتلعثم فيها، تناديه ديدان بدلًا من زيدان فتضحك أمه وأبوه وإخوته تستثيرها ضحكاتهم فتعيدها ديدان، ينهرها هو فتضربه أمه ثم لا تكف الصغيرة عن مناداته ديدان يهرب منها ويختبئ بداخل الفرن تبحث عنه حتى تجده، تدخل برأسها فوهة الفرن تطل عليه قائلة ديدان فيضع أخيرًا كفيه فوق أذنيه حتى لا يسمع لها صوتًا، هل صحيح أنه لن يسمع لتهاني مرة أخرى صوتًا؟

ربت عابد على كتف صديقه:

- مثل تهاني لا يكسرها المرض يا زيدان إنها مثل قطة غجرية ليست بسبع أرواح فقط بل قل خمسين أو مائة، مثلها لا يموت هكذا راقدًا فوق فراشه مستسلمًا.

انتصف النهار وتوسطت الشمس السماء ولا يزال جمع العمال والأجرية قعودًا في ساحة الدار، مر عليهم واحد من الغفر يوزع خبزًا وجبنًا وبراد شاي لكل مجموعة من خمسة أنفار، سأله عيد:

- يا أخ إلى متى ستطول جلستنا هنا؟

- تراك اشتقت لفأسك، ألا يعجبك أن الغفير يخدم عليك، خذ اطفح يا ابن بدرية بالسم الهاري، دار الزمن أن يخدم فيه الغفر على الخدم.

تناول منه عيد الخبز والجبن وبراد الشاي بدون أن يتفوه بكلمة أخرى، يحدث نفسه «يعاملوننا كأننا درجة ثانية من البشر وكأن الله خلقهم من ذهب ونحن من طين، لقد تفوه باسم أمي هل سيكون سعيدًا الآن لو أنني حطمت رأسه ببراد الشاي؟ فلولا أني لجمت غضبي لكان الآن في خبر كان، خير ما فعلت أني كبحت غضبي وإلا لصرت قاتلًا.. خير ما فعلت».

وصل الطبيب، جالت العبارة في ساحة الدار، دخلت العربة الدوار حتى وصلت لباب الدار، ترجل عنها رجل مهاب يرتدي بذلة كاملة يمسك بيده حقيبة جلدية تناولها منه أحد الخدم. تنفس العمال الصعداء فقد يعفون عنهم ويطلقون سراحهم ما دام الطبيب قد وصل ولم يمت مريضهم.. لكن ذلك لم يحدث. بداخل المنزل هرول همام نحو الطبيب وهو يقول تلاحق كلماته بعضها بعضًا:

- هل هنالك أمل في أن تنجو وحيدتي؟ لقد أغمي عليها لكنها أفاقت وبالرغم من هذا يزرق وجهها ويرتفع صوت نفسها مثل وابور كبس، عيونها جاحظة يا دكتور وجسدها بارد و..

قاطعه الطبيب:

- مهلًا مهلًا، على رسلك، دعني أفحص في البداية المريضة.

جاء صوت سنية من آخر الطرقة:

- ويفحص نعسة.

ما إن قالت سنية كلمتها حتى هبت في وجهها رئيسة:

- ابنتك مثل القردة وابنتي طريحة الفراش هل تظنين أحضرنا الطبيب من أجل ابنتك؟

- تشبهين ابنة جابر عبد الجبار بالقردة ويحك يا امرأة!

زأر فيهما عبد الجبار:

- ناقصات عقل ودين وأدب وخلق، علام تتناقران؟ نساء ناقصات واحدة ابنتها تموت ولها خلق للمناوشة والخناق وأخرى لم تراعِ حرمة وجود رجل غريب فعلا صوتها.

صمتت المرأتان وانزويتا على نفسيهما حرجًا وخوفًا.

كشف الطبيب على تهاني ثم نعسة:

- نعسة لا أجد فيها علة أو مرض هي صحيحة معافاة لكن تهاني..

قاطعه همام:

- ما بها تهاني؟

- تهاني مريضة بذات الرئة وهو مرض مزمن مستقر بداخل جسدها منذ زمن ليس بالقريب.. كيف لم تلاحظوا؟

- لا نعرف يا دكتور، لم يصل بها المرض لهذا الحد منذ سنوات، كان يأتيها دور برد في مثل هذا الوقت كل عام أيام وترجع لها عافيتها، تهاني كونها فتاة وحيدة مدللة أثر ذلك على سلوكها، كانت تلعب ألعابًا غريبة أعتقد أنها سببت ذلك المرض.

- كيف ذلك؟

- حين كانت صغيرة في عمر السادسة ربما أكبر أو أصغر قليلًا لا أتذكر، كانت في عز برد طوبة، أي نعم يا دكتور في عز طوبة تسهى والدتها وتصعد للسطح تخلع عنها جميع ملابسها وتقف كما ولدتها أمها في الصقيع وأحيانًا أثناء المطر والعواصف.

- وكوالد من واجبه حماية وتربية ابنته هل كنت تتركها؟

- لا، بل كنت أقوم بما يتوجب علي القيام به كوالد، كنت أضربها بنشو الرمان وألسعها بالسيخ وأحبسها.

- هل ذكرت لي أنها وحيدتك المدللة، أم أني ظننت ذلك.. ماذا كنت فاعلًا بها إن لم تكن وحيدتك المدللة؟

- بلى قلت لك فما من فتاة في يامنة تملك ما تملكه من حلي وملابس وحرائر أو مفارش.

- يا طبيب هل جئت للعلاج أم للبحث في ماضي مرضاك؟

قالها عبد الجبار في حزم أربك الطبيب الذي أعطى بعض التوصيات والنصائح بخصوص مرض تهاني، على أن يأتي لمعمله شخص حيث سيركب هنالك تركيبة الدواء ويعطيها له، أما بالنسبة لنعسة فيكفيها غذاء جيد يعالج ضعف بنيتها.

كانت الشمس قد غربت والليل غطى يامنة ولم يصل بعد للخدم والعمال المزدحم بهم الدوار أي قرار بالرجوع لمنازلهم وحجراتهم، وبدا لهم أنهم سيبيتون في العراء في يوم هو الأطول في حياتهم، وزع الغفر عليهم لكل واحد عنقود عنب وتحت خطوط ضوء القمر التي تسربت من الغيوم الخريفية المتلاصقة نام من نام وهو جالس متكئ برأسه على كتف زميله، ومنهم من استند بظهره على الحائط وآخرون تجرأوا ومددوا أجسادهم على الأرض متوسدين نعالهم، فقط عيون زيدان ساهرة ككشافات مسلطة على الباب الحديدي للمنزل ينتظر من سيخرج منه بخبر يطمئنه أو آخر يقتله.

صاحت الديوك فاستيقظ عابد ظانًا أنه الفجر فوجده صياح ثلث الليل، قام عابد، توضأ وصلى ركعتين دعا لتهاني بالشفاء ولزين بالراحة ولنفسه بالزواج من خضرا ثم رجع ونام، صاحت الديوك مرة أخرى مع أذان الفجر ومعها صاح رئيس الغفر «يطلب منكم الحاج عبد الجبار الرجوع لبيوتكم وقبل الضحى يكون كل واحد منكم في عمله». استيقظ العمال مرهقين مكدودي الهمة يترنح كل واحد منهم كالسكران شبه مغلق عينيه يتثاءب من حين لحين.

- ما داموا طلبوا منا الرحيل فهذا يعني أن حالة تهاني مستقرة.

قال عابد لزيدان الذي وجد أن ملء الماء ستكون حجة جيدة لدخول الدار الكبير، ولما شق نور الصباح السماء كان زيدان واقفًا أمام الباب، فتحت له خضرا وأدخلته، سبقها بالسؤال:

- كيف حال تهاني؟

- لا أعرف يا زيدان هي منذ فترة لا تطيقني لذا لم أدخل حجرتها لكن يقولون أن حالتها تحسنت، انتظمت أنفاسها ورجع لوجهها لونه الطبيعي. فرحة طوال الليل كانت برفقتها أسألها.

- لا، لن أسأل فرحة الهبلة.

ضحكت تهاني ضحكة مخنوقة خوفًا أن يخرج صوتها فتلومها أمها، صمتت قليلًا ثم تجرأت:

- زيدان..

خانتها جرأتها فصمتت مرة أخرى.

- نعم يا خضرا كنت ستقولين شيئًا.

استجمعت شجاعتها:

- هل ترى عابدًا؟ منذ أن انتقلنا لمنزل البستان لم نره.

- نعم أراه كل يوم هو بخير وقريبًا ستسمعين أخباره منه شخصيًا، في آخر مرة تحدثنا قال إنه حدث والدك في أمركما وهو ينتظر أن يحدث خليل الحاج لإعلان الخطبة.

سهمت خضرا ثم قالت بصوت خفيض:

- لم يقل لي أحد بهذا الأمر. زيدان أريدك أن تأخذ ذلك المنديل لعابد.

ثم أخرجت من جيبها منديلا مطويًا بعناية، أخذه منها زيدان ورحل.



-١٤-

(القاهرة)

في درب الجماميز في القاهرة كان عبد الحكيم يحاول إصلاح كتاب له مُزِق غلافه وبهتت حروفه، أثناء ذلك صاح «زين اسمعيني، لا، بل افهميني من الأفضل لنا نحن الاثنين أن نترك مسافة فاصلة بيننا، مسافة صغيرة حتى نقدر أن نتعايش معًا، كتبي وأوراقي وكل ما في تلك الحجرة هو شأني الخاص، لا تطأ قدمك حجرة المكتب مرة أخرى وباقي ما في المنزل هو شأنك». فقدت الآن زين سكينتها وها قد ضاع الحب بداخل قلبها محاولًا إيجاد طريق للهروب والرجوع إلى عابد لتلقي بنفسها بداخل صدره، والبكاء لأن دموعها هي أيضًا أمست سجينة.

خمسة أشهر وأسبوع منذ زواج عبد الحكيم بزين، عالمان مختلفان قدر لهما العيش تحت سقف واحد، في البداية كان عبد الحكيم يحضر لها خزين المنزل ومتطلباته ولمدة أسبوع حتى عرفها طريق السوق. في يوم استيقظ عبد الحكيم على شيء ما يدغدغ أذنه ظنها زين تداعبه فالتفت أثناء ما كان بين النوم والصحو محيطًا رقبتها بذراعيه وما إن فتح عينيه حتى صرخ مذعورًا، هل تحولت زوجته ومسخت، ظل عبد الحكيم ساكنًا أمام ذلك المخلوق ثم هتف على زين «ما هذا يا زين؟» فأجابت «إنها نعجة يا عبد الحكيم، ولو أن منزلنا يسعها لكنت اشتريت بقرة». بتعجب قال «لمَ يا زين؟» قالت وهي تسوق النعجة «من أجل الحليب يا عبد الحكيم».

أخذ عبد الحكيم وقتًا ليقنع زين أن الحليب من اللبان لا يضر وأنه مثله مثل الحليب الذي كانت تحلبه بيدها من البقرة أو النعجة في يامنة أو بلدهم، وهي لم تنفك تردد «عشنا وشُفنا نشتري الحليب من السوق مثل العدس والفول!». وفي يوم

اشتهى عبد الحكيم أن تصنع له عجة بالبيض، في اليوم التالي ما إن دخل المنزل حتى قفز في وجهه زوج من الدجاجات فهتف مرة أخرى على زين «يا زين ما هذا؟» أجابت «ألست تريد عجة بالبيض من أين كنت سآتي بالبيض بفهمك!».

لكن في تلك المرة فاض الكيل بعبد الحكيم، بدا للوهلة الأولى في كل تصرفاتها أن زين فتاة طيبة على الفطرة لكن هذه المرة فإنه لا حيلة له معها سوى أن يبعدها تمامًا عن كل ما يخصه، وبالنسبة لها هذا لم يكن هو عبد الحكيم الذي اعتادت عليه زين.

كان عبد الحكيم لا يزال في عمله، مدرسًا في مدرسة العمارة، أنهت زين أشغال المنزل، غسلت الملابس وحضرت الطعام وكنست المنزل مرتين ولم يؤذن للظهر بعد. أعدت لنفسها كوب شاي، شعرت بالملل فما من أحد يؤنس وحشتها، راحت تطوف في المنزل حتى وقفت أمام باب حجرة مكتب عبد الحكيم كان باب الحجرة مفتوحًا، بضع دقائق من الصمت والتأمل مرت وهي واقفة تراجع ذكريات حياتها القصيرة مع عبد الحكيم، الطيبة والرفق والحب والحنان، تذكرت زين بعدها عابدًا فاستولى على نفسها سكينة وهدوء وهي تفكر في أن عابدًا حين تصله أخبارها من فرج وفي ثنايا العبارات المرسلة في خطابات عبد الحكيم لتهاني فسوف يطمئن هو الآخر ويسعد حالًا لسعادة حالها، ابتسمت زين ثم دخلت حجرة مكتب عبد الحكيم وراحت يدها تتفقد كتابًا متقن التغليف فوق المكتب وهي تفكر «آه لو يعلمني عبد الحكيم القراءة والكتابة». قالت جملتها وهي تمسد بكفها على أوراق الكتاب الناعمة وبدون قصد اصطدم ذراعها بكوب الشاي منسكبا فوق كتاب آخر، ارتبكت زين، فماذا تفعل؟ وماذا تقول لعبد الحكيم؟ مسحت الكتاب بطرف فستانها لكن آثار الشاي لم تزل لذا هداها تفكيرها لأن تغسل الكتاب وقد فعلت، وغالت في دعك غلافه ثم وضعته فوق صينية وضعتها أسفل أشعة الشمس.

حين رجع عبد الحكيم وبعد تناوله الغداء ناولته زين الكتاب وهو مسجى فوق الصينية. كاد قلب عبد الحكيم أن يتوقف ثم أقر قراره الذي ردع قلب زين... مسافة بينهما إن أرادا العيش معًا في سلام. سرحت بعقلها بما يقلقها.. أي شرط

هذا الذي يحفظ الود بالانفصال والقطيعة، كيف سيمضي الحال بهما على ما يرام وهما بعيدان وهي التي فكرت في أن تطلب منه أن يعلمها القراءة والكتابة حتى تجلس بجواره أمام مكتبه تساعده فلا تتركه هنيهة بسيطة، لعله الخريف أتى مبكرًا في حياتهما كزوج وزوجة مستقطعًا كل الفصول.

طوال الليل وهي ساهرة ما زار النوم جفنها، تسأل حالها، هل كرهها عبد الحكيم ولم يعد يحبها؟ أم تراه لم يحبها من الأساس؟ هل صدقت مخاوف عابد أن ظن أن زواج عبد الحكيم منها وهو ابن السيد وهي العبدة نزوة عابرة ما تلبث حتى تمر مرور الكرام؟ إن كان هذا صحيحًا فما أسعد عبد الحكيم بالفراق وما أشقاها. من حين لحين تلقي نظرة خاطفة عليه وهي تعاتبه أنه نائم هادئ وهي متيقظة تشتعل النيران بداخل قلبها ثم تلتفت الناحية المقابلة هامسة «يا لتعاستي بك يا عبد الحكيم ما أشقاني!».

في الصباح، تناول عبد الحكيم إفطاره بهدوئه المعتاد، وقد أمست ابتسامته نحوها من فينة لفينة بلا معنى، «هل نمت جيدًا يا عبد الحكيم؟» قالتها زين محاولة فتح باب لنقاش الأمس لعله الحوار يوصد باب الأفكار المحتدمة في عقلها «نعم يا زين نمت بشكل جيد جدًا، كيف لمن يملك زوجة مثلك عزيزتي أن لا تقر عينه بالنوم». أبهجت إجابته نفسها تطمئنها أن ما حدث أمس كان ثورة غضب لا أكثر والثورات مهما طالت يجيء عليها زمن وتخمد. أنهى فطوره وذهب ليحضر حقيبته من المكتب ثم قسم قلب زين إذ أغلق باب الحجرة بالمفتاح من خلفه، إنه حقًا يحتقرها إنه لا يأتمنها في تنفيذ توصية طلبها منها، إنه غير واثق فيها إذًا.

ارتدت زين ملابسها متأهبة للخروج، في أول أيام زواجهما دخل عليها عبد الحكيم بعدة صناديق اشتراها من «أروزدي باك». كل صندوق كان يحوي فستانًا على هيئة ما ترتديه النساء الأرستقراطيات آنذاك. الفساتين كانت قيمة لكنها لم تعجب زين وقالت عنها أنها فاضحة إذ ستحدد خصرها وتشد صدرها وستظهر

رقبتها وأذنيها، حاول عبد الحكيم إقناعها أنهم يعيشون الآن في حي فرنساوي كل من فيه من النساء يرتدين تلك الملابس، فلو أنها ارتدت ما ترتديه لأصبحت وسط الناس مثالًا شاذًا غريبًا وأنه بتلك الهيئة إنما يريد أن يوازي رأسها برأس هوانم الحي حين يمشيان في المنتزهات أو يذهبان للأوبرا. لكن زين لم تقتنع.

راح عبد الحكيم يدور في قيساريات خان الخليلي لعله يجد مراد زين، فابتاع لها تزبيرة وهو ما كانت ترتديه نساء أحياء مصر آنذاك، والتزبيرة عبارة عن ثلاث طبقات من الملابس سبلة وحبرة ويشمك ثم رجع لزين، ارتدت زين الملابس وأعجبتها لكنها لم تعجب عبد الحكيم. وبعد محاولات في تعديل وضبط الملابس بين الفستان الأوروبي والزي الشعبي نتج لباس غريب ومختلف لكنه أرضى الطرفين، إذ أبقت زين على الفستان وقصت لخصرها الحبرة وحاكتها مضيفة لها شريطين من الجانبين لتثبتهما من الخلف فوق رأسها، وتنسدل بذلك أطراف الحبرة القصيرة على الجانبين، استحسن عبد الحكيم الفكرة مثنيًا على ذكاء زين وقد طور الزي بأن اشترى قطع قماش حريرية بألوان الفساتين لتتناغم معها.

ارتدت زين رداءها الأزرق بلون عمق البحر وخرجت لشراء حاجات منزلها، مرت على بائع اللبن واشترت رطلين ثم على بائع البيض والخضار والجزار، تفكر مع نفسها.. إنها ذكية وتتعلم بسرعة وهو من قال بنفسه ذلك إذًا لماذا الآن يستصغر من شأنها؟ دارت الأفكار بعقلها كما أدارته الليلة الماضية. أثناء سيرها مرت زين على واحدة من نساء الحي كانت واقفة في شرفة منزلها، أومأت لزين بابتسامة قابلتها زين بمثيلها، باتريك أحد قاطني الحي كان يحمل في يده سلة ورد، أهداها واحدة وتقبلتها هي بلطف شاكرة، ومرت أيضًا بمجدولين ابنة جارتها تتمشى مع خطيبها حياها الاثنان فأعطت زين الوردة لمجدولين وأشارت حتى تهديها لخطيبها وفعلت الأخرى. منذ أن وطأت زين أرض الحي وهي توطد علاقات جيدة بينها وبين جيرانها، تآلفت معهم بل وأصبح عامة أهل الحي جميعهم يعرفونها ويحترمونها لا سيما الأطفال فهي بشوشة ودودة تحمل الكثير من الحلوى في جيوبها، ومما عمق العلاقات بينها وبين جاراتها أنها كانت سريعة البديهة أن تعلمت بعض العبارات

الفرنسية للتواصل بينها وبين جيرانها «بونجور» تحية الصباح، «بونسور»، «افيك بليزير»، شكرًا، كيف حالك، سعدت بلقائك، وغيرها من الكلمات البسيطة. وقد قدر لها عبد الحكيم أنها على نهاية العام ستصبح قادرة على إدارة حوار كامل بالفرنسية من سؤال وجواب مع جارتها.

عاد عبد الحكيم من عمله حدثها حديثًا لطيفًا لينًا ليس فيه خصام أو هجران مدحها وأثنى على طعامها، ما الذي غيره إذًا؟ هل راقت له واحدة غيرها؟ أم أنه ندم على زواجها فمهد للفرقة ثم ندم على غلاظته معها فحن لها؟ لاحظ عبد الحكيم شرودها.

- زين؟

انتبهت بعد وقت تشخص بعيونها ملتفة نحوه.

- ما بك أنا أحدثك وأنت في عالم آخر؟

- لا بل كنت منصتة، ومنتبهة، وماذا بعد لمَ توقفت عن الحديث؟

- إلى أين وصلت، نعم تذكرت، وأخيرًا وبعد شهرين أصبح بحث أساليب العمارة الحديثة في أمريكا في يدي وما علي إلا دراسته ومقارنته بالبحث الذي أنا قائم عليه وإجراء المقارنات والمفاضلة ثم الوصول لنتائج أفضل.

- بالتوفيق يا عبد الحكيم.

كانت زين قد عجزت في إيجاد الأسباب والدوافع التي جعلته يقرر أن ينأى عنها ولو حين من الوقت لذا فعليها إذًا قطع الشك باليقين. دخلت زين على عبد الحكيم حجرة مكتبه أثناء انشغاله رفع رأسه نحوها بلا أي تعبير على وجهه سوى الدهشة، وقفت لثوانٍ ثم تقدمت أكثر بخفة لكن عبد الحكيم قاطعها:

- زين ألم نتحدث في أمر أن تتركي لي حجرة المكتب باعتبارها غير موجودة في المنزل، وما دمت أنا ملازم بداخلها اعتباري غير موجود في المنزل أيضًا؟

- هنالك أمر لا أطيق معه صبرًا.

- تعالي.

قالها ثم أدنى طرفه على الورق المسجى أمامه، ظلت زين

صامتة وبدون أن يرفع عبد الحكيم رأسه قال وهو يرتب الأوراق:

- تكلمي يا زين فأنا مشغول.

- عبد الحكيم أعلم أنني لست على مستوى الكفاءة المطلوبة لأن أتزوج مهندسًا في مثل علمك ورقيك وثرائك، لكنك مع هذا لم تستطع إنكار تغير حياتك بوجودي للأفضل، وبلسانك قلت أن معدتك أراحها طعامي، وملابسك غدت أكثر لياقة وبهاءً، وحياتك كلها أمست أكثر نظامًا بغير رتابة أو تعاسة.

- صحيح يا زين.

- ولم أك لك مصدر إحراج ولم يحدوك اتجاهي شعور وسط جيرانك الفرنسيين أني امرأة قروية ساذجة غير أنيقة لم تحصل على أي شهادة من الشهادات العلمية.

- بالفعل.

- وذلك أيضًا يعني أنني أستطيع أن أنطق بما هو مهم ويستحق الإنصات منك وتركك أوراقك والالتفات إلي.

ارتبك عبد الحكيم بعدما أحرجت فيه زين اللباقة والكياسة وانتبه على الفور لها يعامد وجهه وجهها.

ازدردت زين ريقها مكملة:

- كان لي جدة تدعى ستوتة، جدتي من والدي، رحمها الله كانت تعمل دهانة، تستخلص زيوت البذور ومن ثم تصنفها لكل مرض دهان عندها، تأتيها النساء والعرائس للتزود بدهانات الورد واللوز وخلطات فرد الشعر وترطيب البشرة، وكان لها في تلك المهنة باع وصيت. تجرش البذور وتطحن الأوراق ومن ثم تضعها في برطمانات تملأها بعد ذلك بزيت الزيتون، تحكم إغلاق البرطمانات ثم تلفها بالصوف وبعدها تضع الزيت في حجرة خاصة مظلمة لا يدخلها شعاع شمس أو ينير فيها فتيل مصباح، حجرة تنخفض عن مستوى سطح الأرض أمتارًا كي تكون الحجرة رطبة منخفضة درجة حرارتها عن باقي حجرات المنزل، تحتفظ فيها بالبرطمانات أسابيع وحين كنت أستعجلها كانت تقول لي يا ابنة ابني إني أستخلص الزيت بالزيت وهل هذه عملية سهلة أن يتطبع زيت الزيتون بخصائص الشمر والقرنفل وحبة البركة أو روح الورد في أوراقه.. أنا وأنت هكذا يا عبد الحكيم مثل نوعين مختلفين الخصائص والطباع، وإني لن آخذ عبقك ولن يمتزج مزاجي مع مزاجك وتختلط صفاتي بصفاتك حتى إنه إذا ما تعامل معنا الغريب لجزم أنه يعامل عبد الحكيم في شكل زين ويعامل زين في شكل عبد الحكيم فلا استطاع أن يفرق بيننا أو يفرقنا، ولن يحدث ذلك إلا إذا وضعنا في زجاجة محكومة الغلق بسدادة لا ينفذ إليها ضوء العالم ولا ضوضاؤه، أنا وأنت فقط وهذا لن يحدث يا عبد الحكيم أبدًا لن يحدث إن كان لك حجرة في البيت أعتبرها أنا غير موجودة ووجودك فيها غير موجود.

جثا عبد الحكيم على ركبتيه أمام زين التي ما إن أنهت كلامها حتى انسال الدمع شلالًا من عينيها، وضع عبد الحكيم كفيها المتعرقين فوق راحته يمسحهما بكفه ثم أغلقهما ضامًا يديه بلين حولهما.

- زين ليس طعامك الجيد فقط ولا حسن تدبيرك لشئوني هو ما يجعلني متعلقًا بك، بل هو كذلك وجهك الوضاح الذي يخبرني دائمًا أني بخير ما

دمت أنت معي، عيونك مصابيح هدايتي في طريق العالم المظلم، الأمان الذي أجده بين ذراعيك، أنت يا زين النفس الإنسانية التي أستمد منها القوة في مواجهة ضعفي، زواجي بك يا زين هو الشجاعة الوحيدة في حياتي فكيف تقولين إذًا أني أردت بعدًا؟

حررت زين يديها من بين كفي عبد الحكيم محيطة بهما وجهه قائلة:

- عبد الحكيم لا تحسب أنك إن تركتني بعيدًا عنك سترجع لتجدني كما كنت، لأنني بشر، هذا الدم الذي يجري في عروقي قد يجففه غيابك، وذلك الوجه الوضاح كما تقول سينطفئ فتيل الحياة بداخله، إن طلبك بأن يكون لكل واحد منا خصوصيته جرحني وجعل الأفكار السوداوية تنزف من عقلي غير قادرة على إيقافها وأبقتني تحت جناح السهد أسيرة غير قادرة على الإفلات منها، لم أذق النوم منذ أمس وها هي المطارق تدق فوق دماغي ومع ذلك غير قادرة على عدم التفكير وقد يستمر بي هذا الوضع حتى أموت فلا يبقى لك زين.

- لن يحدث ذلك أبدًا يا زين.... هذا وعد.



-١٥-

في يامنة...

الغسق ألقى بلون برتقالي على سفوح الهضاب البعيدة على مرمى البصر ينتزع الحياة من الشمس تدريجيًا ومعها راحت الطيور تهجع لأعشاشها، صمت خوار البقر وصهيل الخيول ونهيق الحمير وما زال البشر يعافرون، الظهور المقوسة أسفل أشولة الغلال ما اعتدلت منذ الصباح بعد أن نقل عبد الجبار صوامع الغلال من المخزن إلى الدار الكبيرة.

«على كل الأحوال هو موت فوق الأرض وتحتها».

قالتها تهاني حين وضعت فتحية يدها فوق كتف تهاني وقالت «حذر الطبيب من هواء الخريف ساعة الغروب يا ابنتي».

أسبوعان مرا تحسنت فيهما حالة تهاني إلا أن المرض ترك فيها ضعفًا ملحوظًا، وسعالًا جافًا لا يتركها، وقد تناقص جزء من وزنها مرة أخرى، نظرت إليها فتحية في شفقة:

- أصابتك العين يا تهاني.

- بل اللعنة يا أمي.

التفتت تهاني نحو فتحية إلا أن توازنها اختل لتسقط مستقبلة الأرض بوجهها، أسرعت فتحية بحملها ووضعها على الفراش.

- سأحضر لك الطعام، هو الطعام سيرجع لك عافيتك.

- هل تعلمين أنني منذ فترة عزمت أن أكون فتاة صالحة، حتى إذا أصبحت كذلك نلت الطيب مثلي.

ابتسمت فتحية وهي تزيح خصلات شعر تهاني المفرود عن وجهها:

- أنت فتاة صالحة يا تهاني بالفعل.

- لا لست كذلك ولا أظن أني سأستطيع تحقيق تلك الرغبة التي تلازمني وتلح علي. ابعثي لي بخضرا.

تلقت خضرا طلب تهاني بلقائها بخوف وقلق، آخر مرة دخلت عليها حجرتها رفعت السكين في وجهها فبعثت بفرحة بدلًا منها، لكن فرحة رجعت مؤكدة على أن ستها تهاني تريدها هي شخصيًا، ما كان من خضرا إلا أن تشهدت أمام غرفة تهاني ودخلت.

- اقتربي يا خضرا لا تخافي.

اقتربت خضرا خطوات مترددة لكنها لم تجرؤ على الاقتراب من السرير المستلقية عليه تهاني.

- ناوليني كوب الماء يا خضرا.

تسارعت دقات خضرا وظلت ثابتة فأعادت تهاني الطلب، كانت نبرة صوتها رائقة أكثر وهادئة:

- ناوليني كوب الماء يا خضرا

سلمت خضرا أمرها لربها وقامت بصب كوب من الماء لتهاني وعلى بعد مناسب مدت يدها المرتعشة، وبدلًا من أن تمسك بالكوب أمسكت تهاني بمعصمها فانفلتت صرخة من خضرا على إثرها سقط كوب الماء.

- لمَ أنت خائفة مني يا خضرا ألهذه الدرجة غير المرض ملامحي، هل حولني لشبح أم خفاش، آه أجيبيني؟

كانت خضرا تجاهد في الإفلات من قبضة يد تهاني لكنها لم تستطع

وبدا لها أن تهاني قد تحولت بالفعل لشيء مخيف لم تستطع تحديده فاستسلمت وكفت عن المقاومة، هنا تركتها تهاني، همت خضرا بالهروب لكن تهاني أوقفتها:

- لم آذن لك بالخروج، تعالي وقفي أمامي بلا خوف.

رجعت خضرا لا تملك من أمرها مردًا ثم وقفت أمام تهاني التي همست لها:

- أحسنت، كنت أعرف أنك فتاة مطيعة، قريبًا ستكونين ممتنة لي يا خضرا أرجوك يا خضرا لا تجعلي الشك يرسل لك إشارات سلبية عني، كوني متفائلة، أنا أرى أمامي الآن مستقبلك وكل هذه المترفات من حولك وأنت تنعمين بلذة فيها، يا لسهام الخير المرشوقة يا للخير والهناء من حولك ياخضرا! والذي تنعمين فيه بنشوة بينما ترقدين بجوار شخص لا يقدر أن يبعد عنك الخاطر يحرسك في نومك بعدما سلبت لبه بجسدك الفتي وشبابك الغض -تنهدت تهاني ثم قالت- سترين بعينيك الجنة قائمة من حولك وستكونين لي ممتنة يا خضرا، أما الآن فاجمعي شذرات الزجاجات وحاذري من أن تجرحك ثم اخرجي سالمة من كل شر. خرجت خضرا من حجرة تهاني تهذي «أي جنون أصاب تهاني كانت ستقتلها منذ أسبوعين واليوم تروي لها رؤية عن نعيم وترف يخصها». أثناء سيرها اصطدمت بالخطأ بريحان:

- هل عميتِ؟

- وهل حاسبت أنت؟

أزاح ريحان خضرا بيده فأوقعها فشتمته وضربها ثم راحت هي تشكوه باكية لسيد الدار عبد الجبار لكن ريحان سبقها، ولما وصلت إلى مجلس عبد الجبار وقبل أن تنطق أنزل الشيخ العجوز بها عقابه «محرومة من كسوة الشتاء يا خضرا حتى تتعلمين كيف تحترمين أسيادك». رجعت خضرا تلعن حظها وبؤسها ألا يكفي نوع واحد من الأسياد! من الظاهر أن نبوءة تهاني تتحقق ولكن بالعكس، رجعت خضرا لرئيسة تستسمحها وتحنن قلبها أن يرفع الحاج غضبه عنها لتنال كسوة الشتاء ووعدتها رئيسة أنها ستحدثه على شرط أن تحاول ألا تظهر أمام الحاج فيتذكر عملتها ويصمم على رأيه.

بداخل حجرة عبد الجبار الذي كان يستشيط غضبًا ظل ريحان واقفًا أمامه:

- لقد فاض الكيل بهمام، إني أبعث له فيبعث لي بعبده.

- يا حاج أنا كنت معه وهو يجتمع الآن بجماعة من الضيوف على قدر من العلم جاء بهم عبد الشكور وهم بصدد عمل مهم في يامنة سيتوسع به سيدي همام في تجارته.

- لقد طلب مني كرم العنب وأعطيته إياه، ومن ثم مخازن الغلال ولم أبخل لكن إن أصبح هكذا على غير علم بما يدور في دائرتي، لا إن هذا كثير.

- ها هو سيدي همام والسيد عبد الشكور.

- أهلًا حاج عبد الجبار.

- لا أهلًا ولا سهلًا يا عبد الشكور، لقد فاض الكيل من همام. يا همام إنك لا تصحو من نومك إلا بعد العصر موكلًا أعمال الكرم والمعصرة لقمصان وريحان، يا ولدي إن كنت لا تستطيع التيقظ لا تورط نفسك في تجارة.

- يا والدي إنها مشاريع نافعة.

- وما نفعها إن كان صاحبها عنها نائمًا؟ أنت كمن يصطاد سمكًا غزيرًا وافرًا ويقول اصطدت ثم يرجع ويرميه مرة أخرى في البحر لأنه أحمق ومغفل.

- لا تهزأ بي يا والدي أمام الناس.

- بل أنت من تُهزئ نفسك.

- لا لست كذلك وكل تجارتي رابحة ولا يقول عن الحظ أعمى إلا الأعمى.

ثم ترك همام المجلس غاضبًا من والده. خلفه فضل وظل عبد الشكور وريحان لحين أخذ إذنهم من الحاج احترامًا لهيبته التي قلل من شأنها ابنه. أخذ عبد الشكور يهدئ من نفس الأب الغاضبة:

- هون عليك يا حاج هذا الذي تقول عنه أحمق ستدر تجارته الأموال درًا، إنه بصدد مشروع لو تم أموال الأغنياء أنفسهم ستكون في جيبه. ثم إني قد جئتك بنبأ عظيم ستبتهج له قريحتك وتنفرج له نفسك، لقد وجدتها، العروس المنشود.

ازدرد عبد الجبار ريقه وتململ في جلسته على الراحين مستمعًا لكلام عبد الشكور.

- إنها بنت بنوت فاتها القطر فأصبحت في الثلاثين لكنها وعزتك مهرة، مهرة أصيلة عاينتها زوجتي وقالت إن أحدًا لا يعرف عمرها الحقيقي لأعطاها خمسة عشر عامًا لا أكثر.

رفع عبد الجبار حاجبه:

- رفيعة ويابسة بعرقوب مثل المرحومة.

- بل ممتلئة إذا ما جلست ملأت مجلسها لينة رخوية وكأنها خلقت من الهلام بلا عظام.

- وهل أهلها أجاويد ذوو غنى وصيت؟

- جدًا جدًا.

- لون بشرتها؟

- قمحاوية.

- لماذا ليست بيضاء؟

- سوف تبيض على يدك.

وهكذا ظل الشيخ وجليسه يتحدثان عن العروس المقبلة حتى مل ريحان ونام وهو قاعد في مكانه.



ترك همام والده والدار والدوار وأخذ يمشي بلا هوادة في طرقات يامنة مبتعدًا موليًا ظهره ليامنة بمن فيها، تبعه فضل لكنه زجره وأقصاه عنه وهدده إن تبعه ليقتلع رأسه من جسده ثم أسرع الخطى أكثر وأكثر حتى اختفى في الدرب الطويل متوغلًا في الزراعات، وبعد حين انعطف نحو الطريق السهلي المنحدر والمنخفض وقد تمنى أن يطول به الطريق فلا يعرف للرجعة طريقًا فقد أطبقت الدنيا على صدره وضاق بها خلقه، كره أباه وأخاه وزوجته وابنته وعبيده وخدمه وحتى كرمه وتجارته ووصل به الحال أن كره نفسه وتمنى لو يخلعها عنه.

تطلع همام لنهر النيل الماثل أمامه وبكى وانتحب وصرخ بكل قواه حتى هدأت نفسه بعدما أخرجت حممها، بعدها ظل ساكنًا لوقت يرجم الماء بالحصى الصغير حتى توسط القمر السماء متعامدًا على الماء المرتعش بفعل رمياته المتلاحقة، بدا لهمام وكأن شخصيته كمثل الماء مهتزة بما فعل أخوه فيه في الماضي وأن رد فعل والده اتجاهه اليوم كان رد فعل الحجر على الماء فجعل تذبذبه وضعفه جليًا أمام الخلق أجمعين كما ضوء القمر المصوب نحو دوامات الماء.

- لو أمرتني لشققت لك النهر نصفين إن كان يعكر مزاجك يا سيدي.

- كاذب يا فضل فالماء ألين من أن ينشق، ثم إنه ألم أقل لك سأقطع رأسك إن تبعتني؟

- يا سيدي همام على الرغم مني مشت قدماي وإن وفائي لهو دافعها وخوفي عليك محركها.

جلس فضل بجوار همام:

- ماذا تريد في دنياك يا فضل؟

- يا سيدي أنا عبد ليس لي سبيل في التمني غير ما تشاؤه لي.

- ما بالك إن كان السبيل لما أتمناه وأنا السيد محالًا وإذا ما رضيت أو شغلت نفسي بأمر آخر غير الذي رغبت فيه نازعتني نفسي مرة أخرى تستعيد آمالي المختلطة بآلامي، أنا يائس يا ريحان من أن تكون لي ذرية ترثني وترث اسمي.

- يقولون أن سيدي جابر هو السبب.

- لولا ضعف قلبي لكنت سلبته جميع بنيه واحدًا تلو آخر.

- سيحدث يا سيدي سيحدث، إنه القدر الذي ليس منه مناص.

- وكيف علمت يا فضل؟

- قرأت كف كل واحد منهم، جميعهم في نفس اليوم والساعة جميعهم يا سيدي وليسوا فرادى إنه مكتوبهم.

- أتدري رغم كونها ضلالات لكنها أراحتني فما بالك لو تحققت، لو تم المراد لأعطينك يا ريحان منزلًا وأرضًا ولأزوجنك أجمل بنات يامنة وأحقق أي أمنية لك.

من حين لحين كان عابد يحدث خليلًا في أمر زواجه بخضرا وكان الأخير يؤجل الأمر ويتحجج بأمور سطحية لا تستحق الاهتمام بها من الأساس، والحقيقة أن خليلًا كان يرى عابدًا كشخص لن يجد في أخلاقه وحسن طباعه، رجل جدير بالزواج بابنته ولكن وإن كان عابد شابًا تقيًا يظل فقيرًا وفوق هذا وذاك فهو عبد، وهو أيضًا لا يريد أن يكسر خاطر الفتى برفضه رفضًا قاطعًا فقال سأماطل معه ربما يفهم من تلقاء نفسه. انكلم قلب عابد فأفضى بسره لصديقه زيدان الذي نصحه بأن يجعل عبد الشكور وسيطًا له بين خليل والحاج عبد الجبار، وعبد الشكور وإن كان مصاص دماء فهو لن يرفض مساعدته في أمر هين كهذا واستقر عابد على ذلك الرأي وذهب لدار عبد الشكور.

فتح عبد الشكور باب بيته لعابد بحذر، مستقبلًا إياه بشيء من البرود إلا أنه دعاه للدخول، دخل عابد في أثر عبد الشكور إلى غرفة الضيوف، استحى عابد أن يدخل بنعله المتسخ الحجرة فتركه على عتبتها وجلس حيث أشار له المضيف، لم تكن الحجرة كبيرة كحجرة عبد الجبار ولا صغيرة لكنها مرتبة ومليئة بالنوافذ

الزجاجية على طاولة صغيرة عدة جرائد ومجلات وعلى الحوائط ثبتت رفوف ملأى بالكتب، تقطن صورة زيتية على أحد الجدران لمحمد علي باشا متربعًا فوق عدة أرائك مخملية قانية اللون، جلس عبد الشكور قبالة عابد.

- ما بك يا عابد هل لديك شكوى؟

- بل طلب يا سيد عبد الشكور.

- بح بشكواك يا عابد في البداية إنها مهمتي هذا لو لم تكن قد سمعت عني من زملائك، تعلم أن معظم العمال يجدون الحرج من أن يصارحون أرباب أعمالهم إجلالاً لمكانتهم فلا يكونون كمن يتهمهم أو يتجاوز معهم في الحديث لذا فإنهم يوسطونني، هات ما عندك يا عابد ولا تخف.

نظر عابد في عيني عبد الشكور ولما ارتاح له قليلًا فكر في بث ما يستقر بداخل نفسه ويثقلها منذ مجيئه ليامنة:

- الحق يا سيدي أنني ما عدت أحتمل الظلم والقسوة، كم من المهانة بوسع المرء أن يحتملها!

- إن أفكارك يا عابد مطموسة بالجهل أي ظلم وقسوة اللذين تتحدث عنهما أنا لا أرى شيئًا من ذلك القبيل، تحدث فلربما هنالك ما هو غائب عني أو غائب عنك.

- يا ليت يا سيدي فلعلك تبصر لي بصيرتي وتدلني على المحق ومن غير المحق وتسدي لي من النصائح ما يرتاح له قلبي، أنت رجل كثير الاطلاع وعقلك منفتح عني.

وراح عابد يحدث عبد الشكور بكل ما عاناه وكابده هو وجميع من عرفهم في يامنة وفتح أمامه جميع صفحات قلبه، وما ترك فيه سطرًا إلا وأفضى به يتحدث بانفعال متأثرًا وهو قاطب جبينه. وقد أصغى عبد الشكور له باهتمام هادئ لا تنفك الابتسامة تغيب من وجهه أثناء حديث الشاب، وحين فرغ عابد من الكلام اتسعت ابتسامته لتشمل عرض وجهه كله مظهرة عن نواجذه وقال:

- هذا كل شيء؟ أين هو الظلم وأين هي القسوة؟ إنك شخص حساس يا عابد وعلى الأرجح أن حساسيتك تلك جعلتك تظن بالسوء في رب عملك، يا الله لأين وصل بك الحال يا أخي حتى تسيء الظن بالحاج الكريم عبد الجبار يا لخيبة أملي فيك يا عابد وكنت أظنك رجلًا متدينًا تقيًا!

اندهش عابد لرد فعل عبد الشكور وراح يحاول في شرح معاناته بشكل آخر:

- يا أستاذ عبد الشكور ها أنا أكد وأشقى في عز الصيف والشتاء وإن عصرتني لما نضح مني قطعة نقدية واحدة، إن ملكية الحاج للأرض ليست مبررًا له للاستيلاء على جميع فائض الربح، إنه على واحد مثلي أن يكون له هامش من الربح، على الفلاحين والخدم جميعًا أن يكون لهم نصيب مما أنتجوا.

- في رأيي إنك رجل جاهل وأحمق يا عابد، إنك تتقول على المالك إنه يستولي على أرباح أرضه وهي ملكه خالصة وهل هذا يعني أنه يسرق نفسه؟

- يا أستاذ إنه وإن كان يملك الأرض فنحن نملك الطاقة والمجهود المبذول في إنماء أرضه ذلك الجهد الذي نتج عنه الربح.

- إن في كل كلمة من كلامك بجانب الجهل بذور فتنة وثمار حقد وغل على من منّ الله عليه بالخير والرزق إنك غيور حاسد.

- بل إن الشر ذاته ينبت من النهج الذي يسير عليه سيدي عبد الجبار وأبناؤه، تتحدث عن جهل وحقد وفتن في حين أنه لا يضمن لنا التأمين المناسب لحياة إنسانية نطمئن فيها على قوتنا وعلاجنا وكسائنا، في حين أن العدل وحده هو مطهر القلوب ثم إنك ألا تجد في العبودية نفسها قسوة وظلم؟

- إنها عبودية معتدلة يا عابد فهل يربطك في شجرة وقت نومك أو راحتك؟ وها أنت ماثل أمامي غير مقيد أو مسلسل رغم كونك عبدًا مما يجعل له الحق في استعبادك كما يشاء. لاحظ يا عابد أن كلامك ينزع إلى كراهة

ممزوجة بميل للعنف وإن العنف لا يولد إلا العنف وردة فعل سيدك لن تكون عواقبها حميدة، فأنت وإن كنت لا تملك أسرة فإن باقي العمال لهم حياتهم وبيوتهم وزوجات وأبناء وأظنك سمعت بقصة الفلاح المتمرد الذي قطع يد سيده فهيج بقية العمال واستثارهم، وما كان من أبناء السيد إلا أن عاقبوا جميع العمال بعدما سلطوا عليهم المجرمين والمطاريد أن يفعلوا الأفاعيل بزوجاتهم وبناتهم على مسمع ومرأى من الكل. سيدك يا عابد رجل تقي يصلي ويصوم ويسدد زكاته غير ناقصة وهو يعتبر أبًا للكل وإن كان طبعه إلى حد ما شديدًا بل وقاسيًا في بعض الأحيان أنا لا أنكر فذلك لعرق فيه ممتد لجد الجد وهذا ليس بيده. احذر إثارة الفتنة يا أخي وأنا بنفسي ومعي بعض من المتنورين والمثقفين سنسعى سعيًا حثيثًا في شرح واجبات الأسياد والملاك المفروضة اتجاه خدمهم وعمالهم، والعمل على إثارة الوفاق والمحبة بين جميع الأطراف حتى يخبو الفارق تدريجيًا، بل والبحث في إيجاد الحلول التي في سبيلها الحد من فاقة أهل يامنة وسد احتياجاتهم ومساواتك وباقي الفلاحين يا عابد بجعل أجر لك خاص، وحتى ذلك الحين اهتم أنت بعملك وراعِ الله فيه وطهر قلبك ونقِه من الحقد والكره حتى يقبل الله صالح عملك.

كان اتجاه عبد الشكور في إبداء الحقائق المزورة لعابد يعتمد على أسلوب الإقناع باللين والترغيب تارة والترهيب تارة أخرى الذي من أثره جعل عابد يظن أن ما يدور بعقله مجرد خيالات. لم يتحمل عابد قلب موازين الأمور وتصوير الظالم عادلًا، إن ما يقوله له إنما هو نسخة منسوخة من حديث واحد يتحدث به لكل من جاء وعنده شكوى أو مظلمة وعبد الشكور حريص على حفظ ذلك التزييف فلا ينقص منه كلمة واحدة؛ لذا لا عجب إن جلس عبد الشكور على مآدب الأثرياء وشرب معهم الشاي وسامرهم وليس اعتباطًا أن يولوه هم اهتمامًا، اقتضب عابد الحديث قائلًا:

- سأفعل.

- نأتي لطلبك؟

- أود الزواج بابنة الأجير خليل.

- الحاج عبد الجبار لم ولن يرفض طلبًا في ستر فتاة وعفة رجل أعدك أن أكون وسيط خير لك، ولكن للحظ أن الحاج مشغول بأمر زيجتين، زيجته وزيجة ابنه عبد الحكيم.

هنا انخلع قلب عابد على أخته زين.



-١٦-

سبعة عشر يومًا تحسنت فيهم حالة تهاني بالتدريج، رجع لها قسم كبير من طاقتها وحيويتها بدرجة تجعلها لا تحتاج لمساعدة أحد. تحممت وتطيبت وارتدت أزهى ثيابها، دهنت شعرها ومشطته ثم خرجت تتبختر من حجرتها متجهة لحجرة الجد. استقبلها الجد بترحاب مُجلسها بجواره، أبعد عنه صينية الطعام وقربها اتجاه ابنة ابنه:

- مدي يدك يا تهاني ولا تخجلي.

- لي زمن لم أشاركك الحديث يا جدي.

- الحق يا تهاني أننا لا نتشارك الحديث مطلقًا لكن هذا لا يعني أنك غائبة عن ذهني، لقد استغرقت في ألم مرير أيام مرضك حزنًا عليك وعلى ابني همام كونك وحيدته خاصة أنه يحبك حبًا لم يحمله أب لابنته من قبل.

- وإني أكن لك كل مشاعر الود يا جدي ويشغلني أمرك ويؤرقني همك وأنا ميقنة أنه إن كان فيّ خصلة طيبة أو بعض من الفطنة أو الحكمة فإنني ورثتها من فطنتك وحكمتك.

كان لوقع كلمات تهاني على قلب عبد الجبار أثر طيب أبهجه وجعل أساريره تسترخي وصدره ينبسط، أكملت تهاني في إيقاع حنون:

- يلح علي شاغل يا جدي وهو وحدتك بعد وفاة جدتي فليس واجب على الرجل أن يموت بجوار قبر زوجته أطال الله عمرك، خاصة إن كان في عزك وشبابك سبحانه وكأن الله وضع سر قدرته فيك، رجل قوي كامل الأوصاف نشيط قلبه كقلب الفتى.

- كأنك تقرأين أفكاري يا تهاني، إني بصدد خطبة ابنة حامد التهامي صاحب معاصر زيت بذر القطن هل تسمعين عنهم؟

بان على تهاني الفزع أن خطتها لن تكتمل إن كان سيخطب ابنة حامد:

- نعم سمعت عنهم الكثير، سمعت أن حامدًا رجل متحرر ولد بجلباب وعمة وأول ما فتح الله عليه خرج من عباءته ولبس زيًا ليس زيه، وأعلم أيضًا أنه يعلم بناته علنًا جهارًا بل ويفخر بذلك، وأن بناته وزوجات أبنائه يرتدون على أحدث موضة سافرات الوجه لا يجدن حرجًا في مجادلة الغرباء من غير محارمهن، وأسمع أيضًا أنهن دميمات.

ظهرت الخيبة على وجه عبد الجبار وهو يقول:

- يا شوم الاختيار! علينا إذًا البحث عن واحدة أخرى.

- لي عندك واحدة.

- هاتي بها يا تهاني.

- في الأول اطلب خضرا تأتي لنا بالشاي.

أتت الفتاة بصينية الشاي فوقها الأكواب وطبق من قرص العجوة. وأثناء التفاتها قالت تهاني بصوت عالٍ:

- زهرة أنت يا خضرا عن حق، الفتيات الصغيرات يا جدي هن خير هذه الدنيا أليس كذلك؟

- بلى يا تهاني، وأنت زهرة الجبابرة كلهم.

ضحكت تهاني على استحياء ورحلت خضرا تستعجب من تغير طبع تهاني التي تمدحها أمام الحاج الكبير. مدت تهاني يدها لكوب الشاي:

- هل فيها من شيء إن تبسطت معك في الحديث يا جدي؟

- لا يا حلوتي بل إن حديثك عذب ينبعث عن فهم وخبرة رغم صغر سنك لكن لمَ العجب إن كنت تشبهين جدك!

- إني أريد لك يا جدي أن تتذوق مباهج الدنيا على يد فتاة عذراء بتول لم تتفتح زهرتها من قبل إلا لك، الصغيرات وحدهن هن القادرات على تحريك المياه الراكدة وتلوين الحياة الفاترة.

صمتت تهاني فطلب منها عبد الجبار أن تكمل فأكملت:

- لا يا جدي فقد تقول عني عديمة الحياء قليلة الربابة وهي إهانة لك ولوالدي قبلي.

- لا بل إن حديثك حكيم صحيح أكملي.

- إن زواج الشيوخ من الصغيرات يطيل أعمارهم، أي والله، لأن حبهم للحياة يزداد حين تتألق غيداؤه أمام ناظريه وكم من منافع تحظى بها النفس في وصالهن ولكن.

- ولكن ماذا يا تهاني؟

- إن لم يحسن اختيارها فالويل كل الويل، سيمس ذلك الزواج كبرياءك ويضر بسمعتك الطيبة وسيشمت فيك الأعادي حين تدب الخلافات، فالحسناء ستطمع في المال وإعلاء سلطتها على أهل الدار وأولهم أنت يا حاج، وسيقول الناس ماذا أراد ذلك العجوز بالزواج من غيداء فهو بالكاد يلزمه امرأة صالحة مسنة تناوله ماء وضوئه، لا سيما إن كان لا يملك الدوافع للزواج بفتاة صغيرة لأن لديه من الأبناء والأحفاد ما يسد عين الشمس.

- وكيف الحيلولة إذًا يا ابنة ابني؟

- أن تختارها فتاة مسكينة، فقيرة مكسورة الجناح تربت تحت جناحكم ترى أن زواجكم بها فضل ونعمة تقبل عليها يديك صباحًا ومساء.

- من في عقلك يا تهاني؟

- خضرا ابنة الأجير خليل. الفتاة شبت في داركم لا تعرف المكر ولا الدهاء، كانت خادمة أسفل قدميك وستظل وهي حسناء هيفاء لا ينقصها من صنوف الجمال من شيء.

استرجعت كلمات تهاني بداخل العجوز شهوة خفية سلمته إلى شعور بالنشوة اتجاه خضرا وهو يسترجع صورة قسمات وجهها المستدير المتألق وأهدابها المنسدلة وقدها الممشوق يروح ويجيء أمامه، ثم سأل نفسه «كيف لم تلفت نظره تلك الصبية من قبل؟»

وبذلك استطاعت تهاني إقناع جدها بالزواج من خضرا لإخلاء السبيل بينها وبين عابد، أو على الأقل إن لم تفز به هي فلن تشاركها فيه خادمتها. ولم يجد عبد الجبار أي مانع من الإقدام على الزواج بصبية أصغر من عمر حفيدته، إلا أنه كان متوجسًا من ردة فعل أبنائه أن يتهموه ولو كان بينهم وبين أنفسهم بسوء التصرف وانعدام الحكمة في أن يناسب أجيره وهو كبير الجبابرة. «وليكن» قالها لنفسه وهو مسترخ صباح اليوم التالي فوق فراشه يفكر في الطريقة التي سيخبر بها أبناءه، كانت الفتاة قد شغلت لبه وسحره فيها كلام تهاني عنها فراح خياله يرسم له صورة حوريته الصغيرة وهي بين ذراعيه وهو ينعم في لذات الدنيا التي ودعها منذ زمن. ليس أمام عبد الجبار سوى عبد الشكور، وعبد الشكور وإن كان رجلًا خبيثًا لا يؤتمن على سر فهو الأقرب لولديه.

نهض عبد الجبار من فراشه فاردًا ظهره، عدل قفطانه وخرج من حجرته. كانت حوريته تكنس الدار فوقف يسترق النظر إليها، مسح شاربيه المتندين بلسانه، أثناء التفاتها انتبهت خضرا فجفلت واقفة، وجه عبد الجبار حديثه لها ببشاشة:

- ما بك يا صغيرتي، هل أخفتك؟

- لا يا حاج.

- أكملي إذًا.. انتظري غرفتي تحتاج للترتيب تعالي رتبيها.

دخلت خضرا حجرة عبد الجبار وكان هو واقفًا عند الباب لا يزال يراقبها، فتحت النوافذ ثم حملت الفتاة الألحفة بهمة إلى الشرفة نفضتهم ورجعت لتمسح الخشب، وأخذت تكنس الأرض ترد من حين إلى حين غديرتيها الطويلتين إلى ظهرها، تقدم عبد الجبار لمنتصف الحجرة، انزوت خضرا وانتحت جانبًا تلوذ بالجدار وهي غاضة طرفها تشعر بالخجل وقد وجدت نفسها مع الحاج الكبير على انفراد لا تدري ماذا تفعل وماذا تقول، اتجه عبد الجبار ناحية خزانة الملابس أخرج منها صندوقًا خشبيًا مطعمًا بالفضة، أخرج منه شيئًا واتجه نحو خضرا، وقف أمامها على بعد خطوة واحدة منها، نظر إليها بإمعان وتأمل وقال لها:

- ثيابك قديمة، تحتاجين لعدة أثواب بما يناسب زهرة شبابك، كلميني عن أحوالكم يا خضرا هل أنت سعيدة في كنف خدمتنا، هل هنالك شيء تحتاجين له وهل يعوز والدك شيء؟ قولي ولا تخجلي مني يا حلوة.

اندهشت خضرا لهذا الاهتمام المفاجئ فهي منذ أيام توسطت عند سنية ورئيسة لتجعله يسحب عقابه بأن يقتطع كسوة الشتاء منها، قالت وهي مطرقة:

- نعيش كما كنا بالسابق ومنذ أن حييت على وجه الأرض مثلنا مثل كل خدمكم يا حاج.

- لا بأس من الآن سوف تعيشون بشكل أحسن، ولن ينسى والدك المعروف الذي سوف أقدمه له مدى الحياة.

- شكرًا لعطفكم يا حاج.

- انظري لهذا العقد هل يعجبك؟ إنه ذهب، هل لمس جلدك الذهب من قبل يا خضرا؟

- مطلقًا لم يحدث ذلك يا حاج.

- إنه يليق بجيدك، تعالي أجربه عليك.

تقدم عبد الجبار نحوها خطوة لكنها انسحبت للخلف.

أنت لا تزالين خائفة، خذيه جربيه بنفسك.

ثم فتح راحة يدها ووضع العقد بداخلها، لمع الذهب في عيون خضرا لثوانٍ مفتونة به ولكنها تذكرت عابدًا فرجعت العقد وقالت:

- شكرًا لعطفك يا حاج لكنه لا يليق بي ولا يناسبني إنني أجد أن حفنات من دقيق القمح تسد الجوع أقيم وأنفع من عقد يزين رقبة فقيرة مثلي.

- في وسعك أن تأخذيه ولا تخبري أحد فأنا أمتلك مثله الكثير.

- شكرًا لا لن آخذه.

ثم تراجعت خضرا عدة خطوات لتترك الحجرة بعدها وتترك عبد الجبار يرجع العقد للصندوق.

كان جابر راجعًا من مخزن القطن يمشي رزينًا في خيلاء لا يلتفت حوله، قابله قبل دلوفه للبيت عبد الشكور الذي صمم على أن يشرب معه الشاي في داره:

- أنت لا تدخل دارنا يا سيد جابر تكرم واجعلنا ننول الشرف.

اعتبر جابر دعوة عبد الشكور مجاملة لكن أمام تصميمه ذهب معه ليستقبله في حجرته التي استقبل فيها من قبل عابد مع فارق المعاملة والاستقبال. اتكأ جابر على إحدى الأرائك:

- هاك قد نولتكم الشرف يا عبد الشكور. إن مواهبك في الإقناع شيطانية يا أستاذنا.

- في الإقناع فقط يا سيد جابر.

- أنت داهية بحق، تدس أنفك في كل أمر وقضية تغوص فيها ولا يخرج منها رابح سواك، إنك تصالح المتخاصمين وتؤلب آخرين على آخرين وهل ما تجنيه من الجانبين قليل، تظن أنني لست بعلم بأمر الرشاوي؟

- أي رشاوي يا سيد جابر؟

- رشاوي المأمور لك.

- أي رشاوي تلك بالله عليك لا تظلمني يا سيد جابر إنما أنا أتعاون مع المأمور لضرورة أمن البلدة، أنتم أدرى بأحوال خدمكم وعمالكم، وهل تصدقون بأن كلام رجال الدين لكم ودعواتهم يؤثر في رجال يامنة إنهم متملقون لقاء إشباع بطونهم والجميع يعلم، ثم ما الذي أفعله إني أنقل كل ما هو خير عنكم وعن وجهاء القرية والقرى المجاورة، وهل بحكمتك أضر بعلاقتي مع الأعيان والتجار؟ مأمور يذهب ويروح ولكنكم أنتم الباقون، إن كان لي حق في الرشوة فهي منكم أنتم وليس سواكم. ثم إنه ليس هذا الموضوع الذي أردت التحدث فيه معكم.

- رغم حيلك الشيطانية وجميع أعمالك السوداء فإنني لا أجد مردًا سوى الإعجاب بكم وبحذاقتكم.

جاء صوت زوجة عبد الشكور من خلف الباب فخرج عبد الشكور ثم أتى بصينية الشاي، صمت جابر قليلًا يفكر «ترى بأي خدعة أتى عبد الشكور؟»

- تناول يا سيد جابر شايكم.

- تكلم عبد الشكور فيما أتيت بي من أجله.

- لا تستعجل يا حاج اشرب شايك على مهلك.

ثم راح عبد الشكور يحكي ويسهب في الحديث عن أخبار الباب العالي والقصر الملكي مع الانتداب الإنجليزي. وكان جابر مولعًا بسماع أخبار الخديوي عباس حلمي الثاني معتبرًا أن علاقته مع الإنجليز تشبه مطاردة القط للفأر، فهي مغامرات شيقة تستدعي الاهتمام ومن المثير للسخرية أنه كان يشجع بقلبه اللورد كرومر المنتدب السامي الإنجليزي، وكانت حجته في ذلك أنه لا يشجع إلا الأقوياء المنتصرين، وحين فرغ من كلامه صمت فهم جابر بالنهوض لكن عبد الشكور أوقفه مرة أخرى:

- لا يزال في الحديث بقية يا سيد جابر، الأمر الذي دعوتك لمناقشته معك.

- تحدث وأوجز يا عبد الشكور.

- أنت تعلم يا أخي أن الرجل وإن هرم فإنه لا يشيخ، لقد أوجد الله فيه سر الحياة، يظل كاملًا إلى أن يموت، ماتت والدتكم الغالية منذ شهور، ورجل في صحة والدكم وعافيته وماله لا يحق له المكوث بلا زوجة، ألا ترى أنه من الواجب أن يتزوج بل إن هذا طلبه وغايته.

ابتسم جابر وهو يقول:

- لا بأس ولقد فكرت في البحث عن امرأة مناسبة تسهر على راحة أبينا ومرعاته.

- ابن بار حفظك الله يا حاج جابر، ولكن أنت تعلم ذائقة والدك فهو لا يتذوق إلا كل ما هو جيد طازج وليس هو الرجل الذي تميل نفسه لشيء بائت.

- يا إلهي هل بكلامك هذا تقصد أن والدنا يريد الزواج من امرأة شابة؟

- بل عذراء بكر بتول، وقد اختارها بعينه وإنه ليستحقها.

قطب جبين جابر وعلا صوته:

- لا هذا غير منطقي، هل ذهب عقل العجوز أم أصابته لوثة، ومن هي بحق أمنا القادمة يا عبد الشكور؟

- إنها خادمتكم وطوع يدكم ابنة الأجير خليل.

شحب وجه جابر وكساه الصفار قبل أن ينطق متلعثمًا:

- من؟ الخادمة؟ ابنة العامل؟ لا إن ذلك لن يحدث أبدًا.

- اسمع يا صديق إن أباكم اختارها بعينها ومن الواضح أنه مولع بها ويميل قلبه نحوها، وهو لم يعط اختيارات أخرى بل ورافض أي خيار آخر، إنه

من مصلحتكم أن ترضخوا لرغبة والدكم وليس علي أن أذكرك بذلك إن الشيخ لا يزال ممسكًا بمقاليد المال وكل الأمور، كل ما هو عليك هو أن تشرح لإخوتك بروية وهدوء ما عزم عليه والدكم ومن المستحسن أن يجدك أنت بالذات في صفه.

أدار جابر الخطة في عقله قبل أن يعزم عليها لكن ليس على أحد أن يكون له علم بما نوى وعليه أن يظهر الولاء.. خرج جابر من عند عبد الشكور غارقًا في التفكير، يشعر بالاستياء من أبيه والضجر، مضى نحو حجرته بدون المرور على حجرة والده كما اعتاد، ولا النظر إلى أحفاده، دخل على زوجته بدون أن يمن عليها بنظرة ثم انطرح على سريره يفكر «إن والدي عنيد ولن يقدر عليه أحد وليس لأحد عنده خاطر، ثم خضرا الخادمة ألم يجد فتاة أخرى، يا للعيب ويا للعار!» ثم جال بعقله خاطر آخر وهو لمَ لا يتزوج هو بخضرا! يهربها للجبل بواسطة رجال الثعلب وكأنها هي التي هربت بنفسها ثم يعقد قرانه عليها، الفتاة منذ شبت وتفتحت بواكير أنوثتها وهو يتطلع إليها ويطمع فيها لكن قط لم يصل به الحال أن فكر فيها زوجة، عليه أخذ الحذر أمام والده بشكل يظهر فيه أنه في صفه حتى وإن كانت عروسه ابنة أجير فلا يشك في أمره أحد.

مرت من أمامه زوجته أشاحت بيدها أمام عينيه لكنه لم يحرك ساكنًا ولم يرمش:

- ما بك يارجل؟

فزع جابر:

- ما بك أنت أفزعتني؟

- أنت جالس مثل صنم، هل هنالك شيء؟

- هل رجعت نعسة لدارها؟

- نعم ولقد عتب زوجها على عدم وجودك لاستقباله.

- لو كنت رأيته لما مر اليوم بسلام ولكانت ابنتك طالقًا، منذ متى وبنات الجبابرة تهان أو تضرب يا رئيسة؟ هل مددت يدي بالسوء عليك في يوم؟ هل والدي أو أخي فعلا ذلك؟

- قال لن يفعل مرة أخرى.

- ابعثي بطلب همام هنالك حديث بيني وبينه.

- هل من شيء يا حاج؟

- نعم هنالك موضوع ولا تسأليني ما هو.

سكتت المرأة وكلها تحرق لمعرفة الأمر الذي قد يكون بين جابر وهمام فهما لا يجتمعان معًا أبدًا ولا يتفقان. دخل همام على جابر، علق عباءته وتربع أمام صندلية النار بجوار أخيه جابر الذي حاول اصطناع الهدوء وثبات الأمر.

- شكلك متكدر.

- لا بالعكس يا أخي، أبوك عازم على الزواج.

- وما رأيك أنت يا جابر؟

- الأم ماتت رحمة الله عليها وأبوك على قيد الحياة بلا زوجة وهذا حقه.

- المهم أن تكون كبيرة السن لا تنجب.

ضحك جابر ثم قال غامزًا بعينه:

- فيما يبدو أن والدك ما يزال قويًا، فهل نحرمه نحن من أن يعيش شبابه، إن عينه مصوبة نحو فتاة بكر لم تمس، لقد قرر أبوك الزواج بابنة خادمنا خليل.

قفز همام كما لو كان لدغه عقرب، أطاح بصينية الشاي التي أمامه لكن جابرًا أمسك بذراعه يشد عليه:

- اجلس يا أخي تلك الأمور لا تتوجب العصبية أنت تعرف طبع أبيك، هل تريد مصيرًا لك مثل عبد الحكيم المنبوذ؟ على الأقل أقام لكل منا مشروعه الخاص ونحن إن لم نقف بجانبه لحرمنا ولتزوج هو من خضرا وسكب أمواله كلها فوق حجرها، ما لك ترتجف هكذا! كن صلبًا واستعمل عقلك.

كانت عضلات وجه همام ترتعش وهو جالس مدهوش يحدق في النار بينما يستمع لكلام أخيه، وبعدما انتهى من حديثه قال بصوت مخنوق أجش:

- خضرا تصبح زوجة أبي، خضرا تصبح حماة زوجتي ووجب على الكل طاعتها، وخليل يصبح صهرنا لقد جن الشيخ وذهب عقله.

- أنت حر لكنه على كل حال سوف يتزوجها.

نهض همام مخرجًا من جيبه زجاجة خمر سكبها في جوفه ثم راح يدور حول نفسه، يذهب ويجيء في الغرفة بينما هو يسب خضرا ويلعنها هي ووالدها بأقذع الكلمات وأفحشها، وأخيرًا لما تعب توقف متنهدًا، سأله جابر:

- هل أخرجت طاقة غيظك؟ أليس الأفضل من ذلك أن توفر قواك لعملك والتفكير كيف ستكسب من وراء والدك قبل وفاته؟

رجع همام وجلس أمام النار وقال:

- إن أراد أن يتزوجها فليفعل لكن يوزع أملاكه فيما بيننا بشكل رسمي مختوم وموقع وسط شهود.

- يا ليت! سنعرض عليه تلك الفكرة عن طريق عبد الشكور، أنا لن أستطيع محادثته بشكل مباشر وأقول له تخلَ عن ثروتك.

- فكرة جيدة، هكذا تكون قد هدأت سريرتي. متى سيذهب أولادك لشراء العبيد؟

- ربما أسبوع، بعدما يسافر والدك القاهرة ليخطب لعبد الحكيم.

- إنها المصائب إن توالت.. عريس آخر وأبناء آخرون.

- أنت غريب يا أخي بعقلك هل تظن أن عبد الحكيم لن يتزوج البتة؟ هذه المرة النسب مشرف سيأتي على الكل بالخير.

- على بركة الله.



كان خليل يسقي الدواب حين ناداه عبد الجبار فهرول الرجل نحوه يسأله عن حاجته لينفذها، لم يلبث أن وقف خليل أمامه مذعنًا حتى قال له عبد الجبار وبدون مقدمات:

- جهز ابنتك يا خليل، لقد اخترتها عروسًا لي.

ثم ولى عبد الجبار ظهره عن خليل متجهًا للدار يدق الأرض بعصاه، بينما ظل خليل واقفًا في مكانه مبهوتًا يفرك في عينيه ظانًا أن الذي هو فيه حلم. لم يسمع حديثهما سوى بشير الذي لم يصدق هو الآخر ما وصل إلى سمعه، إنه وقد اتفق في وقت لاحق مع باقي العبيد للتخلص من أبناء جابر أثناء ذهابهم لشراء العبيد لم يكن في حسبانه أن الشيخ العجوز ربما سيتزوج مرة أخرى، وليس هذا وحسب وإنما بفتاة شابة ولادة يمضي أولاده منها الواحد تلو الآخر.

لم يكن من خليل بعدما لطم خده وقرص جلده وشد شعره وتيقن أنه لا يزال متيقظًا وأن طلب عبد الجبار لم يكن حلمًا إنما حقيقة تماثل حقيقة الشمس فوق رأسه، لم يكن منه إلا راح يركض ليبشر زوجته التي ظل ينادي عليها وهو في الطريق في استغراب من الناس وتعجب، فالرجل عقد جلبابه على خصره يرقص في الشارع على نفخ مزمار لا يسمعه سواه، يرفع ساقًا ويستند على الأخرى وهو يدور حول نفسه ثم يلتقط عصا من الأرض يلوح بها ويمسكها من طرفيها متمايلًا، وعلى هذا الحال كان خليل حتى دخل البستان يبحث عن زوجته التي كانت منشغلة بطحن الغلال بالرحايا تقطع الملل بأغنية عادة ما تغنيها النساء في الأفراح.

- قريبًا ستغنيها يا عوالي لابنتك خضرا قريبًا.

- خليل أنت هنا، هل وافقت على طلب عابد؟

- لقد أتيتك ببشرى سارة ومفاجأة كبيرة، أين هي خضرا الآن؟

- في منزل همام لعلها تحلب لهم البقرات.

- اطلبي منها أن تكف عن الذهاب إلى هناك، لقد استدعاني منذ قليل الحاج عبد الجبار، قال لي اجلس يا خليل، كان صوته أحلى من العسل آه لو كنت سمعتيه أحلى من العسل يا عوالي، جلست على الأرض فقال تعال هنا بجواري وليس على الأرض، المائدة ممدودة أمامي بالفواكه مد يده لي ببرتقالة مصرًا على أن آخذها ثم وضع يده على كتفي وطلب مني يد ابنتك المصونه خضرا.

ضربت عوالي بكفها فوق صدرها وهي تقول:

- وماذا عساه يريد بالزواج ابن السبعين يا رجل؟

- لا تقولي ابن سبعين إنه لا يزال في الستين من عمره، رجل حكيم الكبير قبل الصغير يحترمه وهو عالي المكانة وجيه أم تراك نسيت من يكون الحاج عبد الجبار؟ أنت ما كنت لتحلمين بنسب كهذا في عمرك.

- أنت ناقص العقل مثله يا رجل، منكما لله أنتما الاثنين.

- وأنا سوف ألقي بك من الشرفة وأتزوج عليك، صحيح ناقصة عقل، إن عقلك أصغر من عقل فرخ صغير، أقول لك عبد الجبار يطلب يد ابنتك ثم إنه من تكون ابنتك تلك والله إني لأستكثر عليها الحاج.

ضمت عوالي شفتيها في غيظ تضرب بيديها فوق ركبتيها ثم قالت مرة واحدة:

- لا ضمير ولا خجل ولا دين، إني لأرضى على خضرا أن يكون القبر قبلتها على أن يكون فراش الرجل السبعيني مرقدها.

- اخرسي يا خرقاء أنت أم أنت، أنت قوقة، بومة نواحة؟ إن الرجل سيحفها ويحفنا برحمته أي ضرر سيلحق بابنتك إن كانت سترقد في فراش بداخل قصر، ثم كيف سأرفض لعله قد يقطع لساني فلا أقدر على قول لا أو نعم، وسوف يطردني بعد ذلك لا أحمل من الدنيا سوى زوجة نواحة وابنة بائسة.

أخذت عوالي تبكي بمرارة:

- لن ترتاح ابنتك يا خليل، سيكرهها الجميع، كل الجبابرة سيكرهونها، وسوف يلاحقونها بكلمات ستسم بدنها وسيكون الدار الكبير سجنًا لن تضحك فيه مرة، إنك يا خليل كمن تعد العصافير قبل اصطيادها؟

- هل لديك حل آخر يا عوالي غير التشرد لو قلنا لا، وهل خضرا ليست غالية عندي؟ أنا والله ما أردت بهذا النسب إلا سعادتها وراحتها، ها هما بنتاي الأخريان قد تزوجتا كل واحدة من شاب يتفتق عضله قوة وفتوة لو ضرب الجبل لفتته، يحبانهما أشد الحب ويعزانهما أشد الإعزاز والاحترام، تراهما سعيدتان؟ أبدًا ليستا كذلك.

- لكن خضرا قلبها يميل ناحية عابد علام ننكر؟

فيما يبدو أن الكلام عن عابد لم يعجب خليلًا فهب من مكانه ممسكًا برأس زوجته، وكانت عوالي امرأة عريضة الكتفين كثيفة العظام وإن لم تكن ممتلئة الجسد بارزة البطن مترهلة الجلد كما الحال مع رئيسة وسنية، طويلة بمقدار شبر زائد عن خليل ذات هيئة صلبة جامدة وذلك لما أضفاه عليها طبيعة عملها وكدها الشاق في الخدمة، فقد كانت إن شمرت عن ساعديها كشفت عن عضلات واضحة، وبالرغم من قوة بنيتها لم تكن لتستخدم قوتها ضد خليل الذي هو دائم

الضرب والتوبيخ لها، ولم تكن لتستخدمها ضد أي مخلوق كان بل بالعكس كانت لينة رؤفة طيبة القلب وصبورة، تتلقى كدمات زوجها وشتائم مرؤوسيها في صمت، لكنها في تلك المرة لم تقو على الاحتمال فأزاحت كفي خليل من فوق رأسها بعنف طارحة إياه أرضًا لينبطح خليل على ظهره وتتركه باحثة عن ابنتها تكيل اللعنات على زوجها وعبد الجبار وأبنائه وزوجاتهم وكل الجبابرة.



-١٧-

مع حلول الأصيل عادت خضرا إلى المنزل، الحجره الفقيرة في بستان العنب، قابلت أمها عند عتبتها وقد اتكأت برأسها على الحائط الطيني، ابتسمت خضرا في وجه أمها ثم انحنت لتقترب بوجهها ناحيتها مدعية العبوس مداعبة أمها:

- ما بك هل ضايقك هذا الرجل خليل؟

- لا يا خضرا لم يفعل، تعالي يا ابنتي واجلسي بجواري هنالك حديث بيني وبينك.

خلعت خضرا عنها ملاءتها مودعة إياها على وتد ثم جلست بجوار والدتها.

- خضرا لا تذهبي لدار عبد الجبار هذه الأيام.

ضحكت خضرا من قلبها وقالت:

- يا ليت يا أمي يا ليت هذا أسعد خبر سمعته في حياتي.

- خضرا يا قرة العين يا روح الروح أنت تعلمين أننا مجرد خدم والخدم لا يرقون لكونهم بشرًا لكن الله اصطفاك يا خضرا لتكونين من دون كل الخدم والعمال والأجراء بشرية كاملة.

- تكلمي يا أمي فأنا لا أفهم ألغازك.

تأوهت عوالي وقالت:

- أواه يا خضرا كم نحن فقراء ومعدومون حتى أختاك لم توفقا في زيجتيهما وإن الحمل سيزداد والمر سيصبح مرين إن لم تشفقي علينا لو قلت لا، فلا ترشين الملح فوق الجراح ولا تجعليني أقطر دمًا عوض الدمع.

- عجلي يا أمي إنما أنت تزيدين قلقي وخوفي.

وبلا مقدمات قذفت عوالي في وجه خضرا الخبر:

- عبد الجبار يريد الزواج منك.

هبت خضرا مصعوقة ترتجف ثم هوت على الأرض تبكي وتضرب رأسها وجهها بكفيها وهي تقول «يا إلهي خذ روحي إليك ولا تملك نفسي لذلك الشخص». ثم ظلت تتشنج ضاربة وجهها المبلل بالدموع تردد كلمة واحدة:

- حرام، حرام يا ربي حرام.

عانقت الأم ابنتها ملتصقة بها وهي تصرخ:

- أين أنت يا موت لتنقذني من عاري، والله يا ابنتي ما أردت بيعك لذلك العجوز لكنه والدك.

انكلمت خضرا طوال اليوم بما سمعته أمها ولم يغفُ لها جفن حتى اليوم التالي



-١٨-

في حي العباسية بالقاهرة/ فيلا داوود سكرتير المهردار..

كان وجه البدر مكتملًا ينتصف السماء في ليلة هي الأكثر صفاءً منذ حلول الربيع، انعكس الضوء اللجيني فوق أوراق شجر الصفصاف والزيزفون والبلوط العامرة، متألقًا بين الأغصان الزاهرة لشجر التين والخوخ والرمان في الروض الفسيح أمام فيلا داوود سكرتير المهردار، توسط الروض نافورة مياه مدرجة التصميم يتدفق منها الماء رائقًا بداخل حوض سداسي الشكل مكسوة حوافه بالفسيفساء وقطع القيشاني الأزرق والفيروزي.

وكان الأسمر يراقب الصهباء عبر أصيص الزهور الفخار.. انشق وجه الصبي عن ابتسامة تقابلت بمدامع الجميلة المسكوب منها سحرها الكامن في محاجرها رقرقات دموع بلّورية شفافة أطلقت معها العنان لإحساسها عبر اللحن الرومانسي الحزين الذي كانت تعزفه، وكان العندليب في تلك الليلة قلقًا يعانق صوته صوت الموسيقى، صوت يسيل له الوجد سرورًا وشجنًا وتمتلئ به النفس رضًا وسكونًا في نفس الوقت.

الصبي كان ابن أحد عمال الفيلا أما الفتاة فقد كانت جوزال العروس المرجوة لعبد الحكيم ابن عبد الجبار، فتاة جمالها أوروبي رائق وناعم مثل الموسيقى التي كانت تعزف، رقد شعرها الذهبي منسدلًا على كتفيها مفروقًا من المنتصف عند جبهتها العريضة قليلًا فوق عينين ضيقتين تلمع فيهما خرزتان زرقاوان براقتان، لم يكن أنف الجميلة، والجميلة هو معنى اسم جوزال التركي، من شدة رقته يكاد يرى أو لربما لكونه شيد فوق شفتين كرزيتي اللون ممتلئتين، ووجنتان بارزتان يشبهان بواكر تفاحتين وقد نضجتا حمراوين قبل الأوان، انسدل حتى الأرضية

الرخام فستانها اللازوردي لا يحدد من جسدها الزهري سوى خصر نحيف حدد بشريط ستان أغمق درجتين من لون قماش الثوب الحرير، ولم يكن الفستان يكشف إلا عن رقبة طويلة كشريان نهر من النحر إلى الذقن.

في الصالون القابع في قاعة الموسيقى كانت الأختان جولفدان ولاله زار جالستين يستمعان للحن وأثناء استمتاعهما بالعزف بينما يرتشفان القهوة، تنهدت الأم لاله زار وقالت:

- إنها تعزف من قلبها يا جولفدان.

- نعم يا عزيزتي واضح جدًا البؤس في اللحن.

- يا لغرابة الدنيا إنها الأجمل والأرق والأكثر علمًا وتحضرًا لكن حظها هو الأسوأ على الاطلاق، سيئ للغاية مثل حظ فتاة فقيرة ودميمة.

- ليس عليك قول ذلك يا لاله جوزال فتاة لا تستحق منك هذا التقدير الذي لا يتناسب وشخصيتها كيف تشبهينها بفتاة فقيرة دميمة، من وجهة نظري أنك وإن وافقت على طلب عبد الشكور لكانت جوزال الأوفر حظًا.

- لا داعي للتحدث في ذلك الأمر فداوود غير مقتنع بتزويج ابنته من ابن فلاح من الصعيد لو كان لي الخيار لما ترددت ولكن.

- لقد استقرت الكآبة بقلب ابنته يا لاله وقد تجاوزت الخامسة والعشرين بلا زواج ولا يزال زوجك متحفظًا على أمور ليس لها علاقة بالواقع، إن عبد الحكيم شاب تلقى تعليمه في أرقى الجامعات البريطانية وأبوه أغنى منه هو شخصيًا، ألا تعقلين هذا الزوج؟

- أوه يا جلفدان إن بشرة جوزال حساسة ها هو الصيف قادم وأفكر بإرسالها عند أختها في تركيا أو خالها في فرنسا، ماذا تقولين في أمر جو الصعيد إذًا ستموت ابنتي مما لا شك فيه.

- ومن قال لك أنها سوف تعيش في الصعيد عبد الحكيم عمله في القاهرة.

- وحتى القاهرة جوها غير مناسب.

صمتت لاله زار هنيهة ثم قالت بأسف

- ماذا لو رفضها ابن الفلاح كسابقيه، لن يكون هينًا على قلبها المجروح إن ذلك الرفض سوف يقتلها حتمًا.. لنغلق هذا الحديث ها هي جوزال آتية.

تأتي من آخر القاعة الجميلة تجر قدمًا ضرها شلل الأطفال حينما كانت في الثالثة من عمرها، جلست بجوار عمتها شبكت أصابع كفيها بعضها ببعض، ابتسمت ناحية خالتها وقالت:

- بينما كنت أعزف تغافلت أذناك جولفدان هانم.

- لم يحدث جميلتي وقد كان عزفك رائعًا جدًا لقد خطف قلبي.

- فيم كنت تثرثرين مع والدتي إذًا؟

- نثرثر عنك وعن الفارس الذي سوف يخطفك منا عن قريب.

توجه وجه جوزال ناحية النافذة حيث الصبي لا يزال واقفًا ينظر إليها، أطبقت جفونها ملتمسة الثبات وهي تقول:

- ألا يوجد حديث آخر يخصني غير هذا الحديث، إن هذا الموضوع أصبح غير مهم بالنسبة لي وسوف أتطوع قريبًا للعمل في إحدى الجمعيات الخيرية لمساعدة المرضى الفقراء.

قاطعتها لاله زار قائلة بغضب:

- إن زواجك بعبد الحكيم ابن الفلاح لهو أهون عندي من تعاملك مع المتشردين وهؤلاء القذرين، إنني لا أتصور شخصًا في حياتي جلده لم يمسسه العطر، إنهم هؤلاء الأوساخ يفعلون لقد سألت زوجة الجنايني عن نوع عطرها فلم تفهم معنى الكلمة من الأساس، إنهم على الأرجح يعانون نقصًا في الإنسانية، إننا نعطيهم أجرة لماذا لا يشترون العطر؟

- ماما إنهم نظيفون وهذا يكفي.

- لا لا تقولي ذلك ألا تشمين رائحة عرقهم الملتصق برائحة الطين والبصل وخليط روائح الطعام والجاز؟ أوووف لا أحتمل التفكير فيها حتى، كيف ستتعاملين معهم؟

- لأجل ماذا رائحتهم غير طيبة؟ لأجل من إذًا ماما؟ أليس ذلك العرق ناتج عن كدهم في خدمتنا وخدمة حديقتنا وتحضير الطعام لنا؟ إنهم يعرقون كي نوفر نحن عرقنا. كوني لطيفة معهم يا ماما وفكري في تعبهم من أجلنا فكري في أننا بدونهم سوف نفقد الكثير من رفاهيتنا وجمالنا، وها أنت في منتصف الأربعين من عمرك ومن يراك يقول أنك في عمري، فكري لماذا لا تزالين محتفظة بجمالك بينما زوجة الجنايني لا تستطيع؟ لأنك يا ماما منعمة وجسدك غير مرهق مثلها.

- شكرًا يا جوزال على لفتتك الطيبة عن أمك.

- انظري يا ماما حتى إنك لم تنتبهي إلا لحديثي عن جمالك.

قاطعت حديثهما جولفدان:

- كفى مناقرة راعيا وجودي رجاءً.

- آسفة جولفدان هانم.

- ها أنا أرى داوود باشا وقد أطل علينا وسوف أفتح معه موضوع عبد الحكيم بنفسي.

استحكم الحياء على جوزال واستأذنت بالرحيل.

أقبل رجل حنطي اللون طويل القامة يتكور كرشه أمامه يمشي رافعًا رأسه الذي غطا المشيب شعره الكث، وكان داوود مهجن الأصل فوالده لم يكن مصريًا بل سودانيًا من أصل بسيط، فلم يكن والده سوى مرشد لأندريه ميلي السويسري الأصل البريطاني الجنسية في رحلته للسودان، وقد امتدت علاقات أندريه الدبلوماسية

ما بين بريطانيا ومصر والسودان وعلى يد أندريه تعرفت بريطانيا على القطن المصري والفول، أما والد داوود فقد كان بجانب كونه مرشدًا كان مدونًا لقصص ميلي وحياته وقد حفظت ذاكرته سيرته الذاتية بداخل عقله يقصها على ابنه الكبير داوود باستمرار، وكان داوود قد أعجب بحكمة بيلي وسياسته في التجارة خاصة تجارة الأقطان، تعلم داوود في مصر بواسطة منحة من المندوب البريطاني ذات نفسه واستقر بعدها في مصر وتعرف فيها على زوجته لاله زار تركية الأصل، والتي كانت تعمل والدتها وصيفة في القصر الخديوي وأنجب منها ولدين وفتاتين أكبرهم كانت جوزال، ولما تحدثت لاله زار لزوجها في أمر عبد الحكيم لم يكن رافضًا بل تشجع وقبل على الفور إذ إنه يعرف بأن عبد الجبار يعمل في مجال التجارة خاصة تجارة الأقطان.

اجتر داود ذكريات قصص والده عن مثله الأعلى ميليو كما أجج بداخله الحلم القديم بأن يكون تاجرًا للأقطان على نطاق دولي كبير يشمل أوروبا، وكم من الليالي راوده حلم بأنه وقد صبغت أراضي مصر بأكملها بأبيض القطن يتمرغ هو فوقه بمفرده، لكن لاله زار قد وجدت في هذا النسب عارًا ونقصًا وداوود وإن كان مغرورًا إلا إنه لم يكن في يوم متكبرًا بل على العكس، كان طيب المعشر حلو اللسان سخي اليد على العاملين تحت يده والخدم من أصغرهم لأكبرهم، فلقد ولد في منزل بسيط وكانت والدته امرأة تخبز الخبز والقرص بيدها، ووقت سفر زوجها كانت لا تجد حرجًا في وضع مشنة الخبز فوق رأسها ممسكة بيدها داوود والذهاب للسوق وبيع الخبز.

وقد ذاق داوود طعم الجوع وشعور الحاجة في صغره فرقق ذلك من قلبه اتجاه الضعفاء والبسطاء ولم يولد فيه عقدًا أو نقصًا، ولم يخلق فيه جفاف الحياة قسوة وغلظة على عكس زوجته لاله زار التي ما استطاعت التخلص من عقدة كون والدتها وجدتها كانتا تعملان وصيفتين في القصر الخيديوي، وكثيرًا ما كانت لاله زار تشعر بحقد على الأميرات وحسد، توبخ والدتها إن منت عليها الأميرات بفساتين لهن تغيرت مقاساتها أو قدمت متمنية لو أنها ارتدت تلك الملابس قبلهن، ولم تكن

بقرارة نفسها تنظر لحال والدتها وجدتها وخالاتها إلا كخادمات حقيرات تحت إمرة وسطوة نساء غيرهن؛ لذا رفضت تمامًا العمل كوصيفة مثل أختها جولفدان وكانت إذا ما واتتها الفرصة أخرجت عقدها وأحقادها الكامنة مسقطة إياهم على الخدم والعبيد والموظفين الصغار وزوجاتهن مبدية كبرًا وتأففًا واضحًا.

لما أحست لاله زار بميل داوود اتجاه تزويج ابنته من عبد الحكيم فإنها غالطت في القول أمام أختها جولفدان بادعاء أن داوود رافض للفكرة من الأساس، وقد اتضحت الحقائق أمام جولفدان لما فتحت الموضوع مع داوود شخصيًا ووجدت منه ترحيبًا وقبولًا، لم تشأ الأخت إحراج أختها بأن لم تعاتبها من الأساس وأخذت خبر موافقة داوود وراحت تزفه لزوجها عبد الشكور، الذي ما إن وصله الخبر حتى طار به إلى عبد الجبار الذي حدد موعدًا للسفر للقاهرة وخطبة عبد الحكيم لجوزال، والترتيب لأمور الزفاف فلا يعقل أن يتزوج هو قبل أن يزوج ابنه.



في يامنة..

رئيسة وسنية جالستان الآن بقرب موقد الغاز، تتقد شعلة عيونهما أكثر من اتقاد شعلته وها قد عرفا بأن حماهما سوف يولي خضرا ابنة خادمهم خليل فوق إمرتهما، لم يعد الأمر سرًا فلقد جمعهم العجوز جميعًا أبناء وزوجات وأحفاد وألقى بصاعقة الخبر فوق رؤوسهم قبل سفره، تلقى الجمع الضربة مسهمين غير ناطقين لا بموافقة أو اعتراض، وكان عبد الجبار راضيًا عن خنوعهم وإذعانهم.

كانت الكنتان عابستين لما حل فوق رأسيهما، إنهما طوال الشهور السابقة ما توانوا عن السهر لخدمة حماهما والوقوف على أوامره وخدمته بأنفسهما خوفًا من أن يأتي ذلك اليوم وما كانتا تتوقعان حدوثه بهذا الشكل، وراحتا تتخيلان خضرا وقد أصبحت حماتهما المستقبلية المقربة المحبوبة عند حماهما، وكيف أنها

بجمالها وشبابها سوف تسرق الرجل العجوز لتجعله خاتمًا في يدها. دام صمت الكنتين يتبادل خيالهما الحديث عوضًا عنهما.

في الطابق العلوي كانت تتمايل أمام مرآتها زهوًا وفرحًا بما حققت، لن يتزوج عابد من خضرا وسيصبح ملك قلبها وحدها، لكن مهلًا ما الذي فعلت؟ اقتربت تهاني أكثر من المرآة، إنه وجه تهاني وليس خضرا، وقلب عابد سيظل يراها تهاني وليست خضرا، إنه يهيم حبًا بالخادمة التي يشبه حالها حاله؟ إنها لم تفعل شيئًا سوى كسر قلب حبيبها. أسبلت عينيها مليًا ثم عاودت التمايل منفضة الأفكار السلبية من رأسها والآمال تتراقص من حولها، سوف تغوي عابدًا وسيقع أسيرًا لجمالها، ولن تحرره من قبضة قلبها ما حيت.



زيدان جالس مع عيد وقد وصل لسمعيهما الخبر من خليل ذات نفسه العصر حين دخل عليهما السقيفة، يمشي مهلًا كما لو كان خائفًا من إفزاع طائر السعد الذي حط على كتفيه بطلب عبد الجبار الزواج بابنته ولم يكن عابد موجودًا ساعتها، بعدها بقليل دخل عليهما فرج يستأذن الدخول:

- يا ساتر سترك على العبيد.

لم يكن أحد في يامنة يعرف بنية زواج عابد بخضرا سوى صديقيه زيدان وعيد، إذ إن الفتى خشي إن ذاع خبر طلبه قبل أن يشهر خطبته عليها أن تطول ألسنة الغيبة والنميمة خضرا بالسوء، فيحسب من في قلبه مرض أن ثمة علاقة محرمة تجمعهما وهما بريئان وحبهما طاهر من أي افتراء. لكن وما دامت الأمور تحولت لهذه الشناعة بأن يبيع الرجل ابنته للعجوز فلا بد أن يتدخل في الأمر رجل حكيم عليم لديه من الخبرة الكافية قدر لإيجاد حل لتلك المصيبة التي حلت فوق رأسه صديقهما، سمع فرج منهما ثم أطرق مفكرًا وقال بعصبية:

- عبد الجبار مثل الحدأة من يومه لا يترك قطعة أرض إلا وسال لعابه عليها واقتنصها ولو بالزيف والخداع، لكن أن يصل به الجشع أن يتربص لاقتناص خضرا، ما ذنبها الفتاة المسكينة، يا لتقلب القدر الذي جعل عبد الجبار الطماع الفاجر قادرًا على قطف القمر من منزله، وعابد الفتى التقي الفاضل غير قادر على مد يده إلى جيبه يا لغدر الدنيا الدنية!

رد عيد بلهجة قنوط:

- وماذا يطلع باليد يا عم فرج؟

هنا اغرورقت عينا زيدان فقال:

- إن قلبي يتقطع على صديقي عابد إنه يحب الفتاة بصدق.. يلعن الفقر الذي يجعل الأب يبيع شرفه، إنه يبيع شرفه بعقد على عين كل الناس، لقد تمادى في الظلم مثل سيده هو الآخر، عاجلًا أم آجلا سوف يعرف عابد، علينا إيجاد كلام يهون على الشاب همه.

رد عليه عيد:

- بالله عليك حاول إيجاد مخرج حقيقي غير الكلام ندعمه به كي لا يتحطم القلبان، علينا ألا نخضع لليأس يا عمي.

اقترح زيدان:

- لا حل سوى تزويج خضرا من عابد ومساعدتهما في الخروج من أرض الظلم «يامنة».



وعلى صدد المصيبة التي حلت فوق رؤوس أبناء عبد الجبار وخضرا وعابد، كان جابر يسير في خطته التي أوزع بها الشيطان لعقله وهي اختطاف خضرا ومن ثم الزواج بها ولو غصبًا، اجتمع جابر بقاطع الطرق المعروف باسم الثعلب وكان

يحضر الاجتماع العبدان خبير ومرشد. كان اجتماعهما خارج الديار بعيدًا عن عيون الوالد والأخ والزوجة والابن لكنه لم يكن ببعيد عن عبيد الأسياد، والذين قد تم اعتبارهم أفرادًا من العائلة أكثر قربًا لأسيادهم من ذويهم ذات أنفسهم، لدرجة الائتمان المطلق لهم على الأسرار والأمانات وذلك بعد تمكنهم من حصد ثقة أسيادهم.

بداخل مغارة في الهضاب المسماة بالجبل الغربي كان الجو باردًا بشكل خاص عن مركز البلدة وسط البيوت المتلاصقة، وعلى الرغم من الجمر المتقد الذي كان يسمن أول بأول بالحطب الجاف يلقى في النار فيقرقع كالزجاج المجروش، فضلًا عن فرو الأغنام الذي كسيت به أرض المغارة فإنه لم يمنع الصقيع من التسرب من عمق الصخر في الكهف إلى جوف الأجساد، جلس جابر فوق حجر أملس فرش باللباد، يحمل نظرة يملأها الشر تخرج أنفاسه بسعار الغضب، يجاوره على اليمين خبير وعلى الشمال مرسال وأمامه على حجر آخر كان يجلس الثعلب، المغارة لم تكن تظهر وسعها لما امتلأت به من أدوات قتالية كالسيوف والهراوات والخناجر وبعض قطع السلاح وذخائرها، على الحائط الصلف الملتف والمتعرج بالنتوئات الصخرية علقت حيوات محنطة برية، ثعالب وذئاب وثعابين ورأس وعل محنط بقرون طويلة ملتوية، كانت جلبة صهيل الخيول ورغاء الجمال الواقفة خارج المغارة أسفل السماء الحالكة ليست بعيدة عن آذان من بالداخل كلحن غير منتظم الإيقاع، بدأ جابر في الحديث مفصحًا عن نواياه القذرة اتجاه الفتاة التي لا حول لها ولا قوة.



قضت خضرا أسبوعًا في عذاب منذ أن أخبرتها والدتها، ماذا تفعل بقلبها؟ لو أنه لم يكن معلقًا بالفتى الأسمر لكان الأمر أهون ولتقبلت زواجها من السيد العجوز كقدر محتوم وانتهى الأمر، ولو كان بيدها لكانت انتزعت قلبها من بين ضلوعها بيدها، أي شرك هذا الذي وقعت فيه وأصبح جل أملها في الموت أن يخلصها من عذابها. إنها تحب عابدًا بكل كيانها هذا الرجل الذي حمل شجاعة

رجولية وخلقًا إنسانيًا يتحاكى به الخلق، حتى والدها الذي ما إن أتت سيرة عابد حتى يثني عليه وكان يتغزل في شمائله ومواقفه كأنه خلق كما لم يخلق رجل مثله من قبل، ثم تمر صورة عبد الجبار أمام خيال خضرا، رجل بعيون نهمة ووجه ساخط تعوزه السماحة والبشاشة، رجل شهواني تعوزه الرجولة الحقيقية.

لكن على من تستند؟ على من تعول بهمها وتبوح؟ إنها منذ اللحظة المشؤومة التي عرفت فيها الخبر أصبحت مراقبة من قبل أمها وأبيها لا يشغلهما شاغل غير مراقبتها إلى أن يسلمانها لقدرها، بدون أن تحرك دموعها في قلب أبيها أي أثر من الشفقة، وكانت الأم تغالط نفسها بقولها إن البنات جميعهن قبيل زفافهن يبكين وينتحبن رهبة مما هن عليه قادمات. وكانت تفرد الهدايا والثياب الجديدة التي كان يرسل بها عبد الجبار أمامها لعلها تقر عينًا وتبتهج نفسها لكن تلك الهدايا لم تكن إلا لتزيد من نيران قلب الصبية.

لم تكف خضرا عن التفكير في عابد وهل عرف بالخبر المشؤوم أم لا، تفكر في حاله وقد أصبح كسيرًا مثلها تتمنى لو تلقاه ولو في الحلم لتضع رأسها فوق صدره لتطمئن نفسها بدقات قلبه وتستكين، ولكن أين هو؟ وقد أصبح اسمه محرمًا نطقه في البيت، فتحول بنظرها يائسة نحو النافذة لتنفذ نظراتها عبر حمرة الغروب المتدرجة في السماء تسبح في هوائها ذرات الدخان الضاربة إلى السواد من فوق أسطح البيوت الطينية تهمس شفتيها بدون صوت، أين أنت يا عابد؟ أين أنت؟

عابد في تلك الأيام كان قد طلبه قمصان لعصر العنب في معصرة الخمارة في البستان متحججًا بالقدر الكبير للعنب، والذي يلزمه قوة ذراعين مفتولي العضل كذراعي عابد وفي حقيقة الأمر فقد أتى به قمصان لا لشيء إلا لإذلاله وإخضاعه، لكن عابدًا رفض أن يكمل العمل في معصرة الخمارة وحالت كرامته بينه وبين قمصان ليترك عمله فيها بعد عشرة أيام، بعد عابد عن الدوار والقرية باعد بينه وبين خبر زواج عبد الجبار من خضرا، لكنه كان سيعرف بأي حال وقد حدث ذلك في ذلك اليوم.

الوقت بعد صلاة العشاء وعابد كان قد دخل القرية منذ ساعة قضاها بداخل الزاوية، فكر في أنه لو ذهب لدوار عبد الجبار فقد يصطدم هنالك بقمصان ولن يكون من الجيد في هذا الحين اجترار المشاكل في الوقت الذي يريد فيه أن يطلب يد خضرا من عبد الجبار نفسه، بعدما يئس من مماطلة خليل وتأجيله لذا قرر الذهاب لدار صديقه زيدان.

وضعت فتحية أم زيدان أمام ابنها طبق العصيدة وراحت تفتح معه أمر زواجه من فرحة، وفي هذه الأيام كان زيدان مهمومًا إلى الحد الذي لم يكن لديه الحلم للاستماع لأحد أو الدخول في أي مناقشات، وكان جل همه في كيفية إيصال أمر نية عبد الجبار الزواج من خضرا وفي كل مرة كان يزور فيها الدوار فإنه كان يتحرى الأخبار، ومع ذلك لم يتسن له معرفة موعد العرس أو الترتيبات حوله غير أن عبد الجبار لا ينكف عن إرسال الهدايا لبيت خليل، وأن خليل وزوجته وابنته امتنعوا عن العمل في دور عبد الجبار وأولاده بيد أن الشكوك ساورته أنه قد يتم الزفاف على حين غرة، وقرر أن يتوجه مع حلول الصباح لبستان العنب ليأتي بعابد ويتشاور معه في أمر زواجه بخضرا.

كانت الأفكار تصول وتجول في عقل زيدان بينما كانت أمه تزايد معه في موضوع خطبته ولما رأته غائب الفكر عنها نهرته فصاح فيها، وفي تلك الأثناء كان عابد يقرع بوابة الدار، فتحت فتحية الباب وما إن رأت فتحية عابدًا حتى استنجدت به «كف أذى صديقك عني يا عابد إنه يصرخ في وجهي هل يرضيك يا عابد؟» طمئنها عابد قائلًا أنه سوف يملص لها أذنيه ويعنفه أشد تعنيف وراح لصاحبه، استقبل الصديق صديقه بود وحفاوة مقربًا منه الشاي وخبز الشعير، تمالك زيدان نفسه في الاستعجال بإخبار عابد الذي عاتبه:

- ليس عليك معاملة والدتك بتلك الطريقة يا زيدان مهما بدر منها.

- تريد تزويجي على غير رغبتي من فرحة.

- الفتاة طيبة.

- لكنها ناقصة العقل يا عابد، دائمة الضحك ما إن تراني حتى تضج بالضحك، أعبس ﬞ وجهها فتضحك، أشتمها فتضحك أكثر، أضربها فتموت على نفسها من الضحك كيف ستكون الحياة معها تلك؟

- ستكون جميلة يا صديق لقد ضمنت أنها لن تنكد عليك أبدًا.

- لكن ضحكها يستفزني أكثر من النكد، والعجيب أن أمها عدادة تعدد وتنوح ﬞ المآتم وهي ضحاكة. ﬞ يوم والكلام على لسان أمها، أخذتها معها ﬞ عزاء وقالت تعلمها المهنة وهمست ﬞ أذنها أن تقلدها ﬞ كل فعل وقول وصوت، بربك هذه الهبلة ماذا فعلت؟ كانت أمها تصرخ وتولول وتعدد وفرحة كانت تشير عليها وتضحك، الأم تعلو بصراخها والابنة تصدح بالضحك حتى جعلت المعزيات يضحكن هن الأخريات، وراحت هيبة العزاء وضاعت كرامة الميت.

ضحك عابد من قلبه وربت على كتف صديقه قائلًا:

- ستتزوج ولن تعتزل البكاء، أعدك يا صديق. ثم إن تلك فطرتها حين يحاول البعض يا زيدان التخلص من خصالهم العفوية يتحولون لثقال دم. أنت مثلًا جميل حتى ﬞ عثراتك وهبلك وجنونك غير المبرر فلا داعي للتحجر.

صمت زيدان، استأذن من عابد الدخول للحمام لكنه ما لبث أن رجع، وقف قليلًا يتأفف من الحر طالبًا من صديقه الخروج إلى عتبة الدار لكنه سريعًا غير رأيه ليجلس بجوار صديقه:

- هنالك أمر يا عابد، لكن عدني ﬞ البداية أن تكون رابط الجأش كعادتي بك يا صديقي.

- قل يا زيدان كلي آذان صاغية، أنت لست على ما يرام.

- لقد كنت عازمًا على الذهاب إليك ﬞ الصباح لكنك سبقتني وأتيت، وكأن الأرواح نادت بعضها بعضًا، قلبي عندك يا عابد فيما سوف تسمعه مني، لكن مشاعرك صلبة كالصلب، أعلم.

سكت زيدان ثم نزع الطاقية من فوق رأسه ورماها وهو يعض على شفاه السفلى بقواطعه بعدها أكمل متحاملًا على نفسه:

- خضرا.

اهتز كوب الشاي في يد عابد وهو يتأهب لسماع التالي من زيدان.

- خضرا سوف تتزوج بسيدك عبد الجبار.

انكسر الكوب في يد عابد منفجرًا بدمائه التي سالت مع الشاي المسكوب على الأرض، جحظت عيناه تكاد تخرج منهما حدقتاه ولم ينطق كأنما لسانه قد عقد، كان جسد عابد ينتفض كله غير قادر على ملاحقة أنفاسه أو ضربات قلبه، مرت دقيقة ونصف قبل أن ينطق ويقول بصوت مرتعش خافت:

- لكنني أحبها وأبوها يعلم وقد وسطت عبد الشكور ليخطبها لي من الحاج والحاج نفسه يعرف رغبتي فيها، يا للثعلب النذل، أين الشرف وأين الضمير؟!

- إن جبروتهم غيب ضميرهم وأموالهم اشترت الشرف، عن أي فضيلة تتحدث يا أخي!

هب عابد واقفًا فأمسك زيدان بجلبابه:

- إلى أين أنت ذاهب يا عابد؟

- ذاهب إلى خضرا، ذاهب لزوجتي إن بيننا عهدًا وكلمة وهي لن ترضى بخاطرها من الأكيد أنهم أجبروها.

- اعقل يا فتى من قال لك أنها زوجتك، العهود شيء والعقود شيء آخر، ماذا قررت؟

- كل ما يهمني هو خضرا يلزمني أن أعرف كيف هو حالها وإن كانت راضية أم أنها رضخت.

تنهد عابد بعمق ثم أكمل حديثه في أسى:

- ولكن كيف لي أن أراها وأعرف أخبارها، يا لقلة حيلتي وقهري.

- صحيح.. إليك رأيي أيها الأخ الصالح أنت الآن مجهد ومثقل بالحزن، أطمئنك فخضرا لا تزال في بيت والدها ولن يتم الزواج إلا بعد رجوع عبد الجبار من عند ابنه عبد الحكيم، لتفكر في طريقة للخروج بخضرا من يامنة ثم اعقد عليها.

لم يفه عابد ببنت شفة متوجهًا للباب، أوقفه زيدان قائلًا:

- لا تتهور يا عابد لا تثير الشكوك حولك.

أشار عابد مودعًا صديقه ثم رحل.



سار عابد أسفل السماء الحالكة، لا يشعر بأنه يغوص بقدميه في وحل الأرض التي انهال فوقها المطر منذ قليل، بدا له أن الجو شوب والسماء تساقط كتلًا من الجمر فوق رأسه وأن صدره ينفث بخارًا ساخنًا تجمعت فيه أنفاس كل المظلومين والمهانين والمخدوعين في يامنة، عصف بصدره شهاب من الثورة وتملكه التعطش للثأر لهم جميعًا وإرجاع الحقوق وإحقاق العدل، وغضب حارق على هذا النظام المادي المتوحش وأن عليه أن يسقط وأن يداس بأقدام كل أصحاب الحقوق لتحطيم طوق العبودية.

الوقت ناهز منتصف الليل ولا يزال عابد يطوف هائمًا على وجه قلبه غير قادر الذهاب ناحية الدار أو السكون، بدت له الدنيا بأكملها سجنًا كبيرًا، كان السجن وضيق الحال ليهون لو أن خضرا معه يكفيه ابتسامتها لتخضر الحياة وتنعم، لم يكن ليحرمها ما عاش من حبه واهتمامه ولأسكنها بأحداقه ما دامت عيونه ترمش.. لكن الآن.. ماذا الآن، ماذا بقى له من الحياة سوى ذلك النفس الذي

يجاهد للخروج من بين ضلوعه! معذب هو عابد يحترق ويحترق بدون أن يتحول إلى رماد، يصرخ بدون صوت، يعوي كذئب مجروح بأنين خافت لا تسمعه أذنيه، كبيرة كانت هي آماله، صغيرة هي الدنيا على أن تنوله إياها.

جلس عابد على مصطبة خارج الدوار قرب المدخل ضاغطًا بيديه حول رأسه بشدة، تحدوه رغبة محمومة للذهاب للبستان حيث حجرة خليل التي تعاني بين جدرانها محبوبته وإن لم يرها للثم هذه الجدران ومسح بكفيه على بابها. عزم عابد على الذهاب وليكن ما يكون، لم يقطع عابد أمتارًا معدودة حتى بلغه نداء من بعيد فالتفت عابد ناحية الصوت:

- من؟

- هذا أنا يا عابد عمك خليل.

وقف خليل قبالة عابد يحلق في وجهه وقال:

- متى عدت من معصرة العنب ولماذا أنت تسير في جناح آخر الليل هكذا، هل معك أحد؟

- عدت في المساء، حدثت مشكلة بيني وبين قمصان ولم يكن عندي رغبة بالنوم فقلت أتجول.

كان خليل يرتجف كأنما أصابه البرق فأمسك عابد بيده الباردة المرتعشة، أجهش خليل في البكاء وأثناء بكائه قال:

- ابنتي ضاعت، ربما اختطفت وقد تكون هربت، ماذا أقول لسيدي عبد الجبار؟

جفل عابد وحار معه الأمر ولكن منسوب حكمته في هذه اللحظة كان أعلى إذ تماسك وتمالك أعصابه معانقًا خليلًا في ذهول وسأله:

- كيف ومتى حدث هذا؟

لم يزل خليل يبكي وهو يروي القصة لعابد مخرجًا من أعماقه فحيحًا بين الكلمة والأخرى:

كنت أوصل سيدي عبد الجبار للمركز حيث سيركب القطار الذاهب إلى القاهرة، ودعته عند المحطة ورجعت للبيت، كان الباب مفتوحًا وكانت عوالي قد بعثت لها سنية زوجة جابر، ظننت أن خضرا معها ولكنها لما رجعت كانت بمفردها.

نكس عابد وجهه وهو يلوم الحظ، إنه ولساعات يفكر هل يذهب عند خليل أم لا. جمد عابد في مكانه كأنه استحال حجرًا فشده خليل من كتفه وقال:

- عابد إن كنت تعرف مكانها فصارحني وسوف أسامحكما وقد أزوجكما لكن يا ولدي لا تنكس رأسي في العار يا ولدي.

حلف عابد بأغلظ الأيمان أنه لم ير خضرا منذ ذهب إلى كرم العنب وإلى هذا الحين. طلب خليل منه ألا يفوه بكلمة ثم مضى الرجل يتعثر في أقدامه حتى ابتلعته العتمة مختفيًا، وظل عابد في غيبوبته.

في وقت سابق اجتمع جابر بالثعلب وطلب منه اختطاف خضرا والخروج بها من حدود يامنة وبر الصعيد بأكمله، لكن ثمة خلافًا حدث إذ نتج عن اجتماعيهما أن اتفقا على اختطاف خضرا لكن طلب الثعلب مبلغًا من المال كان في نظر جابر خرافيًا وغير مقبول؛ لذا رفض الثعلب التعاون مع جابر وأنه ليس بوسعه إلا أن يحفظ سره.

لكن الثعلب خوان ولم يكن جابر يثق في كلمة منه أو وعد، وها هو بعد أن كشف نواياه اتجاه ما سوف يدبره لوالده فهل سوف يفي بالتزام الصمت، وها قد وضع جابر نفسه في مأزق لا حيلولة منه سوى ابتزاز الثعلب بأنه إن لم يخطف الفتاة بالشروط والمبلغ الذي أقره فلسوف يحرض مأمور المركز عليه؛ لأن المأمور وإن كان متغافلًا عن المغارة وعن السلاح فيها وأفعال الثعلب وشبيحته من سرقة وإرهاب للخلق فذلك لتوصية من الجبابرة ذات أنفسهم على الثعلب لقاء ما يدفعونه من إكراميات ونفحات وهدايا للمأمور.

وقد جادله الثعلب بأن الجبابرة وإن كانوا يقومون بذلك إنما يفعلون لمصلحتهم الخاصة مجبرين أنفسهم بنفسهم إقرارًا منهم بأهمية المغارة وعصابة الثعلب، والتي تكفل للجبابرة بأراضيهم ومحاصيلهم الحماية من فقراء يامنة الذين إن واتتهم الفرصة لغرسوا أنيابهم في أجساد سادة الجبابرة وكانوا كالجرافات في الأرض والمتاع.

توقف الحديث بين الثعلب وجابر عند هذا الحد من التهديد والوعيد وكان جابر قد قرر في قرارة نفسه بأن يختطف هو خضرا بمساعدة خبير ومرشد، أما الثعلب فقد أخذ قراره بأن عليه وعلى أعدائه فإن بدأ جابر بالغدر وحرض المأمور عليه وعلى عصابته، فلسوف يبوح بسر جابر فاضحًا إياه أمام الكل بأنه كان ينوي اختطاف خطيبة والده طامعًا فيها لنفسه.

وما حدث أنه لا جابر ولا الثعلب قد خطف خضرا.

الصمت ران وكأن الأحياء ماتت وخليل يطوف كالمجذوب في شوارع يامنة غير قادر على السؤال أو النداء خوفًا من كلام الناس متجرعًا مرارة القهر. أما عابد فقد هام هو الآخر على وجهه متمعنًا في كل شيء منصتًا لكل صوت مشوش الرؤية يصعد الطريق وينحدر أمام عينه بعدما تخثرت آماله.

أصبحت الاحتمالات في عقل عابد غير نهائية ومن بين جميع الافتراضات توقف عابد عند اثنين، إما أن خضرا اختطفت أو أنها قد اختارت الموت عن معاشرة عبد الجبار متخفية تحت جنح الليل رامية نفسها في النيل، وقد صور له انعكاس القمر الأصفر الشاحب على صفحة الماء جثة خضرا طافية، وبدت له الشياطين تتنازع فوق الماء حول جثتها من سيسكنها فيهم، فبدا له النيل المسالم مريعًا ومتوحشًا.

تراجع عابد يجري كالمجذوب مبتعدًا عن الضفة حتى تعالى صوت صياح الديوك من فوق أسطح الدور ممتزجة بنداءات مؤذني مساجد يامنة، حينها لجأ عابد لأقرب مسجد قابله محتميًا بجدرانه من شياطين يامنة والشر الكائن فيها.

أما خليل فقد اقتصد طريق البحث ذاهبًا لدار عبد الشكور، وقف على بابه قرع الباب حتى تورمت كفتا يده فالوقت متأخر وأهل البيت نائمون، لم يكل خليل وراح يقرع من جديد حتى وصله صوت من داخل فناء الدار، فتح أحد أبناء عبد الشكور بوابة فناء الدار مسلطًا المصباح على وجه خليل وقال أول ما قال «والدي ليس موجودًا إنه في القاهرة منذ يومين». ثم أغلق الفتى البوابة في وجه خليل.

عدل خليل ياقة جلبابه وهو يقول «غدًا أجد ابنتي وأزوجها للحاج عبد الجبار وسوف أريك ما عاقبة أن تغلق الباب في وجه سيدك يا طائش». لم يشك خليل إلا في أمر واحد وهو أن خضرا قد هربت بمحض إرادتها فالفتاة لم تكن موافقة على الزواج من الحاج وكانت تبكي ليل نهار، لكن ما المريب في هذا فالفتيات جميعهن يبكين على اختلاف فواحدة قد تبكي ادعاءً محاولة مداراة سعادة قلبها كي لا يقال إنها فتاة عديمة الحياء، وأخرى تبكي خوفًا من رهبة اللقاء الأول والحياة الجديدة وقسوة الحماة ولؤم الكنات، لكن خضرا لم تكن تبكي لهذا أو ذاك إنما كانت تبكي رفضًا وكرهًا لعبد الجبار، ثم جال بخاطره خاطر آخر وهو أنه ربما قد خطفها عابد واستقر على ذلك لذا قرر أن يراقبه عن بعد وأن لا يرفع عينه عنه، وظل خليل يفكر بالطريقة التي سوف يكشف بها عابدًا ويسترجع ابنته حتى وصل لبيته.



-١٩-

في القاهرة..

الرسائل لم تنقطع بين تهاني وعمها عبد الحكيم كلما واتتها الفرصة كانت تبعث في الخفاء واحدة، كان الوسيط في أمر الرسائل زيدان الذي اتفق مع عبد الحكيم على علامة معينة إن وجدت فهذا يعني أن الرسالة موجهة لتهاني وليست لوالده. أمر سفر عبد الجبار للقاهرة كان فجائيًا لذا لم يتسن لها إرسال رسالة لعبد الحكيم تحذره فيها من قدوم والده لأن الوالد قرر أن يفاجئ ابنه آخذًا بشيرًا وريحان.

ودعت زين زوجها وكان لها يومين تعد للطريقة التي سوف تزف بها لعبد الحكيم خبر حملها فقررت أن لا تخبره إلا ليلة إجازته، وقضاء النهار في الإعداد لتلك الحفلة التي سوف تنطوي عليهما هما الاثنين وثالهما جنينهما. قامت زين بتسييح الشموع مضيفة لها الزيوت العطرية والزهور المجففة ثم أحضرت البرتقالات التي شقتها من المنتصف مفرغة لبها واضعة في كل نصف فتيلًا، ثم صبت مزيج الشمع العطري السائح بداخلهم وتركتهم فترة ليتجمد الشمع بداخلهم.

في اليوم السابق كانت زين قد اشترت لحمًا مقددًا من عند بيدرو الجزار الإيطالي في الحي لتعد طبقًا علمته لها صديقتها وجارتها الفرنسية فيولا، وها هي تشرع في توضيب المنزل وتعطيره وإعداد الطعام لما سمعت صوتًا أمام الباب، إنه صوت عبد الجبار الأجش الذي دائمًا عالٍ ومخيف وكيف تنساه.

وجاءها الإلهام على الفور بأن تتجه إلى المطبخ، تلفتت سريعًا زين حول نفسها كعقرب ساعة مجنون، كان في المطبخ دولاب علوي من المفترض أن يكون قد خصص لتخزين خزين المنزل من البقوليات، وقد طلبت زين من عبد الحكيم أن يستبدله

بآخر أرضي ليكون سهلًا في متناول يدها. جاءها الإلهام كومضة أول شرارة ضوء لثقاب كبريت، اتجهت نحو المطبخ، تسلقت زين بخفة ورشاقة من الدولاب الأرضي إلى الآخر العلوي المعلق في الحائط، أدخلت رأسها في البداية ومن ثم أدرجت باقي جسدها، تكورت على نفسها بداخل الصندوق الخشب الذي كان أضيق من أن يتسع لزين التي قوست ظهرها ممددة رأسها نحو ركبتيها المثنيتين والمتلاصقتين إلى جذعها، محيطة ساقيها بذراعيها متخذة وضعًا جنينيًا بداخل الخزانة.

أمام شقة عبد الحكيم كان يقف عبد الجبار متوسطًا بشيرًا وريحان بعدما رصا السلال الملأى بالخيرات بجوار أقفاص الفاكهة، ولما اطمأن عبد الجبار على تمام ما أحضر من هدايا لابنه أخرج كومة مفاتيح من جيب قفطانه وراح يتفقد كل واحد على حدة حتى طالت يده المفتاح المنشود أخيرًا، ومن حسن حظ زين أنه كان آخر مفتاح ضمن المفاتيح، كان سيفتح على الفور لكنه آثر أن يبدأ بالاستئذان فطلب من بشير أن يقرع على الباب. خمس بشير بكفه وراح يقرع بشكل منتظم بشدة فوق الباب كرجع عازف طبول أفريقية، ولما فقد الأمل في أن يفتح له أحد طلب منه عبد الجبار أن يكف معطيًا إياه المفتاح ليفتح الباب. دخل عبد الجبار مسبقًا قدمه اليمنى بقول «يا ساتر». اتجه عبد الجبار لحجرة الضيوف، جلس متكئًا على عصاه ينتظر عودة ابنه بينما كان بشير وريحان يحملان الهدايا من خارج المنزل لداخله.

فيولا جارة زين وصديقتها سمعت الضوضاء التي أحدثها عبد الجبار وعبداه في الحي الهادئ فأطلت من شرفة منزلها فعرفت أن الزائرين أقارب لعبد الحكيم. فيولا ليست بعيدة عن قصة زواج عبد الحكيم وزين لأن عبد الحكيم كان حريصًا على إفشاء سره للمقربين منه من الجيران والأصدقاء حتى تكون زين في غيابه تحت أعين حمايتهم ورعايتهم.

انقبض قلب الصديقة على صديقتها وقررت أن تبعث بابنها مايكل لمقر عمل عبد الحكيم لإبلاغه بأمر زيارة أقاربه المفاجئة، ثم هرعت هي لمنزل عبد الحكيم للاطمئنان على زين، كان العبدان قد نسيا إحكام إغلاق باب المنزل، ففتحت فيولا

الباب الموارب ودخلت بتأن، أثناء تلفتها للبحث عن زين تعثرت في أقفاص الفاكهة موقعة واحدًا منهم، انكفأت فيولا تضع الفاكهة التي أوقعت في القفص وهي لا تزال تبحث بعينيها عن زين حتى تقابلت بوجهي بشير وريحان اللذين كانا يجلسان أمام باب حجرة الضيوف فاستقامت واقفة.

اتجه ريحان وبشير بسرعة نحو فيولا وبفظاظة ورعونة أمسك بشير بذراعها ساحبًا إياها نحو حجرة الضيوف، يلكزها من الظهر ريحان بقعر عصاه في خوف من فيولا غير قادرة على إبداء أي حركة مقاومة حتى وقفا بها أمام عبد الجبار، قال بشير في لهشة غليظة قاسية:

- سارقة، لقد أوقفناها وهي تسرق الفاكهة.

كان فم فيولا مزمومًا لكن وقت ما اتهمت بالسرقة من جانب بشير حينها لم تصمت فيولا، مفلتة نفسها من قبضة بشير لتدافع عن نفسها بلطمة قوية على وجه العبدين صارخة:

- عديما الأخلاق، عديما الأدب والذوق، أنا لست سارقة بل أنا جارة السيد عبد الحكيم الرجل المهذب ولما رأيتكم متجهون لمنزله عرفت أنكم أقارب له، وبما أنه غير موجود فقررت الترحيب نيابة عنه بكم وطلب استضافتكم في منزلي لحين ما يرجع قريبكم السيد عبد الحكيم، اسمي فيولا وزوجي اسمه ديمتري وهو زميل للسيد عبد الحكيم في العمل.

وقف عبد الجبار فور سماعه كلام فيولا، جمد في مكانه قليلًا بلا حراك لثوانٍ ثم عض بأسنانه الأمامية شفته السفلى، وأومأ بعينيه توعدًا وشزرًا ناحية بشير وريحان، بعدها التفت ناحية فيولا قائلًا بلهجة استسماح وتودد:

- ست فيولا اعذري جهلهما إنهما عبدين لا أكثر ولا أقل، لا يؤخذ لا على كلامهما ولا تصرفاتهما وأنت تعلمين ما فرق الإنسان عن العبد، لعل ذلك التعليل يجعلك تصفحين، ماذا تريدين أن أفعل فيهما سوف أفعل وإن شئت حتى قتلهما فالأموال تجلب غيرهما.

أحست فيولا بالأمان فاقتربت لتجلس على الكرسي المقابل لكرسي عبد الجبار، وكان بوسع عبد الجبار رؤية علامات الصفح على وجهها فجلس بدوره هو الآخر، قالت فيولا:

- سيد عبد الجبار أنا معك في كون عبديك أرعنين وأتفق معك على حقيقة جهلهما، إلا أنني لا أومن بفكرة كون العبيد من جنس آخر غير بشري فتلك مقولة لا تعمد إلى الصدق بأي حال اخترعها الأقوى لدحض الأضعف، كل ما في الأمر أن البشر جميعهم تتدرج درجات فهمهم وذكائهم وكذلك طبائعهم فالبيئة مما لا شك فيه تؤثر.

- ست فيولا الله خلقنا درجات هذا معترف به في الدين.

- إننا إذا خرجنا لأصولية الشيء المتمثلة في الله المؤمنون به جميعًا لوجدنا أن الله في جميع دياناته يحض على السلام والوفاق بين البشر جميعًا فوق نفس الكوكب، حتى وإن كان بين مؤمنين وكافرين والدرجات المقصودة إنما هي درجات الخير والصلاح وفي مقابلها درجات رضا الإله، العبودية نظام بشري. علينا جميعًا أن نجنح لشيء من الرفق واللين يا سيد عبد الجبار حتى على الجهلاء ممن يؤذوننا بجهلهم، أحدثك وأنا مأخوذة بالندم على صفع العبدين لكن عزائي لنفسي أنا ما بدر منهما ليس بالهين، نحتاج كلنا لأن نستعين بالعزم على مغالبة أنفسنا كم أنا شديدة الأسف لما بدر مني..

صمتت فيولا قليلًا ثم أكملت محتجة:

- لكن ما بدر منهما ليس بالقليل.

كانت فيولا امرأة أرثوذكسية متدينة من أصل فرنسي يرجع مسقط رأسها لقرية دينان في الريف الفرنسي، والدها كان قسًا في كنيسة البلدة، وكانت فيولا الابنة الخامسة في الترتيب من أصل ثمانية إخوة، والدة فيولا برجوازية الأصل امرأة صارمة صعبة المراس ولكن في ذات الوقت حنونة طيبة القلب ولولا شدتها لما أنشأت الأبناء وصقلت أخلاقهم، والدة فيولا آمنت بأهداف الثورة الفرنسية

وقيمة العمل والكفاح وقد جرعت تلك المبادئ لأبنائها، فلا عجب إذًا أن تكون فيولا حادة في حديثها لعبد الجبار فيما يتعلق بفكرة العبودية، في الوقت الذي رأت فيه أن زواج عبد الحكيم من زين هو صورة واقعية مجسدة لأهداف الثورة التي آمنت بها والتي تسري مبادؤها في دمائها، ألا وهي الحرية والمساواة فاحتوت فيولا زين وقربتها منها وساعدتها في تعلم اللغة الفرنسية وتعلم أصول الإتيكيت والتعامل بين طبقات الأسر الأرستقراطية.

فيولا تزوجت من ديمتري حين كانت في السادسة عشرة من عمرها وكان لزواجها منه قصة غريبة، إذ كان ديمتري مهندسًا معماريًا شابًا كلف ببناء كنيسة في بلدة «دينان» بلدة فيولا، وقد استضاف والد فيولا المهندس الشاب في منزله وقت إقامته في البلدة وخصص له حجرة في القبو، من ناحية أخرى لم ترحب الأم المتشددة بوجود الضيف وسط خمس من الفتيات هن بناتها، لم تزل الأم تخشى من عاقبة أن تلاحظ إحدى بناتها المهندس الشاب فتعجب به أو أن أكثر من واحدة قد تهيم به فتدب النزاعات بينهن ويضمرن الكراهة بعضهن لبعض، أو لعله يحدث أكثر ما تخشاه وهو أن تعجب الفتاة المخطوبة بالشاب المدني أكثر من إعجابها بخطيبها فتترك الثاني وتتعلق بالأول، وقد حدث ما كانت تخشاه إذ كانت الفتاة المخطوبة هي فيولا ولم تكن فيولا تجد في حياة الريف قبولًا عندها، إلا أن والديها وإخوتها يعيشونها وهي الفتاة الحالمة الخيالية المأخوذة بسحر باريس.

جمعت الأم بناتها الخمس وحتى الصغرى منهن والتي لم تتجاوز السادسة من العمر وحذرتهن من النزول إلى القبو وقت وجود ديمتري، وأنهن حين يضطررن لتنظيف القبو فلا يتواجدن إلا وكن معًا هن الخمس وقت غياب الضيف، وعدم لمس أي شيء يخص ديميتري وأغراضه الشخصية وهولت الأمر أن اعتبرته الأم خطيئة، معرضة على خيالهن أشكال العذاب الذي أعدها الله لمرتكبي الخطيئة لكن فيولا لم تقتنع وقالت بداخل نفسها «لولا الذنب لما كانت التوبة ولولا التوبة لما كان الخلاص والرحمة». عازمة على الهجرة إلى باريس على جناح ديمتري لا يحدوها في قرارها مانع أو رادع، وكان خطيبها قد اعترف لها أنه خطبها نزولًا

على رغبة والده وهو لم يعتد على كسر أوامر والده احترامًا وتبجيلًا له، وأنه وإن كان لا يحبها فهو يستلطفها ولكن قليلًا ، قليلًا جدًا وأنه يأمل في أن يحبها في الوقت اللاحق، وإن كان هذا الأمر أمر حبه لها احتمالاً فهو احتمال مؤكد حيث لا وجود في حياته لفتاة أخرى ولا وجود في حياتها لشاب آخر، وقد أذى حديث الخطيب نفس فيولا بشدة وجعلها منه تنفر وتنأى.

فيولا الفتاة الطموحة التي لا ترغب الحياة في بلدة ريفية تعيش عمرها فيها تحلب الأبقار وتصنع الجبن وتتزوج عامل دبغ جلود، وجدت حيلتها في الخلاص بالزواج من ديمتري مخططة للإيقاع به، لمحته ذات مرة فراق لها شكله فهو ليس وسيمًا بالشكل الجذاب كما قرأت عن شبان المدينة وليس دميمًا بالمرة بل كان وسطًا، أصفر اللون ذو شعر كستنائي خفيف وناعم وقصير، نحيف جدًا ويميل إلى القصر عن الطول، حاد الملامح مشدود الوجه ذا جبهة مستوية وأنف أرنبية وفم رقيق الشفتين يكادان يكونان غير موجودتين، يمشي على عجل كأنما دائمًا هو متأخر عن موعده لا ينظر إلا للطريق الممتد أمامه.

أفشت فيولا بسرها للأخت الأقرب منها إذ اتفقت معها على الآتي، أن تنزل فيولا بملابس النوم للقبو ذات ليلة وفي ذلك الوقت تذهب أختها لإشاعة خبر أن فيولا وديمتري يهيمان عشقًا بعضهما ببعضٍ وأنهما الآن يلتقيان في القبو في مخدع ديمتري.

متخفية خلف أستار الليل نزلت فيولا متخففة من ملابسها مبدية مفاتنها متجملة بكامل زينتها إلى القبو كما لو كانت متأهبة للقاء غرامي، في طوية ضميرها كانت فيولا تدعو أن لا يوقظ عطرها الأنثوي ديمتري أو يحدث العكس فيزهدها الشاب ويمنع نفسه عنها فتحبط خطتها، كانت تريد لقاءً يوقع به ولا يوقعها فيه، يقتله ولا يجرحها.

بداخل حجرة ديمتري كان هو غارق في النوم، وجهت المصباح ناحية وجهه وأبعدته سريعًا كي لا يوفظه شعاعه، نحت المصباح ثم جلست على حافة فراش ديمتري، لقد أخطأت حساباتها وكانت تظن أنها أجرأ من أن تتجمد كتمثال شمع، غاصت في الخوف وقررت التراجع، انحنت لتلتقط المصباح لكن الوقت لم يكن

في صالحها إذ تفاجأت بوجهي والدها ووالدتها، هربت سريعًا من أمامهما إلى حجرتها في الطابق العلوي في وقت أيقنت أن لا نفع فيه لدعاء أو دهاء لقد قضي الأمر وما عليها سوى تلقي ردود الأفعال.

ديمتري لا يزال نائمًا لا يدري ما يدور حوله ولم يصحُ إلا على صوت والد فيولا ينهره وهو يسحبه من ياقة منامته يأمره بالزواج من ابنته، لم يكن ديمتري يفهم شيئًا وظل يصرخ «لن أفعل، لن أفعل». فقد كان ديمتري يظن أن الأب يسعى لتوريطه بالزواج بابنته البشعة التي يريد التخلص منها. حتى وجد نفسه وجهًا لوجه أمام فيولا تسحبها من يدها والدتها يقول والدها له «هذي عروسك». حينها كف ديمتري عن الصراخ ليعتدل في وقفته يهندم ملابسه ماسحًا بيده على شعره وهو يقول:

- ليس عندي مانع يا سيدي في قبول طلبكم.

لم يمض عامان على زواج فيولا بدميتري حتى انتدب الزوج للعمل في مصر، لتودع فيولا بذلك مدينة باريس وقرية دينان وفرنسا بأكملها لتمضي بعدها سنوات عمرها الآتية. وقد وصل الوصال ما وصل من ثقة وتآخي بين زين وفيولا أن باحت فيولا بقصة زواجها من ديمتري وهي الحريصة على كتمانها خجلًا وتكبرًا، لكنها ما إن تصادقت على زين حتى اجترت الذكريات معها اجترارًا، كانت بلدتها دينان والتي بنيت في القرن الثالث عشر وظل سكانها محتفظين بأصالتها باقية في عقلها، مرتبط قلبها بها تتردد روحها بالذكريات التي لم تنسها لجولاتها أثناء السير بين الممرات المتعرجة وجلوسها على المصاطب الحجرية الرمادية وسط الطرقات المنحدرة، وعن تجارب الصيد في نهر الرانس مع إخوتها حين كانوا يقومون بالرحلات النهرية على أحد القوارب البيضاء، مستمتعين بصوت الطيور ونزهتها على طول السور الذي يحيط بالقرية حتى القلعة، متذكرة ذلك اليوم الذي اختبأت فيه تحت الجسر من الأمطار حتى غلبها النعاس وظن أهلها أنها ضاعت بلا رجعة.



أثناء حديث عبد الجبار مع فيولا دخل عبد الحكيم مع ديمتري، كان قلب عبد الحكيم يخفق اضطرابًا وقلقًا على زين التي لم ير لها طرفًا أو أثرًا منذ دخوله المنزل، وكان في وسع ديمتري أن يشعر بصديقه وما خالج نفسه من ظنون وهواجس فقرر إبعاد عبد الجبار عن المنزل ليتسنى لعبد الحكيم البحث عن زوجته، قال ديمتري بلهجة تودد مصرية مرحبًا بعبد الجبار وهو يمد له يده بالسلام:

- يا أهلًا ويا سهلًا بوالد الصديق العزيز كبيرنا الحاج عبد الجبار، الغالي والد الغالي.

وكان عبد الجبار يحب أن يرحب به بصيغة تبجيل وتوقير وأن يمدح في ذاته ففرد صدره وابتهج وجهه وهو يرد السلام على ديمتري، أكمل ديمتري تودده قائلًا:

- لن أتنازل عن لقاء بصحبة سيادتكم في منزلي وأنا مصمم على أن أنول ذلك الشرف الآن.

- اعذرني يا أخي لتؤجلها ليوم آخر.

- ليس من الممكن فأنا مصمم أشد التصميم -التفت إلى عبد الحكيم- وأنت يا عبد الحكيم سأترك لك فرصة لنصف ساعة في منزلك قبل اللحاق بنا تكون فيها قد بحثت عن التصميم الضائع منك، تعطيني التصميم تأخذ والدك.

ثم ضحك مكملًا حديثه:

- هيا يا حاج عبد الحكيم سوف يجلب التصميم ثم يلحق بنا.

غمز ديمتري لعبد الحكيم ففهم الثاني فحوى الرسالة. رحل الزوج والزوجة ومعهما عبد الجبار ومن ورائه بشير وريحان، ما إن أغلق عبد الحكيم الباب حتى راح يتفقد المنزل باحثًا عن زين يهتف عليها لكن الحجرات خاوية، فأين تكون يا ترى؟ جاءه صوتها هزيلًا مخنوقًا من ناحية المطبخ، اتجه عبد الحكيم صوب المطبخ مهرولًا وفتح الخزانة فسقطت زين مكومة بين ذراعيه مخضبة ملابسها بالدماء...

في إحدى حجرات النوم في منزل فيولا وديمتري رقدت زين بعد أن حملها عبد الحكيم وهرع بها إلى هناك حيث كانت فيولا تنتظره عند الباب الخلفي، أخذت منه زين وهي في حالة يرثى لها تتسرب منها حياتها بين الإفاقة والإغماء تنزف بغزارة فوضعية تكورها بداخل الخزينة أسقطتها الجنين.

رجع عبد الحكيم مرة أخرى لمنزله لجمع حاجات زين كلها من المنزل موردًا إياها لمنزل صديقه ديمتري، ذهاب وإياب لخمس مرات حتى اطمأن في تلك الأخيرة أن لا أثر أصبح لزين في المنزل بعدها رجع لزين التي أحضرت لها فيولا طبيبًا وقف على حالتها مراقبًا لها في تلك الليلة الحرجة، أراد عبد الحكيم أن يبقى بجوار زوجته لكن فيولا رفضت خوف أن يشك عبد الجبار في أمره، على مضض وافق عبد الحكيم.

بينما كان الوالد وديمتري يتبادلان حديثًا عن سراي الخديوي والفترة التي قضاها ديمتري في الإشراف على بناء إحدى الاستراحات على ضفاف النيل، وكيف أنه كان يأخذ التعليمات من الخديوي ذات نفسه، الحديث راق لعبد الجبار مما رفع من سقف طموحه بزواج ابنه عبد الحكيم من جوزال ابنة المهردار فقد يتاح له الفرصة هو أيضًا للتحدث مع الخديوي أو على الأقل مصافحته، وكان بشير وريحان اتخذا مكانًا منزويًا يتحدثان بعضهما لبعضٍ بلغة بلادهما التي لم يكن يفهمها غيرهما. أخذ عبد الحكيم مقعده في المجلس مصقولة نفسه بالحزن ترجف أصابع كفه المتعرقة كما جبينه شاردة نظراته. استهل عبد الجبار الحديث:

- هل عثرت على التصميم يا عبد الحكيم؟

- أي تصميم.. آه لقد تذكرت لقد بحثت عنه مليًا ولم أجده.

- هل لهذا السبب أنت متوتر؟ فيما يبدو أنه تصميم مهم.

- نعم مهم، مهم جدًا يا والدي لدرجة أن روحي معلقة به وأن ضياعه لهو بمثابة موتي.

بدا لديمتري أن عبد الحكيم فقد أعصابه وأنه بدأ يثرثر بلا وعي فتناول خيط الحديث وقال:

- إنه تصميم يضمن ترقية لعبد الحكيم كبيرة إذا استطاع إنجازه بالشكل المطلوب.

اقترب ديمتري من عبد الحكيم أكثر وضغط على ركبته المهتزة يثبتها ويضغط عليها:

- لا تخف يا عزيزي ستؤول الأمور لأحسن حال.

- منزلك أصبح أكثر تنظيمًا يا عبد الحكيم تفوح منه رائحة عطرية وكأنه استجد عليه شيء مختلف.

- أرجو أن يظل على حاله وأن يثبت على اختلافه يا والدي.

في جانب من الغرفة الشاغرة مساحة من البراح لا بأس بها كان يجلس بشير وريحان. منحنيان صوب بعضهما البعض.

- نحن نهيم بلا وجهة أو مقصد، قل لي ماذا حققنا من الحلم الذي تعاهدنا على إتيانه حقيقة يا بشير ألست أنت قائدنا؟

- إننا في عرض البحر يا ريحان، كيف لنا أن نرى الشاطئ في هذا التوقيت؟ أسابيع ويسلب من جابر أبناؤه وبهذا نكون قطعنا شوطًا كبيرًا في خطوة واحدة، وما إن خلصنا من جابر سوف تتضح الرؤية أكثر، فأنا أخطط للزواج من تهاني.

- لقد صفعك جدها وأهانك منذ قليل!

- ما لي وجدها؟ أبوها من سيزوجني إياها إن رقبته في يدي فلقد كتب لي هذا المخمور ورق مداينة على إثرها أنا قادر على جعل همام يبيع نفسه وليس ابنته وقريبًا سيندس من نسلنا من يرث الجبابرة كلهم، إننا إن تسربنا من خلال نسائهم لضيقنا عليهم الحيلولة دون أخذ حق أو باطل

منا، حينها لن يقف في سبيلنا ولو الطوفان نفسه وسوف نزود دفاعنا بذراع ليست هينة، عبد الشكور، إن الرجل بصير لأن يرى مستقبل يامنة فينا وثرواتها في أيدينا.

في منزل عبد الحكيم وقبل أن يهجع الوالد للنوم صارح ابنه بداية بنيته بالزواج من خضرا فلم يجد عند الابن من رفض أو ضجر، بل تميز حينها عبد الحكيم بالبرود إذ لم يتحرك فيه ساكن وظل صامتًا إلى أن أنهى والده الحديث، ثم كاشفه عبد الجبار بالسبب الرئيسي لنزوله القاهرة وهو أن يخطب له جوزال فلم يعترض أيضًا عبد الحكيم لأن هول ما كان فيه من ألم ألمَّ بزين فاق استيعابه لما يطلبه منه والده وهو الزواج بأخرى غيرها، لم يكن عبد الحكيم في مزاج لأن يدخل في نقاش مع والده فلم يعترضه في كلمة واحدة، وتحاشى الجدال معه لينام والده نومًا عميقًا مستريحًا غير متقلقل فيتسنى له الذهاب لزين والمكوث بجوارها.



-٣٠-

في يامنة..

منذ ذلك النهار الذي استقبل فيه جابر أخاه همامًا على انفراد وكانت سنية ترق السمع لحديثهما معًا ومعرفتها يومها لما ينوي حماها عليه من الزواج بخادمتها خضرا ابنة الأجير، ولم تنكف عن التفكير في كيفية الخلاص من خضرا وقد شجعتها على ذلك رئيسة زوجة همام، وكانا يواصلان النهار من أول الصباح وحتى الأصيل ليس معهما سوى التفكير حتى تداول الخبر الكل ولم يعد سرًا. وكانت رئيسة أكثر مكرًا ودهاءً إذ كانت هي التي تخطط وتدبر وسنية تسمع وتنفذ.

في مزرعة كرم العنب حيث منزل همام الجديد بعدما تناول همام الإفطار تدثر بقفطانه وعباءته وذهب إلى الخمارة، فبعد أن أصابته لعنة الخمر أصبحت الكأس لا تفارق يمناه ليس له هم سوى العربدة وملاطفة الراقصات اللائي جلبهن عبد الشكور لجذب مرتادين للخمارة، والتي قد نصب فيها طاولة للقمار ولعب الورق يقف على ناصيتها قاسم شريك جرجس النجار. وكان من زبائن الخمارة فاروق زوج نعسة وهناك تعلق بواحدة من فتيات الخمارة تعلق الهائم والمحب وليس تعلق نزوة عابر مر بها كغيرها بل لم تكن كغيرها، يدفع أضعاف الكأس من المال لتتعاقب معها الأنخاب بعيون مفتوحة لها لا ترمش، لا يقطعه عن وجهها سوى أوقات الصلاة التي كان يحرص على أدائها وإن كان مخمورًا، وكانت الفتاة تدعى قمر وهذا ليس اسمها إنما الاسم الذي وهبه لها صاحب عملها. مال فاروق عليها يومها وقال:

- هل يشبع البطن من رائحة الطعام وحدها وهل يغيب العقل من رشفة خمر واحدة؟

ضحكت المرأة بدلال وقالت.

- لا.

- إذًا إن أردت بنيت لك بيتًا خاصًا بك.

أبعدت المرأة كرسيها ووضعت كأسها جانبًا، فاستحس منها كدرًا:

- هل قلت ما أغضبك؟

- بل قلت ما أهان ومس شرفي، لا تنظر إلي هكذا فأنا امرأة شريفة لا يمسها سوى زوج لا يعيش معها إلا في نور الشمس وليس القمر، تزوجني ولا تبن لي بيتًا بل اجعل مسكني أسفل قدميك.

كانت المرأة من المكر بأن عرفت نقائص فاروق وما يعوضها ويملأ فوارغها ويغمره غرورًا وكبرًا، فصار هو معها بالتالي على طبيعته الضعيفة الجبانة ما دامت هي متغافلة عن حقيقة نفسه، ترفعه الغانية في موجة ناهضة عالية ثم تسقطه بعدها أسفل قدميها خاضعًا كالماء..

عزم زوج نعسة على الزواج من قمر الراقصة فتاة الخمارة.



بينما همام في الخمارة يقبل حرف كأسه كان قمصان في فراشه يجامع زوجته، في ذلك اليوم خطط الاثنان لاختطاف خضرا والتخلص من ذرية قادمة فالحصان العجوز يسعى للزواج بمهرة قد تمنحه عديدًا من الأطفال.

- كل شيء جاهز يا رئيستي، وقريبًا رأس خضرا سيضطجع على حجرك تخضبين من دمائها كعبي قدميك.

- إلا الدماء يا قمصان قلبي رقيق لا يتحمل لون الدماء، اقتلها بمعرفتك ثم ادفنها في الجبل ولا تخبرني إلا بعد دفنها.

- يا لعطفك يا رئيستي هل أعارك الورد رقة ورقه وضخ النسيم خفته في دمائك، هل أنت نصف ملاك؟ بل إني أجزم على كونك نصف ملاك.

ضحكت رئيسة ضحكة شريرة وقالت:

- التوبة منك ومن حديثك يا قمصان.

- لكن ماذا سيقول حموك والخلق عن غيابها هل سوف يشكون؟

- سيقولون فاجرة لها عشيق، انتهزت الفرصة وهربت معه.

أمسكت رئيسة ببطنها تتلوى.

- ما بك يا غاليتي؟

- إنه المغص يا قمصان ثلاثة أيام وهو لا يتركني خوفي أن ما أخشاه يكون قد حدث.

- وماذا تخشين؟

انقطف لون رئيسة وقالت:

- أخشى المفاجآت، الحمل، أن أكون حاملًا يا قمصان.

- ممتاز.

قالها بلغته التي لم تكن رئيسة تفهمها، بخبث نظر قمصان لبطن رئيسة وراح يتحسسها بنشوة انتصار الأماني التي قد تتحقق إن أنجبت رئيسة من صلبه مولودًا ينتسب إلى الجبابرة ويرث فيهم.



كانت عروق جابر تنفض الدماء النافرة منها التي يضخها قلبه الغاضب، هل سيترك ابنة الأجير تمرح وتسرح في خيره فالوالد لن يخلد ومنيته مهما طالت قريبة، وأخوه ليس له من ولد يرثه والأخ الثالث زاهد في أرض يامنة وقد صرح أنه

لن يرث في أرض حرام كما زعم؛ لذا إن تزوج والده من خضرا فهي ربما تنجب له ولدًا في كل عام من حياته، إن عاش ثلاثة ستهبه ثلاثة أبناء وإن عاش خمسة ستهبه خمسة وهكذا وستضمر بذلك ثروته من إرث والده، قرر جابر أن يحمل بندقيته ويذهب لدار خليل وهناك يفرغ في خضرا وأهلها جميع رصاصاتها لكنه عدل عن تلك الفكرة الهوجاء فالفتاة لا تزال تشغل عقله، ليتذوقها أولًا ثم يقتلها إن شاء.

راودته فكرة اختطافها فقرر الرجوع إلى الثعلب وإعطائه المال الذي أراد لقاء تنفيذه الخطة التي اتفق عليها معه في السابق.

همام لم يكن الأمر يعنيه بالقدر الذي كان يعني جابرًا فهو لا يمتلك الذرية التي يخاف عليها، جل ما سعى له هو جعل والده يقسم الثروة قبل زواجه من خضرا لكن الوالد رفض واستشاط غضبًا، متوعدًا ابنه بأشد صنوف العقاب إن لم يرضخ كما أخيه الكبير جابر لأمره ويستقبل خضرا استقبال زوجة الأب والأم بما يليق بحضرته ومقامه. كان هذا هو حديثهما عشية رحيل عبد الجبار للقاهرة. وقد شهد بشير على حوار الأب مع ابنه وليلتها اجتمع مع باقي العبيد مخططين لخطف خضرا بمساعدة رئيسة، بأن تستدعي عوالي زوجة خليل لمساعدتها في أمر ما وبهذا يكون الجو رائقًا، يذهب جوهر وفضل لمنزل خليل يكممان فم خضرا ويقيدانها ثم يضعانها في جوال مع عدة جوالات فوق عربة، ويتجهان بها لمزرعة الكرم حيث مخزن الخمور الذي هو بدروم المعصرة، والذي لا يدخله سوى عبيد الأسياد فيودِعونها هناك لحين قتلها.

في اليوم التالي بعدما اتفق قمصان مع رئيسة على الخطة أرسلت رئيسة إحدى الخادمات لبيت خليل واستدعت عوالي، درجت بها حيث غرفة نومها وهناك أخرجت صندوقًا من صناديق جهاز تهاني وراحت تفرجها على ما فيه على أنه هدية منها لخضرا عروس حميها، وهي تارة تزغرد مطلقة عنان صوت الفرحة

بداخلها وتارة تصب دعوات الخير على رئيسة وتهاني في نفس الوقت الذي كانت تجر فيه ابنتها وهي بداخل جوال إلى البدروم استعدادًا لقتلها، اتفق عبيد الأسياد على خنقها فلا يصدر عنها صوت ولا تترك أثرًا فتموت في صمت ثم يعقدون على بطنها حجرًا كبيرًا ويرمونها في النيل.

بداخل البدروم سجيت خضرا على حالتها مكممة ومقيدة في أحد الأركان، كانت تموء مواءً ضعيفًا لكن أحدًا لم يسمع صوتها وظلت على هذا الحال إلى ما بعد انتصاف الليل بدون طعام أو شراب لحين اجتمع عبيد الأسياد حولها. ثقل الحال على خضرا وعلمت أنها لا محال ميتة فتشهدت وسكنت لحين سكون روحها، التف العبيد كنصف دائرة حولها وهي مفترشة الأرض وكان قد غلبها النعاس فنامت يجاور خدها سطح الأرض، بدا لهم كأنها ميتة فجس فضل نبضها فعرفوا أنها حية وأشار عليهم بشير بتركها نائمة حتى يباغتها الموت فلا تشعر بالخوف وترهب الموقف شفقة منه وعطفًا.

فك ريحان عمامته البيضاء ثم غمسها في دلو الماء، عصرها ثم وقف ينتظر إشارة بشير له بخنقها:

- هل أبدأ يا سيد العبيد إني على استعداد الآن؟

- مهلًا لنقرأ الفاتحة على روحها في البداية، وهل سنقتل جروًا إنها بشر يا ريحان، لنقرأ الفاتحة على روحها الطاهرة.

ثنى العبيد أذرعتهم فاردين كفوفهم وراحوا يتلون الفاتحة، كان جوهر مسيحيًا لا يحفظ السورة فسرح بفكره وقت تلاوة باقي العبيد حتى انتهوا، ردد معهم بقول آمين ثم اقترح عليهم:

- الفتاة جميلة يا إخواني ألا تلاحظون؟ فتاة بكر تحت إمرتنا، إننا نمتلك جارية فلمَ لا نبيعها عوضًا عن قتلها ما دمنا في كل حال سنتخلص منها ولن يتزوجها عبد الجبار؟ الخمارة يفد عليها أثرياء من كل حدب وصوب في بر الصعيد نبيعها لواحد منهم في السر إن طلبنا إيجارًا شهريًا أخذنا وإن طلبنا بيعة نهائية بعنا.

فكر بشيرا وقال:

- أحسنت التفكير يا جوهر.

أعقبه فضل:

- يامنة تمتلئ بالحوريات ونحن أحسن من يفهم في القنص، وليس أوسع من رزق الصيادين.

قال بشير:

- على رسلك يا فضل فنحن لم نتخلص بعد من الأولى، لنجرب حظنا في هذه.

وفيما هم كذلك سمعوا صوتًا ينادي، كان صوت فاروق زوج نعسة فخرج له جوهر مسرعًا حتى لا يتبعه. كان فاروق ممسكًا بساعد قمر وهو ثمل، خاطب جوهر بلهجة قاسية:

- اسمع يا هذا سآخذ قمر.

- كيف هذا يا سيد إننا ندفع شهرية لصاحب عملها وهي مدونة كأي شيء مدون ونحن مؤتمنون عليه في الخمارة كالطاولات والكراسي.

- سأدفع أنا شهريتها.

- وماذا عن الزبائن الذين سيقل عددهم للربع؟ إنها واحدة من أربع فتيات يجذبن الزبائن كاجتذاب الفراشات للضوء.

- وسأدفع ذلك أيضًا، ها لا تقايضني سوف آخذها الآن. خذ هذا مقدمكم.

ثم رمى كيس قطيفة مخمليًا أسفل أرجل العبد جوهر ورحل فرحًا على عجل.

رجع جوهر بكيس المال ثم أخرج ما فيه من ذهب أمام باقي العبيد، قال بشير وهو يلحس شفته السفلى بلسانه «لم أكن أعلم أن النساء التجارة فيهن تكسب الذهب، إنها التجارة الأربح وإنه ليخيل لي أننا أصبحنا ملوكًا بواسطتهن على الأرض، إنهن الوسيلة مما لا شك فيه».



-٢١-

ليوم ونصف يوم وعابد يدور حول نفسه باحثًا عن حبه خضرا حتى ضاقت به الدنيا فذهب إلى جرجس، حال اليأس بينه وبين خضرا كان يكفيه خبرًا يخبره أنها على قيد الحياة ولو لم تكن معه في أي مكان وسوف يهدأ ولن يبحث عنها ما دامت هي راضية. كان عابد قد تصادق مع جرجس واختلط به يشفق على جرجس أصدق الشفقة ويحاول دائمًا أن يسليه ويبهجه، يسأل عن أحواله وأحوال زوجته من حين لحين وكان الثاني يبوح له بهمه الثقيل فأحيانًا يقل منسوب إيمانه فيقول لعابد «على ما يبدو أن الله غاضب مني يخفي رحمته عني». فيرد عليه عابد «لا تسلم قلبك لوساوس الكفر يا والدي». فيرجع جرجس طالبًا العفو والرحمة من الله الواحد وقد استلقت سحابة من الكآبة فوق وجهه.

دخل عابد فوجد جرجس جالسًا في الركن الأمامي من الورشة وقد براه الهم فأمسى كالعود الجاف تاركًا منشاره وأزميله مقرفصًا أمام الخشب المتراص بعضه على بعض، كان جرجس سيقف لكن عابدًا شد على يده أن يظل جالسًا، ابتسم عابد في وجه جرجس رغم همه الثقيل وقال:

- كيف حال زوجتك أيها الرجل الطيب؟

ابتسم جرجس ابتسامة متعبة وقال:

- علتها ليس لها دواء يا بني، أتضرع للقدر أن يمد في عمرها قدر ما أرحل أنا قبلها فلا تتعذب روحي بعدها وهي لن تتعذب طويلًا فإنها قريبًا سوف تلحق بي، إن جسمي يذوب بسرعة أمام ألمها وما من يوم يأتي تخف فيه أوجاعها فتخف أوجاعي.

- تحبها أنت يا عم جرجس.

- وما أنا بدونها يا بني؟ كانت طفلة حين تزوجتها رأيتها لما كانت أمها أمام عتبة المنزل تضفر لها شعرها وكنت أنا في ضعف عمرها، ربيتها على يدي كنت أسرح لها شعرها وأضفره وإلى هذا الحين وبعدما أنجبت وصارت جدة تغسل شعرها وتتركه لحين آتي أسرحه لها أنا، نحف شعرها وابيض كله وما زالت الطفلة بداخلها.. إن المشط لسوف يفتقدها فكيف بنفسي يا عابد.

- قريبًا يأتي الصيف يا عم جرجس، اطلع بها إلى الجبل هناك الهواء سيفتح رئتيها وسوف ينتشل المرض من عروقها كما الشعرة من العجين، واسقها من لبن الإبل هو نافع بإذن اللّه.

وضع عابد يده فوق رأسه مسقطها، سأله جرجس عن حاله فحكى له قصة ضياع خضرا، مد جرجس يده إلى البراد المكسورة يده والمغموس في جمر الكانون يغلي ويفور، صب لعابد كوبًا ولكن عابدًا ظل ممسكًا بالكوب لم يقربه من شفتيه لا يبدي حراكًا.

دخل زيدان وعيد ومعهما فرج القطان إلى ورشة جرجس وجلسوا جميعًا حول عابد، قرب جرجس من كل واحد منهم كوب شاي. قال عيد:

- ألم يلاحظ أحد منكم شيئًا غريبًا حول منزل خليل؟

هز الجميع رؤوسهم بالنفي ثم قال عابد:

- كنت سأسأل الجيرة لكنني خفت من افتضاح أمر غياب الفتاة فتنسج الأقاويل عن سبب غيابها وتكثر.

سأل عيد أيضًا:

- لو فرضنا أنها اختطفت فمن له المصلحة في ذلك؟

على الفور أجاب فرج:

- أبناء عبد الجبار بالطبع ومن غيرهم؟

قال عابد:

- أخرجوا عبد الحكيم من الدائرة الرجل يعرف الله ونفسه منزهة عن الحرام.

رد زيدان:

- وما بالك إذًا بزوجات الأبناء؟ الحدأة سنية والأفعى رئيسة.

اقترح جرجس:

- لنطلب المساعدة من ست تهاني تراقب من ناحيتها أهل دار عبد الجبار وأنا متأكد أنها لن ترفض.

قام عابد من مكانه وقال:

- أنا سوف أذهب إليها الآن وليكن ما يكون.

اقترب جرجس من عابد، وضع يده فوق كتفه وقال:

- يا بني إنه لن يضرك ضرهم لأنك على حق والله معك، ولو قصفوا ركائزك قادر هو على أن يعمدك، اذهب سوف أشعل شمعة للعذراء وأصلي لك.

هتف باقي الرجال:

- سوف ندعو لك.



عابد الآن واقف أسفل حجرة تهاني، إن حجرتها مضاءة وهذا يعني أنها مستيقظة لكن كيف الوصول إليها ولا سبيل له في دخول المنزل؟ ذهب عابد لحجرة عدد الفلاحة والأرض المخزنة فيها المناجل والفؤوس والكراكات وغيرها، التقط منها عابد أدوات تسلق النخيل الحبل والبلطة، لف نفسه بالمطلاع وهو حبل سميك

ملفوف بالقماش ثم عقده جيدًا حول خصره عدة ربطات وحاوط بباقي الحبل جذع النخلة، قرأ آية الكرسي وتشهد ثم خلع حذاءه وحط رجله على الجذع وراح يتسلق النخلة الباسق طولها، وحتى شرفة حجرة تهاني بتأنٍ حتى وصل لجمار النخلة وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الشرفة، كان عابد معتادًا على طلوع النخل إذ حوت قطعة الأرض التي كان يملكها في بلده ثلاث نخلات يطلعهن مرتين في العام، الأولى موسم تقليمهن والثانية عند جني البلح.

قطع عابد واحدة من جريد النخل وراح يناوش خشب نافذة الحجرة بالخشب خارج النافذة فراحت تستطلع الأمر. توقفت تهاني فجأة لم تصدق نفسها، لمع ضوء في شعاب قلبها عكسته طاقتا عينيها وقد تضرج وجهها بالبهجة، ظلت لنصف دقيقة تتأمل وجهه الأسمر وعيونه اللوزيتين المتذللتين وقد طوقت مقلتيها الدموع فاحمر بياضهما، خيلت الظنون لتهاني أن حبها كسره وأبكاه فقالت له:

- ادخل يا عابد فديتك بالعمر كله.

مد عابد قدمه اليمنى ملقيًا نفسه برشاقة من النافذة إلى الحجرة، طوت تهاني عدة ألحفة بعضها فوق بعضٍ وطلبت من عابد الجلوس:

- تعال اجلس هنا استرح.

لكنه رفض وظل واقفًا.

- لم آتي يا أخت للضيافة.

اقتربت تهاني من عابد أكثر شعر بقربها جسده وكأن لمشاعرها ذبذبات غير مرئية، لامست عاطفته كأن صاعقة ضربته فارتد الفتى على إثرها خطوتين عوضتهما تهاني في خطوتين باتجاهه يسحبها توقها للقرب مثل مد لا يقاوم.

- لمَ تبتعد؟ أنا لا أجدك غريبًا عني، قل ما عندك لا تخف إن ما أحزنك أحزنني وما أبكاك أبكاني وإني قد سامحتك.

انقسم قلب عابد أثناء ما كانت تهاني تبكي بين يديه بين إشفاقه مما هي عليه وما سوف تكون عليه حينما يطلب منها مساعدته في إيجاد خضرا، وهي التي تظن أنه جاء محبًا لها، وبين نصفه الآخر المتآكل خوفًا وقلقًا على حبيبة قلبه وشقيقة

روحه.

- تهاني يا ابنة الكرماء أين أنا منك؟ أنا لست فارسك يا ست البنات.

- بل إنك أنت ابن الكرماء ولست أنا، إن أصلي مدنس بالظلم فأنا ابنة ظالم ابن رجل ظالم ابن ابن ظالم، إنه أصل متوج بلعنة الخبز الأسود خبز الظلم ومال الحرام الذي نشأت عليه وشببت حالي حال كل الجبابرة، وإني لأنكمش أمامه وأصغر احتقارًا لنفسي الملوثة بدمائه.

عز على عابد أن يزيد شقاء فتاة ليس لها ذنب إلا أنها أحبته بصدق فقرر الرجوع من حيث أتى.

- الأمر ليس كما تظنين يا ست تهاني أنا سوف أرحل.

تعلقت تهاني بطرف كم جلباب عابد:

- لا لن تفعل، وإن فعلت ورحلت فسوف أسبقك ملقية نفسي من النافذة. هيا صارحني بأي خبر أتيت أعدك بأني لن أصدك ولن أرد لك طلبًا.

- ست تهاني أعلم أن قوة عقلك غالبة وحكمتك نافذة وإنه لمن دأبك السعي في الخير، وتعلمين حقيقة أن يحب المرء بعمق وتعلق الروح بالروح، هذا ما شجعني أن أطلب العون منك لأنك سوف تدركين معاناتي، شاء القدر أن تحبينني وأحب أنا أغيرك وأن الفتاة التي أحب يقع اختيار جدك عليها للزواج بها ثم يشاء القدر أن يسلبها مني فتخطف أو تضيع أو ربما تكون قتلت.

تشنج جسد تهاني وانحسرت البهجة من وجهها تخرج أنفاسها مشتتة من صدرها وهي تقول:

- خضرا، إنها خضرا مرة أخرى وفي كل مرة خضرا.. ماذا أفعل حتى تكرهها يا عابد ليتني أقدر على محو أثرها..

- على رسلك هوني عليك يا تهاني.

لم تعطه تهاني فرصة:

- لقد حولت نفسي بسببك لشيطان موسوسة في أذن جدي بالزواج من خضرتك، من تلك الخادمة التي تحبها وتحتقرني من أجلها وإني لا أرى إلا أنك ازددت حبًا ووجدًا بها. هل أقتل نفسي أم أقتلك أم أقتلها..

تشبثت يدا عابد بذراعي تهاني وراح يهزها بعنف بكل ما أوتي من غل وغيظ:

- تقولين أنك حولت نفسك لشيطانة، لا بل إنك الشيطان نفسه، ما الذي جنته عليك فتاة بريئة كخضرا لتنتقمي منها؟ إن واجبي يقضي الاقتصاص الآن منك وقتلك كما أوديت بقتلها قد تكون المسكينة انتحرت بسببك، أنا أكرهك يا تهاني، أكرهك كما لم يكره أحد من قبل، أكرهك ككره العدو لعدوه، هل ارتحت الآن؟

ثم قبض على رقبتها وهو لا يزال يكرر:

- أكرهك، أكرهك، كيف لي أن أقتلع قلبك الأسود هذا؟

كانت تهاني مستسلمة كدمية في يد عابد تطالع في عيونه، انتبه عابد لأنها تموت بين يديه فحل يده:

- لا أنا لست بقاتل، أنا لست مثلك.

تاركًا تهاني جاثية تسعل وقد ازرق وجهها وانتفخت عروق رقبتها. تربع عابد أسفل النخلة جسده كان مرتخيًا كقطعة قماش وعيناه مسبلتان، سند ظهره على جذعها يبكي بكاءً حارًا، لا خضرا، لا زين، لا بلده ولا أرضه هو الآن عبد جارت عليه الدنيا وبشرها، ظل يفكر ويبكي، يفكر ويبكي حتى غفا وهو يشعر بأنه خفيف يحلق في الهواء ويطفو فوق الغيمات، رأى عابد في المنام حلمًا فيه أمه وأبوه حيث مسقط رأسه، وها هو طفل صغير يعدو في الطريق الغبرة التي رص على حواشيها قنن الصلصال التي صنعها والده، يطارد حملًا صغيرًا يلاحقه تتخلل أشعة الشمس عروقه، لم تكن الأرض رغم وحدته فيها موحشة، تمتد على مداد بصره التربة السمراء تحمل بذورًا في رحمها منذرة بولادة قريبة...

في هذه الأثناء في القاهرة...

فقد زين وعبد الحكيم جنينهما في ساعة خوف، كانت زين متماسكة رغم الوهن والحزن فلم يثر هذا النبأ في نفسها جزعًا أو قنوطًا بل سلمت تسليمًا تامًا على أنه قضاء وقدر لا مناص منه، لكن عبد الحكيم كان غاضبًا أكثر من كونه حزينًا على العلم أن عبد الحكيم لا يغضب بسهولة إلا إذا شعر بظلم كبير وقهر عظيم، كان من الواضح أن قسوة والده ضربت نفسه الرابطة فزعزعت أوصال حلمها وأناتها.

سألت فيولا عبد الحكيم الذي قضى الليلة بأكملها مراقبًا لزين الراقدة على الفراش المقابل تئن أنينًا ضعيفًا خافتًا:

- ألن تذهب لمنزلك؟ سيستغيبك والدك، لا تقلق على زين لن أتركها اطمئن.

- سوف أهاجر سيدة فيولا، ذلك قراري النهائي سأرحل مع زين لأرض تحترم حريتنا حيث لا خوف، حيث لا فرق بين الأبيض والأسود.

- سيد عبد الحكيم حتى هذه البلاد التي تقصد لا تزال تعاني بشكل ما من التمييز والعنصرية، إبرهام لينكولن ذات نفسه لم يستطع أن يضمن لسود جنوب الولايات حرية كالحرية الضمنية التي أعطاها لسود الشمال.

- آسف يا سيدة فيولا إن قلت لك أني سوف أستأثر بالمنحة المقدمة للمدرسة للسفر إلى فرنسا، سوف أتفاهم مع ديمتري على هذا.

- كنت أتوجس خشية أن يصيبك اليأس وها أنا أرى أنه قد فعل أفاعيله بك بدرجة تجعلك تميل للهروب بدلًا من المواجهة، لا أقصد بكلامي ندمًا على ضياع فرصة توصلني بموطني فقد استوطنت مصر وتآلفت على شعبها وتعلمت لغتها، بل أقصد اختلال الأمور فصاحب البلد هو الذي يريد الهجرة، لمَ لا تفكر في مواجهة والدك إذًا؟

- لأنني خائف.. خائف على زين وعلى أخيها عابد وعلى ابنة أخي تهاني وعلى زيدان ساعي بريدي بينهم المسألة، إنهم معلقون جميعًا بحمايتي

فأنا من اخترت زين بكامل إرادتي. أنا لا أدعي الشجاعة لأنني لست جبانًا سيدة فيولا، الأمر هو أنه ليس في وسعي، ليس في إمكاني أنا فاقد للمقدرة سيدتي.

- من صميم قلبي أرجو لكما السعادة، لكن الغربة ليست سهلة فكر بالأمر سيد عبد الحكيم ثم خذ قرارك، لكن الآن دع مخلفات ظلم والدك وتعسفه جانبًا واذهب لمنزلك كي لا يفتقدك.

دفع عبد الحكيم باب منزله بتثاقل، دلف إلى الممر المؤدي للمطبخ بدون العبور إلى الصالة أو ممر غرف النوم كي لا يتقابل بوالده وأثناء دخوله من المطبخ وجد بشير أمامه. أخبره أن والده ينتظره ويريده على الفور. لا مفر إذًا من المقابلة والمواجهة. رجع عبد الحكيم يقدم خطوة ويؤخر الأخرى حتى وقف أمام والده، طلب منه عبد الجبار الجلوس فجلس.

- ليكن في علمك يا عبد الحكيم اليوم سنذهب لخطبة كريمة المهردار.

كان سينطق، كان سيقولها أنه متزوج بزين لكنه وجد نفسه متراجعًا ليقول:

- حاضر يا والدي.

وجد عبد الحكيم أنه لمَ لا يساير والده إلى أن يهاجر؟ وإن كان على ابنة المهردار فسوف يصارحها وإن اضطر لجرحها سيقول لها بكل جرأة أنه تقدم لها احترامًا لرغبة والده، ثم أين هي الفتاة التي يقول لها الشاب أنها مرفوضة منه وتتمسك به؟ وهو لن يكذب عليها فيكون قد خدعها لأنه بالفعل لا يريدها.



بعد أن اجتازوا الحديقة توجه عبد الجبار وابنه عبد الحكيم والعبدان يرافقهم أحد مساعدي المهردار، دخلوا إلى القصر فالبهوِ وهو ساحة دائرية ينتصفه سلم مؤدي للطابق الثاني، كان للبهو من السعة أن حوى عدة أركان كل ركن بطابع مميز وإن كان الطابع التركي هو الأعم حتى مع الطقم الفرنسي المطلي بماء الذهب، فقد

استوت على الأرض سجادة تركية الملامح وفوق الحائط استقر بورتريه كبير لمحمد علي باشا، وهنالك كانت جلستهم حيث كان في استقبالهم المهردار وزوجته لاله زار وعبد الشكور وزوجته جولفدان. تعمدت لاله زار إبداء بعض من التعجرف المصطنع وعدم الاكتراث للضيوف بشيء من الإهمال والترفع عن إلقاء كلمة ترحيب واحدة، ثم جلس الجميع وبينما كانوا يتناولون الشاي دار حوار بين داوود وعبد الجبار حول إمكانية خلق تعاون مشترك بين الطرفين في تجارة الأقطان وزراعتها:

- حدثني عن تجارتك في القطن يا حاج عبد الجبار.

- إننا بلا فخر نزرع أجود أنواع القطن، إن لم تكن بذرة القطن نوعها أشموني لا يمكن أن تزرع في أرضي، نبني في هذه الأثناء محلجنا الخاص.

- التصدير يا حاج، ركز طاقتك على التصدير.

- عذرًا ولكن ما هو التصدير؟

- أي تزرع وتنتج ثم تبيع مباشرة لتجار في بلاد غربية بعيدة مثل أمريكا، مصر العام السابق فتحت باب تصدير القطن لأمريكا، هل تعرف بذور ميت عفيفي؟

- إنها أردأ أنواع البذور، لا نستخدمها في أرضنا.

- لقد وردناها نحن لأمريكا. لكن التصدير أكبر من سعة إنتاج قرية صغيرة كيامنة.

- إنني بلا فخر يا حضرة الهكمدار أمتلك أراضي على طول وعرض بر الصعيد، لقد ورثت من والدي أرضًا في يامنة وكم عزبة في المراكز المجاورة ولكنني وابني جابرًا كنا نعمل على شراء الأراضي كالمحرات نحرث فيها حرثًا، يزرع عمالي ثم نجمع القطن من كل بر ونبيعه لتجار القاهرة، تقريبًا أنا لا أزرع إلا القطن، بعض التجار ما إن يستحوذون على المال تجدهم سرعان ما راحوا يضيعونه لينعموا لشهر أو شهرين في العام، أما أنا فقد كنت أشتري بالمال أرضًا وهذا منذ خمسة وثلاثين عامًا كانت

أول عزبة أشتريها خارج نطاق إرثي من والدي، لقد درت على كل من كنت أظنهم أصدقاء ولم يقرضني واحد قرشًا أحمر، أنا لا أثق في صديق أبدًا فالأصدقاء لا تأخذ منهم سوى طقطقة الأحناك، وزنت الأمر في عقلي ورتبته وقسمته ثم أعدت ترتيبه فوجدت مخرجًا. أخرجت صناديق زوجتي ذهبها وأثوابها وحتى خشب الصناديق، وقد بكت الزوجة وولولت ولكن ما الزوجة إلا عبدة الزوج والرجل الذي يروح وراء أمر زوجته ليس رجلًا والنتيجة اشتريت العزبة وتوالت الغنائم.

مالت جولفدان على عبد الشكور:

- أتى ليخطب ابنة الرجل فيقول له ما الزوجة إلا عبدة زوجها، الحمد لله أن الباشا لم ينتبه إلى حديثه.

وكان داوود بالفعل مبهورًا بحديث عبد الجبار فلم يأخذ بالًا لعبارة عابرة كتلك، لكن لاله زار كانت مصغية وقد رفعت حاجبيها تعجبًا وزمت شفتيها استنكارًا.

أكمل عبد الجبار حديثه:

- وأين يقع زمام أرضكم يا باشا؟

لم يكن داوود يمتلك سوى ثلاثة فدادين في المنوفية أهداها له الخديوي عباس ضمن أرض قسمت على موظفي الديوان ولم يزد عليهم واحدًا، بالإضافة إلى أنه كان مدينًا بمبلغ من المال اقترضه من خزينة الديوان مكملًا على بعض مما ادخره ليشتري القصر. هنا تفوهت لاله زار:

- إننا لا نمتلك أرضًا بل عقارات وسندات مصرفية وأسهمًا في البورصة إلى غير ذلك من منازل في تركيا وأخرى في مدن في أروبا.. ها هي جوزال آتية.

أقبلت جوزال في فستان بلون زهري وشعر منسدل على كتفيها، مبطئة في مشيتها حتى لا يظهر أثر العرج عليها، لم يلتفت نحوها عبد الحكيم في الوقت الذي تعلقت فيه عيون الحاضرين بها. جلست جوزال بجوار والدتها. خاطب عبد الجبار ابنه:

- انظر لعروسك يا عبد الحكيم لا تخجل يا بني ولو إنني أرى أن القمر نفسه لو واجه وجهها لانكسف.

اقترحت جولفدان:

- لنترك للعروسين فرصة للتعرف على بعضهما البعض ولننتقل نحن للشطر الآخر من بهو القصر.

ترك عبد الحكيم مع جوزال، ووجدت جوزال أنه ليس من بد إلا أن تستهل هي الحديث متفوهة بعبارة مجاملة بما تقتضيه الأصول راسمة على شفاها ابتسامة خفيفة:

- تشرفنا بكم سيد عبد الحكيم.

تجرأ عبد الحكيم أخيرًا ورفع رأسه موجهه ناحية جوزال، صدمه جمالها لكنه لم يزعزع في قلبه من أثر، كان قد صمم بداخل نفسه على مواجهة جوزال فهي فتاة جميلة ذات حسب ونسب لن يحزنها أو يزعجها إن قال لها صراحة أنه لا يريدها، على كل حال ستجد زوجًا يناسبها.

- آنسة جوزال، أنت أمام شخص ضعيف الشخصية عاش طفولة خائفة سببها والد متحكم الرأي متعصب، كنت أخشاه ولا أستجيب له لذا كان التجنب والاعتزال هما طريقي في هذا العالم، انزويت على نفسي بين الكتب والدراسة، حتى كبر عقلي وجسدي على التوازي لكن الطفل الخائف كان ولا يزال يعيش بداخلي، إن والدي هو من اختارك عروسًا لي ولست أنا الذي اخترتك، إنني كنت أجبن من مواجهته فصدعت بالأمر طواعية لذا قررت مواجهتك، وأني لأستجديك الغفران من سوء أدبي معك.

مضت دقائق تحاول جوزال استيعاب الموقف، فكرت أنه يكون قد رفضها لعلتها وذلك العرج في قدمها فهان عليها أن تهان، وأشفقت على حالها. لم تكد تسترجع رباطة جأشها حتى اندفعت تجري ناحية السلم تجر قدمها جرًا. لاحظ عبد الحكيم إعاقة جوزال فتأثر وشعر بسوء أدبه أن رفضها وجهًا لوجه وبلا التماس

الشفقة على مشاعرها الأنثوية، جاعلًا إياها كبش الفداء لجبنه. انتفضت لاله زار وجولفدان وراء جوزال بدون أن تنطقا كأن المفاجأة قد عقدت لسانهما، واعتذر داوود من ضيوفه متتبعًا أثر ابنته.

سأل عبد الشكور عبد الحكيم:

- ماذا فعلت للفتاة، لقد تركناها معك صافية الحال؟

ارتبك عبد الحكيم وهو يقول بنبرة سريعة اللحن:

- لا، لم أفعل شيئًا، من الظاهر أنها رفضتني.

ثم أفسح لنفسه الطريق مبعدًا ريحان وبشيرًا ورحل غير ملتفت لأحد عائدًا لزوجته.

في منزل فيولا وديمتري جلس عبد الحكيم بجوار زين، بعد شد وجذب فيما بينهما لإصرار زين على معرفة ما وراء تجهم عبد الحكيم وتعكر مزاجه، صارحها بسبب زيارة والده وأنه راجع من منزل الفتاة التي أراد له والده أن يخطبها، وعن مباشرتها برفضه لها وتأثر الفتاة من ناحيتها وكيف أنه الآن معذب الضمير. قالت زين بغضب واستنكار:

- أنت بفعلك في عدم مواجهة والدك، كشخص لم يجرؤ على عبور الشارع فألقى واقفًا بجواره أمام العربات لينشغل الكل بالحادثة وتستطيع أنت العبور.

- لا تعذبيني أكثر يا زين.

- عليك أن تتعذب يا عبد الحكيم إن فضائلك لا تشفع لنواقصك عند خالقك. أتراني حقًا سعيدة بك أو فخورة؟ لا.

- لقد عبرت بصدق شديد عن رأيي يا زين.

- بل لقد كنت وقحًا يا عبد الحكيم لا تكذب على نفسك، لمَ لم تصارح والدك أيها الصادق؟

- وهل كنت تقبلين أن آتي لك بزوجة ثانية؟

- بل كنت أقبل مواجهتك متخليًا عن خوفك.

رمت زين بكلماتها وما كان من عبد الحكيم إلا أن رحل أيضًا من عندها هائمًا في الشوارع متأملًا ظله المنساق إلى جواره، هادئ الظاهر، مشتعل الباطن. خامد عقله ناشط قلبه يضطرم بمشاعر جهمة، يسأل نفسه، ما الذي يحدث له؟ إن كان غير قادر على اتخاذ قراره بمن يتزوج أو بمن لا يتزوج فلمَ أقدم على توريط زين وجرح مشاعر جوزال؟

- ما ضاقت إلا فرجت، ربك كريم.

تطلع عبد الحكيم من جنبه فوجد رجلًا لا يعرفه مارًا بجواره، ربت الرجل على كتف عبد الحكيم ثم أكمل طريقه، مسح عبد الحكيم دموعه المنسابة راجعًا لمنزله وهو يهمس بداخل سره «لا سبيل إلا الهجرة والهروب».

لم تنطق جوزال بكلمة وظلت متخشبة فوق فراشها لا يعبر وجهها عن شيء، لم يفلح معها حديث أي أحد وظلت على حالها. انفرد داوود بعبد الشكور:

- ماذا فعل ابن الفلاح بابنتي يا عبد الشكور؟

- لا أعرف يا سيادة الهكمدار لكنك أدرى بابنتك جوزال هانم حساسة لعله تحدث بلهجة أهل بلده فصدمت، لعله لم يعجبها شكله أو طباعه.

- ابنتي لا تؤثر فيها الشكليات يا عبد الشكور، إنه لا بد أن يكون أذاها بالكلام أو بالتصرف، اعرف لي سبب حزن ابنتي من عبد الحكيم نفسه يا عبد الشكور.



في يامنة...

لم يغمض لتهاني رمش في هذه الليلة التي زارها فيها عابد بل ولم تتمكن من النوم فوق فراشها، فظلت مستيقظة تفكر حيال الأذى الذي اقترفته في حق الإنسان الذي أحبت، وكيف تكفر عن ذنبها لعله يصفح ويصلح الحال بينهما. فقررت أن تراقب الجميع أمها وزوجة عمها ووالدها وعمها وإن كانت في ذات نفسها تمنت الموت لخضرا عن فكرة اختطافها. في الصباح الباكر قبيل شروق الشمس، كانت تقف أمام البئر الذي يملأ منه زيدان الماء فلما رآها أقبل نحوها:

- ست تهاني، أي خدمة يا ست البنات؟

- اسمع جيدًا يا زيدان، أريدك أن تراقب عمي جابرًا وتعين صديقًا لك مؤتمن السر لمراقبة أبي.

- وهل أخبرك عابد؟

- وهل كنت تعلم أنت من قبل أن أعرف ولم تخبرني؟ حسابك معي ولكن ليس الآن، الآن نفذ ما أمرتك به.

- حاضر يا ست البنات يا زينة العائلة لكن بالله عليك لا تغضبي مني.

- انتبه لعملك لست غاضبة، دعني أذهب قبل أن يرانا أحد.

- صحبتك السلامة يا غالية.

رجعت تهاني للمنزل ولما كانت الشوارع ملأى بعمال التراحيل والفتيات العاملات في الحقول لم يلحظ أحد وجود تهاني الغريب لما تدثرت به من ملابس قديمة، وقد استطاعت المرور عبر النساء اللائي لم تستطع الملاءات إخفاء ملابسهن البالية، وأما الحزن والهم فقد كانا كقرص الشمس في كبد السماء على وجوههن، أصواتهن مبحوحة خائبة الأمل وهن يحكين أيامهن التي تمر شحيحة قاسية.

دخلت تهاني الدار من باب الخدم الخلفي ومنه طوت الطرقة الصغيرة المؤدية للسلم الخلفي للدار، في حجرتها بدلت ملابسها ثم خرجت تستكشف الطابقين العلويين، حجرة قمصان وريحان كانت مجاورة لحجرة والديها ولكن ريحان كان يبات في الخمارة وبذلك فإن قمصان قد استوطن الحجرة.

لم تكن علاقة تهاني برئيسة الفترة الماضية على ما يرام، فبينما كانت تمر تهاني بفترة غيابها الكلي عن نفسها واغترابها كانت رئيسة منغمسة في اللذة المحرمة مع قمصان، ولذا فإن تهاني لم تكن لتلاحظ ما يحدث بين الاثنين. حامت تهاني حول الحجرات فأثار سمعها ضحكة ظنت أنها آتية من خلف باب حجرة والديها، فرجعت صوب الحجرة ورققت السمع لكنها لم تسمع شيئًا، ثم رنت ضحكة أخرى أكدت لها أن الصوت آتٍ من حجرة قمصان فظنت على الفور أن واحدة من الخادمات غواها قمصان وهو يجتمع بها في حجرته الآن، كانت ستفاجئهما بفتح الباب لكنها آثرت الاستماع لما يقولانه. استبد بتهاني قشعريرة لما سمعت صوت أمها، سألت نفسها «ماذا أنا بفاعلة يا ربي؟» أتواجه أم تضع بينها وبين صورة الأم ألف حاجز وباب هو باب حجرة العبد. انزلقت من على الباب وهي تسمع قمصان يحكي لأمها كيف خطفوا خضرا وحملوها إلى بدروم الخمارة، ثم همز ولمز وعند ذلك لم تستطع الإصغاء لأكثر من هذا الوجع، جاهدت تهاني نفسها في النهوض لكن جسدها كان كغيمة رمادية ثقيلة غير قادر على حمل نفسه ولا على إنزال مطره ليخف، فزحفت تجر جسدها حتى وصلت لحجرتها، تعلقت بمقبض الباب فتحته ودخلت.

ارتمت على أرضية حجرتها تبكي منتحبة غير مصدقة أو مكذبة لما سمعت، يتقطع قلبها بداخلها كيف لأمها أن تنعتق من أمومتها وميثاقها مع الله والزوج وتقلل بنفسها وشأنها؟ كيف لم يثنِها الضمير وكيف أطلقت العنان لأهوائها؟ وعبر محاورة تهاني لنفسها كانت تضرب بقبضة يدها فوق جسدها لعل الذي سمعته كابوسًا ربما تفيق نفسها منه.

في حجرة قمصان لم يقتصر الحديث على خبر اختطاف خضرا فقد تطرق الكلام لموضوع حمل رئيسة، كانت رئيسة تأكدت بأنها حامل وقررت أن تجعل قمصان يأتي لها بخلطة أعشاب من العطار مركبة لإجهاض الجنين، لكن قمصان أوزع لها بأن تترك الجنين فوجوده ضرورة وحاجة ملحة لها ولزوجها أيضًا، فغدا يموت عبد الجبار ولا يرثه إلا أبناء جابر وحدهم، رفعت تهاني حاجبها وقالت:

- إلا جابر وأبناؤه.. لكن كيف سأواجه همامًا يا قمصان إني لو قلت له لقتلني وأنا واقفة.

- سوف تذكرينه بالليلة التي رماك فيها بين ذراعي هنا على ذلك الفراش وقال لك «هات لي ولدًا حتى وإن كان من العبد».

- لكنه كان مخمورًا يا قمصان وهل يتذكر؟

- وهل نسيت أنا أن لا أذكره؟ إنه يتذكر تفصيلًا كل تفاصيل تلك الليلة، نفذي ما سوف أقوله لك.



قبيل الغروب استيقظت تهاني، تتأرجح بين همين هم قلبها وهم أمها، الشيء الذي كان يهمها أكثر هو إرجاع خضرا لكن كيف عساها أن تلتقي بعابد؟ هو لا بد أن يكون راجعًا الآن مع عمال التراحيل ما دام ترك بستان العنب، ارتدت ملابس خروجها وقررت الذهاب لدار الجد عبد الجبار حيث تقطن حجرة الخدم بداخل الدوار. أثناء هبوطها من الطابق العلوي للسفلي تقابلت وأمها رئيسة:

- إلى أين يا تهاني؟

بدا لتهاني أن من تحدثها ليست أمها إنما شخص غريب بعيد، ردت بسرعة:

- إلى دوار جدي، ولا ترفضي لأنني وإن رفضت سوف أذهب.

- ألهذه الجرأة وصل بك الحال يا تهاني؟

- جرأتي وإن وصلت آخر حدودها لن تتعدى حدودها يا أمي، أنا حرة بداخل نفسي وحريتي وعل يطوق الأرض ركضًا أسفل أشعة النور، هل تحبين أن أخبرك سرًا؟ أنا أحب عبدًا من العبيد بحريتي أقولها لك، وبحريتي أقول لك أنني تمنيت الزواج به وبحريتي أقول لك أن حريتي كانت حرة من أي خطيئة.

الأم التي صدمها رد تهاني لم تستطع الرد تاركة إياها غارقة في الحيرة، أي عبد وأي خطيئة تقصد، هل تهاني كانت تقصدها هي ولا تقصد نفسها؟ جلست رئيسة تفكر وتفكر.

دخلت تهاني من بوابة الدار بدون المرور بالفناء ولكنها انحرفت ناحية حجرة العبيد التي كانت مضاءة، مما يعني أن أحدًا بها، وقفت عند الباب، العمال الذين كانوا يبدلون ملابسهم ارتبكوا فمنهم من ظل ممسكًا بملابسه متسمرًا ومنهم من راح يرتدي ملابسه على عجل، كان عابد من ضمن العمال، غمز لتهاني في إشارة أنه سوف يتبعها حيث جاء لفهمه أنها أتت لأجله ولكي لا يثير الشكوك غمز لها أنه سيتبعها، ارتدى عابد ملابسه وخرج من الحجرة يبحث عن تهاني، كانت تهاني واقفة خلف الدار أمام شونة التبن والعلف ولما رأت عابدًا دخلتها:

- ها لا تزالين على قيد الحياة؟

- وهل أرحل وعيونك السود موجودة؟

- أنت جريئة.

- صادقة تقصد.

- ماذا تريدين أيتها الشيطانة الصادقة؟

- عرفت لك مكان خضرتك.

مخضوضًا قال:

- أين؟

- محجوزة في مخزن الخمور، خطفها عبيد الأسياد، ها أنا أبرئ ذمتي من ذنبها؟ هل صفحت عني؟

- عليك أن تطلبي العفو من الله وليس مني.

- الله أرحم من البشر وسوف يغفر لي هذا ظني به، لكن ظني بك أنك تكرهني يا عابد.

كان وجه تهاني وقد انسحب منه الكبر والغرور، أصبح طفوليًا وبريئًا بدرجة أن عابدًا لم يمتنع من التبسم له بلا وعي منه كأنه قد رأى وجه ملاك أمامه.

- لا تغلبي نفسك في التفكير، وهل أكره من سببت سعادة أختي وإن كانت سببت تعاستي؟

- أنت لا تكرهني إذًا؟

- وكيف أكرهك وأنت مضادة للكره، الطيبون لا يكرهون، حرام كرههم يا تهاني وإن غلبهم شيطانهم فهم قادرون على مغالبته، الشيطان لا يسعى إلا لمس الطيبين. وحتى حينما كنت أقول لك أنني أكرهك لم أكن أكرهك. أنا أحبك يا تهاني ولكن ليس بالشكل الذي تحبينني به، أنا أحبك مثلما أحب أختي زين وصديقي زيدان.

بالدموع قالت:

- أنا صالحة يا عابد.

- أعرف. اذهبي الآن يا تهاني حتى لا يراك أحد، سهد الليالي وهمها حفرا وجهك اذهبي ونامي ولا تقلقي أنا لا أكرهك وهل يكره المرء من أحبه؟



الآن عابد يطير من سعادته، يحب تهاني حبًا في خضرا وبقائها حية، لو يقدر أن يركب الريح ويسرق خضرا لفعل ولكن هيهات أن يدركها فمخزن الخمور لا يمتلك مفتاحه سوى عبيد الأسياد. أمسك عابد بحجر وانهال على الحائط ضربًا، إن الوقت ليس في صالحه فقد يقتلونها أو يمسونها بسوء.

ذهب عابد لبستان الكرم، تحسس عابد المخزن لم يكن من بواب عليه ولكن الباب مغلق، ليس عليه إذًا سوى الانتظار حتى يجيء أحد من العبيد ليأخذ كمية من الخمر فيعاجله بضربة فوق رأسه ويسرق منه المفتاح ويأخذ خضرا.

الخمارة تقرع فيها الكؤوس والزجاجات وعلى إحدى الطاولات يساوم قمصان أحد الأثرياء في بيع خضرا، فطلب الثري أن يعاين الفتاة وإن كانت تستحق المبلغ المتفق عليه أم لا، قال له بشير:

- هي موجودة في مخزن الخمور، ستجدها هزيلة لكنها لينة كالعود الأخضر وهي بكر وكل ما فيها بكر لم يمسسها إنس ولا جان، إنني ورفقائي لم نطل منها ولو قبلة هي صاغ سليم بقشرتها لك.

حركت كلمات وصف قمصان لتهاني مشاعر الثري قائلًا بلهفة:

- خير البر عاجله نذهب ونعاين الآن.

أخذ قمصان الرجل متجهًا لمخزن الخمور في البدروم، وكان عابد جالسًا أسفل السلم ممسكًا عصا ثقيلة ينتظر قدوم أي عبد إلى المخزن، سمع عابد وقع الأقدام فالتصق بالحائط وقد عرف من الصوت أنهما رجلان واحد منهما هو قمصان، فقرر أن يصوب الضربة الأولى مباغتة على قمصان لأنه الأقوى، رآهما وهما يدلفان من السلم إلى ناحية الباب، هنا استقبل عابد قمصان بضربة جعلته يتأرجح فضربه الثانية التي أسقطته، كاد الثاني أن يصرخ فعاجله بضربة أردته على الفور ممددًا على الأرض. كتف عابد قمصان الذي كان يتأوه بعمامته وأخذ المفتاح وراح يجس نبض الآخر فوجده حيًا ثم تركه على حاله.

لم يتردد عابد أو يفكر فدخل المخزن على الفور، وحين فتح الباب وتقدم خطوات سمع صوت أنين فعرف به مكان خضرا. حين وجدها في البداية ضمها لصدره، قبل رأسها وطمأنها أنها الآن في حماه، فك قيدها وحملها يجري بها لخارج البستان، جرت دموع خضرا فرحًا بملاقاة مختار قلبها وقد نسيت كل الأمور السابقة الموجعة، واندفعت الدماء في عروقها نشطة فترجلت من على ذراعي عابد تلاحق ساقيها الريح، هما الآن على الطريق من بعد منتصف الليل تضمهما عباءة الليل السوداء. توقف عابد بخضرا وكانت خضرا لا تزال تبكي.

- لماذا تبكين يا خضرا من المفترض أن تكوني سعيدة، لقد كنت مستعدًا لأن أفديك بعمري.

- لقد ورطك يا عابد ما ذنبك؟ سيقولون أنك من خطفتني إن رجعت بي وسوف يسيئون الظن بك.

- قولي لي إلى أين تريدين الذهاب، كل شيء مرهون بمشيئتك لا تستحي إني أعلم بعظمة القلق الذي يعتريك لكن لا تخافي.

- إلى بيت أبي الذي باعني لن أذهب، خذني معك لأي مكان.

هنا ركع عابد أمام خضرا قائلًا:

- إني على استعداد أن أطير بك يا خضرا وإني مقدر تضحيتك لي.

خليل الذي قرر مراقبة عابد، لم يتركه من ذلك الحين ولو فينة، يلاحظه عن بعد ومنذ أن تقابل وتهاني وذهب إلى كرم العنب وقتاله قمصان والرجل الذي معه وحتى استحواذه على خضرا كان يراقبه، وقال في نفسه أنه لن يأخذ منه خضرا إلا في مكان أمين خوفًا في الأول والآخر على نفسه. كان عابد سريع الخطى حتى وهو يحمل خضرا أما خليل فقد كان نعلاه يعيقانه فينغرسان في الوحل وينزلقان فينخلعا، وينحني هو ليلبسهما حتى خرج من البستان متقفيًا أثر عابد على بعد مناسب حتى وصل إليهما، عاجله عابد:

- لا تظن أني خطفت ابنتك يا عمي.

- أعرف لقد كنت أراقبك، هات خضرا الآن فعبد الجبار سيكتب كتابه عليها فور رجوعه من القاهرة. تعالي يا خضرا أمك تموت عليك.

راحت خضرا تحكي قصة اختطافها لعل قلب والدها يحن ويتركها تذهب مع عابد، لكن الأب كان صلفًا وحازمًا فشدها من ذراعها، وقد شاطر عابد عذابات خضرا متوسلًا لوالدها أن يتركها لكن خليلًا اعتبر ذلك سوء أدب وتقدير من عابد، ليس لأنه أنقذها يطمع فيها. فرد عابد:

- إن ابنتك لو عاشت معي في كوخ لعاشت بطمأنينة وسرور، أي أب هذا الذي يفضل تعاسة ابنته على سعادتها؟

- كلا، لن أعطيها لك حتى وإن اضطررت لإرجاعها للعبيد.

قالها خليل بحزم، رنت خضرا إلى فتاها بنظرة مكسورة أنه لا أمل. وها هو الأمل يستحيل مرة أخرى على عابد بعد أن ظن أن نجميهما قد سطعا وأعطتهما الحياة إشارة العبور، تاركًا حبيبته التي ضحى من أجل إنقاذها لنفسه ونفسها تروح لرجل آخر. ترك عابد خضرا ومشى منكس الرأس. أمسك خليل بيد خضرا يسحبها وعيونه تلمع في العتمة بحقد ليس لأحد ولكنه حقد وكفى حتى وصلا إلى منزلهما.



-٢٢-

نعسة منذ وصول ضرتها المنزل نزلت لمنزلة الخادمة عندها وعند زوجها، حتى إن حجرتها امتلكتها فتاة البار معطيًا لنعسة حجرة في الطابق السفلي، ولم يكن ليعترض أحد في الدار لمعرفتهم بصفاقة فاروق وسوء أدبه مع الكبير والصغير لذا تركوه على راحته فيما جلب، وإن كان أهل الدار من إخوة وأم اعتبروا زواجه من قمر فتاة البار عارًا، ولكن على أضعف الإيمان عليه أن يخبئ الأمر وأن يكون سرًا لا يخرج من دارهم. أما قمر فقد كانت تسيء لنعسة على مرأى ومسمع من الكل معتبرة إياها خادمتها بالفعل، وكانت نعسة مهددة بالكي والجلد إن خرجت بالسر من دارهم لدار والدها؛ ولذا ولخوفها آثرت الصمت وتحمل الذل والمهانة. أصيبت نعسة باكتئاب وحزن جعلاها لا تبرح حجرتها ليل نهار تحدث نفسها، تتوعد بقتل نفسها وقتل زوجها وزوجته وحماتها وكل يامنة.



في القاهرة....

ذهب عبد الشكور لمنزل عبد الحكيم يستفسر عن السبب الذي أوصل جوزال لتلك الحالة، وكان عبد الشكور لأول مرة في حياته غاضبًا بالشكل الصريح على أحد من أولياء نعمته وحدث أن حدث عبد الحكيم بحدة أمام والده.

- عبد الحكيم لقد أثبت رعونة كمثل رعونة هؤلاء من تصدر منهم تصرفات غير محسوبة وكلمات غير منتقاة فلا يدركون حجمًا للمصائب، إنني لعام كامل أسعى لسحب كلمة موافقة من سكرتير المهردار بتزويجك من ابنته،

موافقة فقط بالتقدم لجوزال ابنة سكرتير المهردار والتحدث لجناب والدها بلا علم إن كانت ستقبل بك أم لا، لتقوم أنت بما فعلت، ماذا بربك فعلت؟ هل تهجمت عليها مثلاً؟

- لتسحب كلامك سيد عبد الشكور إنه إهانة لشخصي.

- لتقل إذًا ماذا فعلت، هل أهنتها بسبب إعاقتها؟ والله إنك لو فعلت لاستحققت منها السب واللعن ومن والدها ومني شخصيًا ولكنت شخصًا مريضًا يستحق العلاج في مصح.

- ولا ذاك حدث.

- لا تضلل عقلي يا سيد عبد الحكيم، إذًا ما الذي أسقطها متخشبة لا تتحرك ولا تأكل ولا تتكلم؟

ارتبك عبد الحكيم هازًا كتفيه:

- وما أدراني؟ اسألوها.

- يا عبد الحكيم جوزال فاقده للنطق وهي لم تصبح على هذا الحال إلا بعد حديثها إليك، ووالدها يريد أن يعرف سبب صدمة ابنته، أرجوك لا تضعني في موقف محرج معه.

- إذًا خذني لعندها.

أراد عبد الحكيم توضيح وجهة نظره لجوزال لعلها لا تسيء به الظن. وتحسب أنه بسوء تصرفه كان يريد التحرر من الزواج بها. وافق عبد الشكور وأخذه القصر لتبرئة نفسه بنفسه والخروج من ذلك المشكل. في القصر وقف عبد الحكيم كتلميذ ينتظر عقابه أمام والد جوزال وقبلها حذره عبد الشكور بأن يحترس في كلامه، فإن وجد نفسه غير قادر على المواجهة فليصمت ولا يندفع أمام رغباته المندفعة، وعليه التحلي بالكياسة وخفض بعض من الذل والتذلل بشيء من المجاملة وكثير من اللباقة:

- وها أنت أمامي أخبرني إذًا بماذا أسأت لابنتي؟

- أنا أطلب مقابلة ابنتكم وعلى انفراد يا باشا.

سحب داوود ساقه من فوق الأخرى معتدلًا وصاح بغضب:

- وهل أنا مجنون لتركك مرة أخرى تنفرد بابنتي؟

- أنا من سببت تعاستها وأنا وحده من يستطيع معالجة الموقف.

- أنت معترف إذًا؟

- نعم سيدي واسمح لي بتصحيح الوضع.

تراجع والد جوزال بلا حيلة، ذهب لحجرة جوزال وطلب منها مقابلة عبد الحكيم لكن، أدارت رأسها رافضة، أما عبد الحكيم فقد كان مصممًا على مقابلة جوزال فما كان من الوالد إلا أن أخذ عبد الحكيم من يده وذهب به حيث جوزال، وأمام جوزال أطرق عبد الحكيم ببصره في الأرض ثم طلب من والدها أن يتركهما على انفراد، رفضت لاله زار طاردة عبد الحكيم لكن الوالد أوقف زوجته بإشارة من يده، ثم تأبط ذراعها وخرج بها من الحجرة وهي تحاول التملص منه طالبة منه أن يتركها مع ابنتها. لم يرتب عبد الحكيم كلامه مقررًا أن يكون ارتجاليًا بما يقضيه عليه ضميره اتجاه زين وجوزال، جلس على كرسي مزوي بجوار النافذة بحيث لا يظهر وجهه أمام جوزال وهو يحدثها، كانت مزهرية تحوي ثلاث وردات ذابلة قابعة فوق الطاولة، فوجد أن يبدأ حديثه بالكلام عن الزهور كي يطمئن قلبها له ويعتاد صوته.

- لا بد وأنك تحبين الزهور وخاصة البيضاء والصفراء والحمراء، البيضاء الدالة على صفاء نيتك وهدوء نفسك والصفراء الدالة على توهج ذكائك وفطنتك والحمراء التي هي قطعة من جمالك. لكنك الآن مثلهن حزينة وذابلة ولا يليق بالزهور إلا أن تكون نضرة متفتحة.

كان عبد الحكيم ذا نبرة صوت هادئة حالمة فأثرت كلماته في نفس جوزال التي

انفرد وجهها بعد العبوس وارتخت عضلاتها بعد التشنج، ولم يكن عبد الحكيم وهو جالس ينتظر رد فعل جوزال على كلامه، يتطلع إلى الزهرات الثلاث يشعر بوجود جوزال واقفة بجواره تتطلع إلى وجهه من حيث لا يراها هو. سألها:

– جوزال هل تسمعينني؟

تنهدت الجميلة فشعر عبد الحكيم أثرًا لها بجواره، أدار وجهه فوجدها تنظر إليه باسمة العيون نحوه فهب واقفًا لا تجد الكلمات سبيلًا للعبور، بدت جوزال في وشاحها الأبيض وقميصها السماوي ملائكية جدًا وراقية، لم يكن عبد الحكيم واثقًا من أي مشاعر يحمل اتجاه جوزال لكن جوزال كانت واثقة بما مسه في نفسها عبد الحكيم، جلست على الكرسي المقابل ينبثق الإعجاب من عينيها:

– ها أنا أستمع لك، أكمل حديثك إنه من غير شك عجيب صاغته الحكمة ونسقته البلاغة.

– آنسة جوزال، لقد أسأت فهمي إنه أنا المعاب ولست أنت، أنا الضعيف العاجز ولست أنت. هل تعرفين من الذي أجج ضميري ضدي؟

– لا.

– إنها زوجتي.. لا تندهشي نعم فأنا متزوج سرًا، سمراء يقولون أنها عبدة وهي حرة ابنة حرة، ولأنني ابن عبد الجبار ولأنني ممنوع من أن أختار وخوفًا عليها تزوجتها سرًا، لو كنت محتالًا لما أخبرتك ولكنت خبأت السر عنك وربما تزوجتك لكنني أكره أن أكون كذلك، مخادعًا، فسامحي واعذري والتمسي فيّ حسن النية.

حديثه المهذب، خلقه الحليم ووجهه البشوش لم يترك في جوزال من حقد عليه وأذاع حولها بهجة ترددت على القلب بشيء من الكآبة حين جاء على لسانه ذكر أمر زوجته، وكان غريبًا على جوزال أن تخرج من حزنها إلى تلك الحالة النورانية من مجرد كلمات تجاوبت معها نفسها، وهي التي كانت تنغمر منذ قليل في أحلام الرغبة في الموت، فطلبت من عبد الحكيم:

- ألا نكون أصدقاء يا عبد الحكيم؟

- نكون يا جوزال.

خرجت جوزال من حجرتها تهتف على والدها ووالدتها:

- ماما، بابا لقد حلت الأمور وزال سوء الفهم.

لم يعقب الوالد وذهب ليعلن في القصر خطوبة جوزال على عبد الحكيم في اندهاش من جوزال وعبد الحكيم ذات نفسيهما.

في منزل فيولا وجورج كانت زين قد استردت جزءًا من عافيتها بالدرجة التي يمكنها التحرك بمفردها والجلوس والنهوض والمشي، الوقت بالنسبة لزين بعيدًا عن عبد الحكيم بدا لها ثقيلًا وكئيبًا ولماذا لا وهي لا تزال على خلاف مع عبد الحكيم بسبب موقفه اتجاه فتاة لاذنب لها. كان المساء قد حل وزين جالسة مع فيولا، فيولا تسترجع ذكرياتها في فرنسا وهي تشتغل التريكو وزين شاردة الذهن تفكر في زوجها. على فجأة ظهر عبد الحكيم أمامها جاء من الخارج مع جورج، طارت نحوه على جناحي الشوق، أيفرح عبد الحكيم بمصالحتها له أم يترك قلبه في نفس الحالة، حالة الانقباض؟ وكيف سيقول لها ما حدث وما كان؟

- ما بك يا عبد الحكيم إن بداخلك حكاية؟

- نعم يا زين حكاية مرة علي وعليك.

همت فيولا بالانصراف غامزة لجورج أن يسبقها لكن عبد الحكيم استوقفهما:

- من الأفضل أن تشاركانا الرأي فأنا في موقف لا أحسد عليه، بدون تعمق في المقدمات لقد أصبحت جوزال خطيبتي.

ارتدت زين فاقترب منها عبد الحكيم، أمسك بكلتا يديها وقال:

- زين تعرفينني وتعرفين قدر الحب والوفاء لك، لقد ورطت كما ورطت الآنسة جوزال، لم يكن بيدي أو بيدها.

بكت زين فضمها عبد الحكيم لصدره مقبلًا جبينها:

- لقد أصبحت مصممًا على الهجرة أكثر من السابق، ولن أجعلك تتعذبين يا زين أبدًا لن أجعلك.



-٢٣-

لأسبوع آخر استمرت إقامة عبد الجبار في القاهرة، وفيه لم تتوقف الزيارات اليومية بين عبد الحكيم ووالده وعائلة جوزال، وقد وطدت تلك الزيارات علاقة الصداقة بين عبد الحكيم وجوزال من ناحية عبد الحكيم، كان الاثنان يسيران حول سور الحديقة يتحدثان عن الحياة، عن الأبيض والأسود فيها، الخير والشر والحب والكره وفي التاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلم النفس، كان عبد الحكيم متحدثًا متمرسًا وكانت جوزال مستمعة مثالية. لكن في تلك الليلة كان كلاهما صامتًا حتى انتبهت جوزال لهذا الصوت، صوت الكروان ينبهها فسألت عبد الحكيم:

- أجدك على غير عادتك صامتًا. فيم تفكر يا صديقي؟

- أفكر في الخوف وفي الضعف وكيف أن قوة العقل وغزارة العلم ليس لهما علاقة بقوة القلب وثبات النفس، أنا مهزوز لأقصى حد يا جوزال، فالخوف يمنعني من أن أحمي حتى زوجتي وابني الذي سقط جنينًا، ربما لو كان أبوه رجلًا قويًا لما مات.

- إنه القدر يا عبد الحكيم، عليك أن تعيد الأمل إليك ولا تقنط. ثم إنه حين تسمو نفسك وترتقي بصفاء قلبك، ستصغر أمامك أفعال البشر التي كانت تعكر مزاجك وتغير حالك في الماضي. حينها تكبر في عين نفسك أفكارك وأفعالك مع رداتها وتمتلئ بالثقة في النفس، تلك الثقة التي تجبر حتى أعداءك أن يخشوك والأهم أن يقدروك.

- نعم الأمل إنه الوحيد الباقي، الوهم الجميل الذي يزين لك المستحيل ويخدر فيك إدراك الحقائق هو الأمل. وأنت فيم كنت تفكرين؟

- كنت أفكر في لقائنا الأخير كيف سيكون وأنت تقول لي إلى اللقاء، وأنا أنظر إلى وجهك كالبلهاء أسأل هل هو حقيقي أننا سوف نلتقي؟

- سوف أسافر ليامنة ومن ثم سأهاجر للأبد وما بين السفرين سآتي لتوديعك، وآسف على أني لن أقول لك إلى اللقاء بل سوف أقول لك وداعًا.. ما أسرع إيقاع الحياة ما بين كل قرب وبعد!

تنهدت جوزال ثم استمرت في المشي لا ترى ولا تسمع، تبذل جهدها في تحريك قدميها وقد اكتسب وجهها لونًا أحمر قانيًا من الحنق وتعكر من الأسى.

وكان عبد الحكيم يصارح زين كلما زارها في منزل فيولا وجورج بزياراته لجوزال، يحدثها عنها فتغار حينًا وتتعاطف أحيانًا أخرى لأنها تعرف أن عبد الحكيم لا يبقي أثرًا في قلبه يخفيه عنها، وأنه يصارحها بما في عمق عمقه فهي تعلم مقدار حب عبد الحكيم لها وأنه لن يخونها ولو في الخيال وإن وضعت الدنيا بين يديه أجمل الجميلات.



في يامنة...

أفاق جوهر على أثر الضربة التي تلقاها من عابد غير متوازن فاقدًا لجزء من إدراكه إذ ظل قمصان قرابة الساعة جالسًا بجوار جثة الرجل يسترجع الأحداث من أولها، حتى تذكر من يكون الرجل ولماذا أتى به إلى المخزن لكنه لم يستطع تذكر من الذي صوب الضربات عليهما كأنه قد أصيب بفقدان ذاكرة جزئي. كان باب المخزن مفتوحًا فراح يتفقد خضرا فلم يجدها، إذًا من فعل هذا الفعل كان يريد الفتاة ولم يكن بدافع السرقة كما ظن بادئ الأمر.

زعيمهم بشير في القاهرة، من إذًا يستشير في تلك المصيبة التي حطت فوق رأسه؟ سحب جثة الرجل ودخل بها إلى المخزن مواريًا إياها خلف أحد صناديق

النبيذ وخرج ليجمع باقي عبيد الأسياد. في إحدى حجراتهم في البيت الكبير صارح قمصان باقي العبيد بما حدث له وللرجل، قال فضل:

- لو أن الفتاة رجعت لدارها إذًا من حررها يكون هو والدها وتلك مصيبة لأنه ربما يشي بنا عند الحاج بل وسيفعلها، وبالطبع سوف يصدق الحاج عبد الجبار نسيبه ولن يصدقنا.

عقب جوهر:

- موقف خليل ضعيف لأنه لم يحرر ابنته فقط بل قتل أيضًا واحدًا من أثرياء إحدى القرى التي تجاور يامنة، وتلك مصيبة على عبد الجبار أن يكون والد زوجته قاتلًا لأحد من أبنائهم، ثم لن يكون هناك محيص سوى الأخذ بالثأر وسوف تتأثر أعمال همام على أثر تلك المشاحنات حين تكتسب الخمارة سمعة سيئة.

أكمل قمصان من حيث انتهى جوهر:

- هذا يميل كفة الميزان لصالحنا لابتزاز خليل ودفعه لعدم الوشاية بنا لأنه سيكون معرضًا هو أيضًا للاتهام.

قال فضل:

- لنرتب خطواتنا، نذهب عصبة إلى خليل ونواجهه بجريمتنا وجريمته وعقد اتفاق معه ثم نرجع للتخلص من الجثة بدفنها في الجبل.

قال قمصان:

- وبالنسبة لرئيسة التي قلت لها أننا قتلنا خضرا؟

رد واحد من العبيد:

- رئيسة منذ الآن وبعد استقرار نطفتك في رحمها فهي العبدة في يدنا ونحن أسيادها، ماذا تقول يا قمصان ثق في نفسك يا أخي؟

أمام حجرة خليل اصطف الأربعة، أمسك قمصان بالمغلاق يطرق على الباب فخرج خليل، وخليل كان مصممًا في نفسه على الوشاية بالعبيد أنهم اختطفوا ابنته لذا لما رآهم رماهم بنظرة كره وبغض شديدين، لكن العبيد لم يكترثوا وسحبوا خليلًا من ذراعه واضعين الوضع كله أمام عينه يقايضونه، لكن خليلًا خوفًا على نفسه اعترف:

- على كل حال من أنقذ ابنتي لست أنا بل عابد، ومن المفترض أن يكون هو المستهدف منكم ولست أنا، من جانبي لن أخبر الحاج بسركم في مقابل أن تخلصوني وتخلصوا أنفسكم من جثة المغدور وعابد. لا أخفي عنكم فقد عاشرت عابدًا لفترة ليست بالقليلة وهو يكرهكم أشد الكره ويحقد عليكم وعلى امتيازاتكم لذا فإنه لن يترككم تعيشون في سلام ولسوف يلاحقكم.

وكان هدف خليل الحقيقي الذي رمى له هو التخلص من عابد فلا يثير قلقه على ابنته، فربما يخطفها هو المرة القادمة حيث إنه متأكد أن لخضرا أثر تعلق في نفس عابد كان ولا يزال.

رجع العبيد إلى مخزن الخمور ليأخذوا جثة الرجل ولكن ما اكتشفوه هو أن الرجل إنما كان مغمى عليه ولم يكن مقتولًا، يئن ويتوجع وهو شبه فاقد الوعي، وما كان من قمصان إلا أن ضربه ضربة ارتجالية قوية بعصا بدون تردد من بعدها لم ينطق، ثم قال قمصان «هكذا تكون خطتنا استقامت لنكمل إذًا تنفيذ ما نوينا عليه، سوف يذهب فضل لإيقاظ جابر وإخباره بأن عابدًا تهجم علي وعلى الرجل أمام باب المخزن بهدف السرقة، بعدها نقترح أن ندفن الرجل في الجبل بلا حس أو خبر كي لا نخلق ثأرًا بين القريتين، وتلفيق تهمة أخرى مغايرة عن تهمة القتل لعابد من صددها إدخاله السجن كي لا يكون سببًا في مشاكل أخرى.. هل اتفقنا؟ إذًا انتظروا للصباح يكون جابر قد أفاق بدلًا من أخذه على الحامي».

في الصباح كان جابر جالسًا في تكعيبة العنب في الدوار تدور الأفكار في رأسه، فقد وصلته رسالة في صباح الأمس من الثعلب تؤكد له أن لا أثر للفتاة التي يريد منه خطفها، وأن والدها يبحث عنها في كل مكان ولديه أمل أن يجدها قبل رجوع

والده، فكر جابر أنه ربما تكون الفتاة قد هربت من تلقاء نفسها وبذلك تكون قد وفرت عليه هم مسؤولية الاختطاف والمبلغ الذي كان سيدفعه للثعلب، لكن سريعًا ما تحدوه حسرة على الفتاة الجميلة ويقول في نفسه «لو أنها تمهلت لكانت اليوم ملك يدي معززة مكرمة، آه أيتها الفتاة المسكينة لقد ضعت وخسرتِ».

دخل عليه خبير ومرشد كاظمي الوجه عاقدي الجبين فسألهما جابر:

- ما الخطب؟

- إنه عابد.

- بالمناسبة اذهبوا لعابد واجعلوه ينظف حديقة استراحة الصيف في الجزيرة، الصيف على الأعتاب وأحواض الزهور مهملة لم تمتد لها يد منذ الشتاء، والأعشاب التف بعضها على بعضٍ وقد تكون الأفاعي قد تسربت لأحشائها، ثم يفضي بعد ذلك للغدير وقنوات الماء يوسع مجاريها، اذهب يا خبير له وأنت يا مرشد اجمع النساء من الدارين دار الحاج ودار همام واجعلهن أيضًا يذهبن إلى المنزل يزعفنه ويغسلنه ويغسلن المفارش والأغطية والأبسطة، هيا اذهبوا الآن كي تعودوا قبل إدبار النهار.

قال خبير:

- أخشى أن عابدًا قد يكون هاربًا الآن بسبب فعلته مساء أمس.

- وماذا فعل الأحمق؟

- لقد تورط في جريمة قتل وأي قتل؟ لقد قتل الحاج عوض عمدة قرية الـ.....

صرخ جابر:

- كيف؟

- الحاج عوض كان مع قمصان وقد نفدت الخمور فراح قمصان ليجيء بغيرها من المخزن، وللنصيب طلب الحاج عوض من قمصان أن يرافقه ولم يرفض قمصان احترامًا لهيبة الرجل وإن كان ممنوع تمامًا دخول

أحد المخزن غير عبيد الأسياد الموكلين بحراسة المخزن، اتجه الاثنان إلى البدروم وأمام باب المخزن وجدا عابدًا يحاول فتح القفل عنوة، لم يكد قمصان يمسك به حتى عاجله بضربة على رأسه أفقدته الوعي على الفور ولما أفاق وجد العمدة عوض مسجى ميتًا.

كان لهذا الخبر الشنيع أثره على جابر إذ لم يستطع أن ينطق بحرف، سهم قليلًا وقال:

- اقتلوا عابدًا على الفور.

- ليس القتل هو الحل يا سيدي، إن لعابد مكانته عند أهل يامنة وله بطانته فيها وخاصة خدمها وعمالها، إن ما حدث في قرية زرزور ليس بالبعيد حين أثارت الدماء ثورة باقي أهالي القرية وكانت مذبحة، إن الناس يتناقلون الأخبار بشيء من الحماسة والنفرة، إن روح السخط تستشري والغضب يتنامى يرون الفقر يأكلهم ويسمن العز أسيادهم وهم ينتظرون الشرارة الأولى فلا تجعل قتل عابد هو الشرارة لشق عصا الطاعة.

- ماذا تقول يا مرشد؟ إنه لو كلب تعلق بجلبابي لأفرغت الرصاص في رأسه، إنهم رعاع ضعفاء الإيمان أين إمام مسجدنا يعقلهم ويربيهم ويعظهم؟

- هذا الذي تنبه له يا سيد جابر ليس في الصالح فبالنسبة للكلاب فهو ليس بكلب واحد يا سيدي، أما إمام الجامع وأنت أدرى بإمام مسجدكم إن وجدها ثورة سيكون هو أول المنقلبين ضد طاولة طعامكم محولًا كرشه لمآدب أخرى يفتي فوق فتتها وثريدها. إذا ما اعتقل الكلب لا هو ميت ولا هو حي سيخاف باقي الكلاب. هي الدماء وحدها المثيرة للغضب ودونها غضب مكبوت قد يفجر صاحبه. أنا لست خائفًا إلا على توتر العلاقات بين يامنة والحاجر وبين الجبابرة وأولاد عوض. وأنتم بصدد افتتاح محلجكم الخاص ومضاعفة تجارتكم في القطن غير نسبكم العزيز مع سكرتير مهردار السراي. إن قطرة الدم الواحدة تلوث ماء الوضوء كله يا سيدي.

- أشر علي يا خبير أنت ومرشد.

قال خبير:

- أولًا ندفن الحاج عوضًا في السر بدون الإعلان عن خبر مقتله سيبحث عنه أهله وحين يفقدون الأمل في إيجاده سيسلمون أمرهم لله، ثانيًا نعتقل عابدًا عامًا عامين خمسة عشر، العمر كله، ومن سوف يسأل عن عبد سوداني لا أصل له؟ والمأمور حبيبكم إن قلتم سارقًا سيصدق على اتهامكم، إن قلنا احبسه بلا عرض على النيابة ولا محاكمة سيبني له المأمور سجنًا خصوصيًا.

- إذًا خذوا هذا الأمر على عاتقكم ولا تخبروا الحاج عبد الجبار عند مجيئه بأي شيء، لتنقسموا جزء منكم يذهب ليدفن عوضًا، احفروا له قبرًا في مخزن الخمور وجزء يأتي لي بعابد.

بعد تلك الليلة التي أنقذ فيها عابد خضرا ذهب لصديقه زيدان يبثه ألمه لعله يجد عنده من الكلام ما يجبر به خاطره، ويعينه على شقائه، فحزن زيدان على صديقه واكتأب لطالع صديقه السيئ وحظه البائس وراح يعزيه، وبعد تدبره أمر صاحبه مرة أخرى وجد أن الخطر يحيطه لا محال وأن عبيد الأسياد لن يتركوه فهم إما سيقتلونه أو يحرضون عليه أسيادهم، فطلب منه المكوث عنده لحين تدبير أمره.

بات عابد عند زيدان وفي الصباح ألهمه عقله بأن ينصح عابدًا بالهروب، لكن إلى أين؟ فعيون آل جابر مرشوقة في كل شبر من يامنة وخارجها، ليس إلا فرج وحده قادرًا على إخراجه من يامنة، واستقر بهم الرأي على تهريب عابد كما هربت زين ولكن هل سوف تسلم الجرة في كل مرة!

حفر العبيد قبرًا بداخل المخزن موارين فيه جثة الثري عوض عمدة قرية زرزور، ثم انتشروا يبحثون عن عابد قالبين عليه يامنة من شرقها لغربها، ألم زيدان بالخبر فلم يرد لفت الأنظار إليه فبعث بعيد إلى منزله وطلب منه التشديد على عابد أن لا يظهر لأنهم يبحثون عنه. وذهب هو للدوار باحثًا عن أمه التي كانت تجلس في الفناء الخلفي للدار أمام الفرن تدير الخبز، سحبها من يدها منتحيًا بها جانبًا:

- اسمعي يا أمي ونفذي ما سوف أقوله لك، إنهم يبحثون عن عابد وإن وجدوه فسوف يقتلونه، لا تخبري أي أحد أن عابدًا في بيتنا، والآن اذهبي وزغردي زغرودة طويلة يجتمع عليها كل الخدم وإن سألك أحد قولي زيدان خطب فرحة.

لم تتمالك الأم نفسها من الفرح فلم يكد زيدان ينهي كلامه حتى صدحت بالزغاريد الواحدة تلو الأخرى. وكان يقصد زيدان أن لا يلفت النظر إليه لأنه صديق عابد المقرب فيعلم الكل أن زيدان مشغول بخطبته وفرحه وإن كان مشغولًا بصديقه أو كان على علم بما حدث فإنه لن يخطب في هذه الأيام.

عبيد الأسياد وأعوانهم من الغفر فتشوا البلد شبرًا شبرًا ومن أول النهار وحتى بعد غروب الشمس ومع ذلك لم يجدوا عابدًا كأن الأرض انشقت وابتلعته، وكان زيدان وهو الشاب الساذج قد وافته الحكمة حينما تعلق الأمر بحياة صاحبه إذ صمم على أن يقيم حفلًا في هذه الليلة، فجمع أصدقاءه وكثيرًا من العمال في الوقت الذي كان يخبئ عابدًا فيه في إحدى الصوامع الفارغة. وكلما مر أحد عبيد الأسياد وسأله عن زيدان صرخ في وجهه «خاب عابد إن وجدتموه اقتلوه، عبد أسود أسر قلوب الناس حتى أمي باتت تحبه أكثر مني وتشكو مني له». وصدق العبيد حقد زيدان المزيف على صديق عمره ورحلوا.

انتهز زيدان حفلة خطوبته بأن اجتمع مع عيد وفرج وجرجس يبحثون أمر عابد، كان فرج قد حمل حمولته وموعد سفره غدًا الفجر، وبذلك سيصعب نقل عابد وعليه أن ينتظر شهرًا أو أكثر من شهر.

تهاني كان واضح أمامها أن حدثًا مريبًا وغريبًا يحدث في يامنة فلا أثر في المنزل لعبيد الأسياد، تبخروا مرة واحدة لا وجود لأي منهم لا في الكرم ولا في منزل جدها أو منزل عمها، تحدق في وجه هذا أو ذاك لكن لا جواب، ولدهشتها قررت سؤال والدها لكنه كان من الظاهر أن والدها نفسه كان غائبًا عن المشهد، غامت عيناها وخفق قلبها حين شعرت بأنه ربما قد حل خطر ما بعابد فمن المفترض أنه قد حرر خضرا، وربما قد أسروه معها ومع هذا الهاجس تأججت نفسها خوفًا.

وحين حل المساء مضت تهاني لمنزل زيدان ولم تجد حجة مناسبة للذهاب لداره سوى مباركة خطوبته. مسحت تهاني عرق التوتر عن وجهها بمنديل حريري رقيق ونفضت ملاءتها ثم دخلت دار زيدان الدار القديمة الهرمة من عمر جده، حين دخلت قبلت النساء وقبلوها وحيتهن وحيينها كما هو الحال في كل مرة تشارك فيها أفراح القرية وأحزانها، وفي غمرة انشغالهن بالغناء والاحتفال انتحت بفتحية جانبًا طالبة منها أن تطلب زيدان للقائها، وحيث إن الدار الصغيرة كانت مزدحمة بالنساء وفي الخارج قد تجمع الرجال انزوت تهاني في حجرة الفرن بجانب بنية الحمام تنتظر زيدان.

ولما أتى عرفت منه ما حل بعابد، اندهشت في البداية وذلك لأن العبيد هم من خطفوا خضرا فكيف إذًا يبلغون أسيادهم بما حدث من عابد وتحريره لخضرا متيقنة أن في الأمر سرًا وأنه لا يقتصر على اختطاف خضرا، من هي خضرا حتى يهتم عمها بأمرها سواء خطفت أو حتى قتلت؟ ومن هو عابد الذي يقلب من أجل إحضاره القرية بأكملها؟!

وقررت تهاني سحب فضل ومجاراته في الحديث متحججة بأنها قد فاض كيلها وازداد حنقها من تحرش بشير بها بالحديث والنظر، وأحيانًا بالتطاول بلمسها بين الحين والحين ما إن رآها بمفردها وكانت لا تجرؤ بالشكوى، وقد صدها في

ذلك أنها إن فعلت لاعترف بما كان منها من تطاولها على مال أبيها وخروجها من دون رغبته فصمتت ولم تتفوه، متحاشية الظهور أمام بشير على الأقل إن كانت بمفردها. طلبت تهاني من زيدان أن تقابل عابدًا لكن زيدان رفض خوفًا أن يكشف أمره، حطت دمعة على خد تهاني ذابت ثم انحدرت بعدها قطرات دموع لم يلحظها زيدان الذي ظل شاخصًا يفكر في ما تورطوا فيه جميعًا.



-٢٤-

الليلة التالية وفي أمسية خريفية شاحبة في الكرم كانت ليلة هادئة وموحشة بعد غياب وهج الغروب، لم يكن بوسع تهاني الواقفة بداخل إحدى العرائش تفرك يديها بعضهما ببعض الشعور بالهواء الخريفي البارد الآتي من بين العرائش مثقلاً بشذا أوراق العنب الخضراء، وهي مشغولة الفكر ومرتبكة. من آخر طريق الفاصل بين جانبي الكرم لاح فضل الذي طلبت تهاني من زيدان أن يستدعيه في تلك الليلة، وأن يظل هو متخفيًا بجوارها بأي آلة حادة فإذا تطاول عليها العبد وتهجم ضربه، كانت مغامرة من تهاني لكنها حسمت فيها أمرها بشجاعة وكأنها بحبها لعابد وضعت منطق الحماية والاهتمام بلا غاية، وأنه الواجب عليها فأصبحت بذلك مسؤولة عن حمايته، وتحسبًا لأي حركة غدر من العبد وضعت هي الأخرى سكينًا صغيرًا أخفته بداخل جيبها، أتى فضل مهرولاً:

- عرفت أنك طلبتيني يا ست تهاني.

جمعت ثباتها المتشتت وقالت:

- فضل، إنني طوال الليالي الماضية كنت مستغرقة في التفكير كيف أوصل لك حقيقة الذي يخص قلبي من ناحيتك. أنا أشعر بما طواه قلبك ولكنك لا تتكلم وأنا لا أتكلم أيضًا، وأنت لا تلمح ولا أنا ألمح لكن بعد أن وصلت لحد أظن نفسي فيه قد جننت وجب علي البوح، إنه أحيانًا كثيرة يخيل لي أنني أسمع صوتك وأكون بمفردي في حجرتي وأحيانًا أخرى أرى وجهك في المرآة بدلاً من وجهي وعلى هذا الحال كل يوم أبكي بكاءً أصم بسبب شوقي لك، ترى ماذا تسمي الذي أنا فيه؟

ارتبك فضل فلم يكن يتوقع بأن يقابل تهاني وجهًا لوجه ولو حتى في الحلم، فما بالك بأنها في الحقيقة تتكلم بلسانه وتشرح حاله على أنه حالها، ظلت ضربات قلب

فضل تتزايد وقد بدت له تهاني رغم وضوح صورتها أمامه مشوشة ورغم بوحها غامضة، وقد شعر بأنه انفصل عن نفسه وعن الكرم وعن يامنة كلها وكأنه في مكان آخر في الدنيا لا يعرفه.

- ست تهاني لا أعرف ماذا يقال في المواقف تلك حين تقف الأميرة أمام خادمها وتقول له ما تقولينه، خبريني ماذا أقول؟

- قل لي أنك ستحارب من أجلي يا فضل، ستحارب بشيرًا الذي يطمع فيّ وستحارب والدي وجدي وعمي وسوف تطلب يدي.

- سأفعل غدًا.

- لا، إياك، ليس غدًا يا فضل هل تريد الهزيمة من أول جولة؟ ثم ماذا لو وافق عليك والدي وخطبتني ثم أمر بزواجنا الأسبوع المقبل مثلًا كيف سيتم الأمر وأنا ما زلت أرهبك؟ ليعتد بعضنا على بعض في الأول، نتقابل كل يوم، ونتحدث ونتسامر أليس ذلك أفضل يا فضل؟ لأنه أيضًا من الممكن أن يرفضك والدي فيحجبك عني ويحجبني عنك ثم نكون خسرنا اللقاء على الأقل.

- نعم عندك حق لنستمتع بكل ما هو مباح قدر الإمكان.

ثم هم ليضع ذراعه حول كتفها، فأبعدتها تهاني برفق:

- أنت متسرع يا فضل وهذا يجعلني أخاف منك.

- لا، لا تخافي يا تهاني.

- إذًا هل تعدني أن لا تلمسني إلا إذا سمحت لك بذلك؟

- وهل سوف تسمحين؟

- نعم بالطبع يا فضل، ولكن ليس اليوم.

- وأنا منتظر ذلك اليوم من تلك اللحظة وهذا التو.

- قل لي يا فضل، ماذا يحدث في يامنة؟ إنها في هذه الأيام واقفة على قدم وساق؟

- إننا نبحث عن عابد لاعتقاله؟

- وماذا أحدث هذا المعتوه؟

- سارق، سرق مخزن الخمور.

بدلال قالت:

- ألسنا الآن نفرًا واحدًا؟

- بلى يا ست تهاني.

- أجبني بتهاني نادني بما شئت، ثم إننا ما دمنا شيئًا واحدًا وعن قريب سوف نتزوج، صارحني إذًا؟

- لدينا تعليمات مشددة باعتقاله، إنه مورط بجريمة قتل، قتل عمدة زرزور.

- يا إلهي! بالله عليك قل لي كل شيء، إن الفضول يملأني يا فضل هات ما عندك كله يا قرة عيني وأعدك لن أبوح بحرف.

- عابد عنيف جدًا وهو شديد الخطر، لقد أصاب قمصان وقتل العمدة بضربة على رأسه.

- والسبب؟ قل لي السبب لا تعصبني يا فضل أو اذهب ولا تراني مرة أخرى.

- السبب خضرا، اسمعي يا تهاني ليس بمقدوري البوح لك بأكثر من هذا.

أعرضت تهاني عن فضل وولت عنه تجري مصدقة وغير مصدقة، هل قتل عابد الرجل بالفعل وهو ينقذ خضرا؟ في الصباح الباكر وقبيل شروق الشمس التقت بزيدان وأخبرته بالمعلومات التي أخذتها من فضل حتى يخبر بها عابدًا ويستعلم عن صدقها من عدمه.

في اليوم التالي وعلى الظهيرة رجع عبد الجبار ومعه عبد الحكيم وعبد الشكور والعبدان، لم يخبر أحد عبد الجبار بما حدث في غيابه لكن عبد الشكور بحسه شعر بأن شيئًا غريبًا يحدث، فالأسياد ولأول مرة بدون عبيدهم وهم في استقبال والدهم، فيا ترى في أي خبر هم منشغلون؟ ثم إن بشيرًا قد اختفى هو الآخر ولم يبق سوى ريحان الذي بدا وكأنه يراقب الموقف، وركن عبد الشكور إلى أن ثمة سرًا وليس سرًا هينًا مع عبيد الأسياد.

بعد الترحيب بالوالد والأخ دخلت صواني الطعام، رص فوقها الطواجن المدفون بداخلها قطع لحم الغنم وسط الأرز المدهون بدهنها، لم يأكل عبد الجبار واستسمح الجميع في أنه سيذهب للتمدد في حجرته، وكان الفضول قد سد شهية عبد الشكور فاستأذن هو الآخر في الذهاب لمنزله بحجة أنه يعاني من ألم في معدته، لكنه كان ذاهبًا في الأصل لتتبع أثر عبيد الأسياد.

خارج الدوار التقى بقمصان في أثناء رجوع الثاني للدوار.

- أهلًا قمصان طاب مساؤك.

- وأنت كذلك سيد عبد الشكور.

هم قمصان بالرحيل لكن عبد الشكور أوقفه:

- انتظر، أريد التحدث معك.

- سوف يستغيبني سيدي.

- هل تمر بي كمرورك بذبابة أمام وجهك؟ أنا أهم عندك من سيدك يا قمصان، فأنا أفهم لغة العيون جدًا وقد قرأتكم جميعًا. إن مصلحتنا واحدة وهدفنا واحد.

- أي هدف يا سيدي؟

- أتذكر اللقاء الأول بيني وبينكم حين كنتم تتسلون بالقصب؟ قبلها بعشر دقائق كنت أراقبكم، أراقب فيكم نبرة الصوت وحركة العيون، صحيح أن

لغتكم كانت مبهمة لكن نظرة عيونكم كان الطمع فيها صريحًا يخبر عن نفسه.

- لا أفهم.

- بل تفهم يا قمصان، جميعنا طامعون في يامنة، حتى أهلها طامعون فيها لكن الظلم والقهر والخوف دجن آمالهم. أنتم وإن امتلكتم النية والعزيمة فإنكم تفتقدون قدرة الابتكار والإبداع في الوصول لمبتغاكم. تدورون وتدورون، تتلصصون وتلاحظون بلا خطة واضحة، ماذا بعد الخمارة، ماذا بعد تدخلكم في شئون أسيادكم، ماذا بعد علاقتك برئيسة؟

- هل تجرؤ على الطعن في شرف أسيادك؟

- يا رجل فراش سيدك يشهد، أنا أيضًا لي عيوني، فأنا أمتلك أكثر من عشرين زوجًا من العيون بداخل وخارج الدوار، يكفيهم الجبابرة ما جنوه وكسبوه، ثم إنهم ظالمون يا قمصان وعلينا الوقوف على ظلمهم، يامنة تحتاج لبعض من العدل والتصحيح، وما سنأخذه نحن هو مقابل خدماتنا لحمايتهم.. أعطوني فقط الأمان ولنضع أيدينا في أيدي بعض، ليجتمع بشير بي في بيتي الليلة.. سلام وسلامة رأسك يا قمصان.

رجع زيدان لمنزله قبيل العصر، وكان قد صنع لعابد قفصًا على قدر طوله ثم فرشه من الداخل ولف جوانبه بقطعة قماش، أخرج عابد من الصومعة وجعله ينام في القفص ممددًا جسده عوضًا عن التخفي بداخل الصومعة مقرفصًا. انفرد الصديق بصديقه:

- اصدقني القول يا عابد هل حثتك رغبتك في إنقاذ خضرا على القتل؟

- لا يا زيدان لم يحدث هذا قط.

- أنت موقوف بتهمة القتل، قتل عوض العمدة.

- لقد أصبته في كتفه ولم أقتله.

- لكن كيف إذًا قتل؟

- لا بد أنهم عبيد الأسياد للصق التهمة بي وأنا متأكد.

لم يكن عابد منفعلًا حيال التهمة التي لفقت له لولا أن الغضب كان يحرق صدره، لكنه كان غضبًا مدحورًا مخنوقًا، لم يكن يرى في اتهامه سوى حلقة جديدة في سلسلة الظلم لا تختلف عن سابقيها، ظلمة ما زادها الظلام سوادًا، أما زيدان فقد دق الأرض بقدمه يلهج بالسباب واللعن معبرًا عن ما حوت حشاياه.



في الليلة التالية من رجوعه من القاهرة بعث عبد الجبار مرسالًا لخليل يأمره فيه بتحضير ابنته لأنه سيتم عقد القران بعد ثلاثة أيام والزفاف سيكون في نفس يوم عقد القران. استقبلت أم خضرا الخبر كاستقبال خبر الموت فراحت تبكي وتولول وتضرب بكفيها فوق صدرها، إنها آخر العنقود وكانت تحلم أن تزف على الخيل وأن يأتي عريسها ليأخذها بيده من دار والدها ويمشي بها حاملًا إياها فوق ذراعيه، كما حلمت أن تقوم بدور أم العروس فتدعو الجارات يقمن لها ليلة حناء كبيرة، ترش فوق رأسها الحلوى والملح بعد خروجها من حمام العرس كالبدر المجلى، وقد تشاركت النسوة بتدليكها ودهنها بالمسك وفردوا شعرها بزيت اللوز وقشروا كعوب أرجلها بزيت الزيتون وبودرة دم الغزال، وكحلت هي لها عينيها وهم يغنون من أجلها وحدها كأميرة جالسة وسطهن تنتظر فارسها. لكن هذا لن يحدث أبدًا وسوف يبعث عبد الجبار بأحد أبنائه لأخذ خضرا من المنزل بدون عرس حقيقي، وسوف تمشي وراءها أمها كمن تمشي وراء جنازة.. يا لحظ المساكين!

تزوجت خضرا وها هو أسبوع قد انقضى في منزل عبد الجبار، زوجوها إكراهًا لا أسرتها الثياب ولا ثراء الحجرات، ولا نعيم العيش مال له هواها، وكيف تبتهج وكل فرد في البيت يكرهها ويلعنها؟ كان منزل عبد الجبار كريهًا في نفس خضرا، في

نظرها حجرة فقيرة مع عابد وملابس قليلة عز ضائع وسعادة مفقودة. ولم تسلم من أهل الدار فرئيسة وسنية حولتا حياتها لجحيم همز ولمز وسخرية وتهديد، كانت خضرا تضبط نفسها قدر المستطاع تجاهد في إخفاء دموعها المنسكبة ليل نهار.

من جانب آخر عابد ينتظر في مخبئه وزيدان يتصيد الأخبار، أما عبيد الأسياد فكانوا يشكون في كون عابد فر خارج يامنة فوسعوا دائرة البحث. ذات نهار وبعد عودة زيدان للمنزل وأثناء تناولهما الطعام سأل عابد:

- كيف حال خضرا؟

- وكيف لي أن أعرف يا صديقي؟

- أريد أن أراها قبل سفري ليطمئن قلبي.

- أخشى أنك لن تقدر فقد تم زواجها من عبد الجبار، ومنذ أسبوع وهي محرمة عليك، أوصيك بالصبر الجميل يا أخي وعوضك عند الله لا تحاول الانتقام كي لا تخسر الثواب، كن هادئًا ثابت القلب وراقب الدوائر وهي على الباغي تدور يا صديقي.

كان أثر رد فعل استقبال الخبر على عابد كفعل مبرد فرم قلبه، أين هي خضرا التي ضحى بحياته من أجلها ثم بعد هذا عليه أن يصبر ويصمت، أي نفس تستحمل! اقترب المساء فقرر عابد أن يذهب ليواجه عبد الجبار وأبناءه وجهًا لوجه، فتبرد نيران مشاعره التي منذ عرف الخبر المشؤوم لم تعرف إلا الغضب والتعطش للثأر. وفي انشغال زيدان ترك عابد المنزل.

دخل عابد الدوار من بوابته الرئيسية، في نهاية الدوار جاء في الوقت المناسب، لاح عبد الجبار منتعشًا يتبختر كطاووس عجوز وهو ذاهب باتجاه العريشة، لم يلحظ عبد الجبار في البداية عابدًا ولكنه لما اقترب رمق عابد بنظرة غير ودية على الإطلاق:

- أين ضعت يا مغفل، إن حسابك عندي عسير، أتهرب من العمل يا عبد؟

بخطوات سريعة اقترب منه عابد ثم قال وهو ممسك بياقته:

- بل أنت المغفل أيها العجوز المتصابي.

قدحت عينا عبد الجبار نارًا، ما الذي يراه ويسمعه؟ رفع يده على عابد ولكن عابدًا أطبق عليها وثناها خلف ظهره.

- عديم الحياء تضع عينك على فتاة من عمر أحفادك.

- سأقتلك أيها العبد برصاصة في رأسك وسوف أقطع لسانك قبلها وأطعمه للكلاب أمام عينك.

- هات لعبتك الحديدية ونازلني إن شئت.

- من جرأك أيها العبد؟

- ظلمكم، قسوتكم وجبروتكم هم من جرأوني وعلموني. في شاربك لا توجد شعرة سوداء وما زلت تحتال في هذا المنزل، ومنذ أن خدمت عندكم لعام ونصف لم ألبس حتى نعلًا جديدًا، هو نعلي نفسه أخيطه وأرقعه وكذلك ملابسي، لم تعطوني قرشًا واحدًا حتى الطعام تأكلون الدسم وترمون لنا بالعظم.

خرج من الدار أبناء عبد الجبار الثلاثة، راح عبد الحكيم يفك ذراع والده من قبضة عابد:

- اتركه يا عابد هل أضعت رشدك أم ماذا؟ لا تكن متهورًا إن ما تقوم به عيب بل وأكبر عيب، لا يحق لك ذلك وإن كنت مظلومًا.

حرر عابد عبد الجبار الذي أخذ يطلق الشتائم بدون التجرؤ بالاقتراب من عابد، لكن همامًا رفع عصاه على عابد هاويًا بها عليه لكنها ضيعت طريقها لما مال الفتى الذي صر على أسنانه رافعًا كلتا يديه ضاربًا همامًا على صدره، طار همام عدة خطوات وهوى على الأرض فقفز عليه عابد وأخذ يوجه له اللكمات على

صدغيه، كان الخدم نساء ورجالًا ملتفين يراقبون بدون أن يتحرك واحد منهم لإنقاذ همام، وصاح واحد منهم «أعطه في قلبه هؤلاء الأسياد عقارب». لم ينقذ همام سوى عبد الحكيم مرة أخرى. هنا تفرق الخدم لكن عبد الجبار أمرهم باعتقال عابد.

استدعى عبد الجبار عبد الشكور وأبناءه في بحث أمر عابد هل يقتلوه أم ماذا؟ ولم يكن عبد الجبار يعرف شيئًا عن حادثة اختطاف خضرا إذ حرص عبيد الأسياد على إخفاء الأمر عنه فيتشعب الأمر وتظهر نواياهم الأولى، وخاف الإخوة من اتهام عبد الجبار لهم بالتهاون والتقصير الذي أدى إلى مقتل أحد أصدقائه عمدة القرية المجاورة.

في وقت لاحق اجتمع بشير مع عبد الشكور ليتفقا على أن يضعوا أيديهم في أيدي بعض لسلب يامنة من يد الجبابرة، وكان عبد الشكور من جانب آخر قد أوزع للاله زارٍ أن يامنة بأرضها ومحصول قطنها لن يؤول منها للمهردار شيء لزهد عبد الحكيم فيها، لكنه بمساعدتهم قد تصبح الأرض جميعها في حوزة يدهم إن استغلوا سلطة نفوذهم، وبهذا استطاع عبد الشكور لملمة جميع الخيوط داخل يامنة وخارجها في يده.

استطاع عبد الشكور بأسلوبه أن يقنع عبد الجبار أن ما فعله عابد ما هو إلا حقد طبقي وغيرة وأنه سوف يخفي عابدًا وراء الشمس فلا تكدره رؤياه، أما همام فقد أصر على جلد عابد وسط القرية وأن يجلده هو بيده ليستعيد كرامته المفقودة بيد العبد. لم يستطع عبد الحكيم المواجهة أو الصمت أمام الظلم ففر هاربًا للقاهرة مودعًا عابدًا بنظرة إنسان يائس، كان يأمل لو لم يكن لسانه معقودًا أو يده مغلولة، كان يأمل لو لم يكن جبانًا.



تهاني كما خضرا كما زيدان وعيد وفرج وجرجس لا حيلة لهم، يراقبون الحبيب والأخ والصديق والقريب مقيدًا ومسحوبًا كالدابة بطرف حبل مربوط نهايته حول

رقبته تأهبًا لجلده، لم يكن عابد يشعر بالخوف أو المهانة، كان يمشي مرفوع الرأس تمر عيونه بعيون أهل القرية جميعهم في زهو من عبد الشكور وعبيد الأسياد، الذين وجدوا أن الجبابرة يضعون بأنفسهم الطعم الذي سوف يصطادهم في الصنارة وعن قريب.

كانت تهاني وخضرا واقفتين بجانب بعضهما البعض في شرفة الطابق الثاني تراقبان مرور عابد، كل واحدة منهما تلوم نفسها بداخل نفسها تحدثها أنها السبب فيما آل إليه الفتى. بعدما خرج عابد من بوابة الدوار رجعت خضرا لحجرتها وظلت تهاني واقفة غارقة في أفكارها، هبطت إلى الطابق السفلي ومن ثم لم تدر بنفسها وقد دخلت الحجرة التي كان محتجزًا فيها عابد، الحجرة بلا سقف تستقبل الشمس اللاهبة صيفًا والبرد الزمهرير شتاءً، والتي كانت تسمى حجرة العقاب لكل من يخطئ أو يتجاوز حدوده من خادم أو عامل.

دخلت تهاني فامتلأت رئتيها برائحة الظلم، الجدران سوداء والأرض فارغة وفي أحد شقوق الحجرة حطت حمامة بيضها، وفي شق آخر كانت تهدل حمامة صغيرة وحيدة في عشها، لا شيء في الحجرة سوى طاقية عابد، التقطت تهاني الطاقية نفضت عنها الغبار ثم وضعتها على عينها تمسح بها دموعها التي سالت في خيط واحد، استندت تهاني إلى الجدار وفي أثناء استسلامها للذكريات دخلت عليها خضرا فجأة، جفلت تهاني:

- خضرا؟

- كنت أشعر بودك اتجاه عابد ولكنني اليوم تأكدت.

- خضرا، أنا إن كنت آذيتك فسامحيني.

- إن كنت صادقة أعطيني تلك الطاقية.

- لا، لن أفعل، يكفيك قلب عابد، كوني رحيمة واتركي لي تلك الطاقية البائسة.

تركت خضرا الطاقية لتهاني وخرجت من الحجرة إلى بوابة الدوار لكن منعها أحد الخدم بقول ممنوع عليها هي بالذات الخروج من الدوار، وأن تلك هي أوامر عبد الجبار، رجعت خضرا أدراجها، ذهبت إلى حجرتها، جلست فوق الأرض أمام النافذة المستقبلة السماء طاوية ساقيها تحتها شاردة.

جاء عبد الجبار قبيل العصر يتضح على وجهه الرضا، قامت خضرا التي كانت لا تزال على وضعها عاقدة يديها فوق صدرها، في صمت خلع العجوز عمامته وعباءته وناولهما لها، ثم جلس مادًا رجليه لتخلع عنه زوجته الشابة حذاءه، جلست خضرا متربعة تخلع حذاء عبد الجبار، وفي أثناء ذلك قال عبد الجبار:

- لقد استرحنا من العبد.

- قتلتموه؟

- سيحدث قريبًا، هم اقتادوه بعد جلده للحجز.

لم تنطق خضرا مستقبلة الكلام بكمد.. أضاف عبد الجبار:

- شاب أحمق طائش ومتهور، صعلوك كان يظن أن الفرخ ندًا للصقر.

نهضت خضرا وقد أحست أنها على مقربة من الانهيار:

- سوف أعد لك الطعام.

وهرولت بعدها خضرا إلى المطبخ تمسح بارتباك دموع عينيها، دخل سليم الابن الأصغر لجابر وهو فتى لا يتعدى الثالثة عشرة من عمره لكنه كان الأقرب لجده، فالصبي لم يكن يخشى جده كباقي إخوته بل وكان يتبسط معه في الحديث ويتجاوزه بأن يناطحه ويجادله بالكلام، ولم يكن عبد الجبار يجد في هذا إلا متعة ورضا، وكان يقول ما غلبك فيّ يا سليم سوى أن ولد الولد أغلى من الولد. أول ما قابل الحفيد جده قال له:

- أنت كاذب يا جدي.

- ويحك يا سليم هل لأنني قربتك مني تتجرأ عليّ؟ على عبد الجبار كبير الجبابرة؟ لم ينطقها أحد يا ولد من قبل.

- آسف يا جدي لكن تلك الحقيقة، لقد وعدتنا بعبيد أسياد ولم تفِ.

- ومن قال لك أني لم أفِ، سوف تسافرون جميعًا لجلب العبيد على نقاوة أعينكم مع فضل الأسبوع المقبل، أعدو عدتكم يا أبطال.

- خرج الفتى يقفز فرحًا ليبشر باقي إخوته بما من عليهم الجد.



-٢٥-

في القاهرة..

لم يستطع عبد الحكيم إخبار زين بما حصل لأخيها، وحمل لها أشواقه وأبلغها سلامه وأنه بخير في سرد مقتضب، ثم أخرج من جيبه عقدًا من الخرز الأزرق الرخيص اشتراه ذات يوم حين عطف عليه عبد الجبار في أحد الأعياد ببعض قروش، وحين كان الغفر يخلع عنه ملابسه تأهبًا لجلده مد عابد يده بالعقد لعبد الحكيم.

منذ رجوعه من يامنة لم يكن عبد الحكيم بخير فقد هاجمته نوبة ترجيع وغثيان، وكان دائم الشعور بالقرف من أي طعام فيه رائحة الدسم. تضع زين أمامه اللحم والمرق وما إن يقع نظره على الطعام حتى يشعر بذلك الدوار فتنقلب معدته ويهرع إلى الحمام يستفرغ. وقد ظل عبد الحكيم يقتات على الجبن القريش والخبز الجاف، ولم تكن معدته ترفض الطعام ظنًا من أن هذا ابتلاء من الله لأنه لم يقف في وجه الجور، لكن جوزال بعلم منها قد ألمت بما يمر به بعبد الحكيم وشخصته بأنه عقدة نفسية سقط فيها، وأنه بتقززه من الطعام الدسم يقاوم ضعفه الداخلي فتلجأ معدته إلى مقاومة الطعام الغني مرتاحة للطعام الفقير الذي تهضمه معدة الفقراء، وكأنها حالة من التضامن الداخلي لجسده وهو الشيء الذي لم تستطع نفسه الخارجية فعله، وقد نصحته جوزال بالدوام مع معالج نفسي لكن عبد الحكيم رفض، وكان يسعى سعيًا حثيثًا للهجرة متعللًا بأن السفر والهروب من الواقع سوف يحسن من حالته.

وقد جاءت عبد الحكيم تأشيرة السفر ملحقة بعقد العمل بعد شهرين ونصف من رجوعه من يامنة، في هذا اليوم أبلغ عبد الحكيم زين بخبر قرب سفرهما، لم

ترد عليه زين وقتها ولكن بعد أسبوعين وهو يحمل الحقائب متأهبان للسفر وقفت زين في وجه عبد الحكيم وقالت له:

- لن أسافر يا عبد الحكيم.

- لكن هذا ما اتفقنا عليه، لمَ تمانعين الآن؟

- لم أكن أعلم أنني حامل، والآن بعدما عرفت فلن أسافر أنا وجنيني يا عبد الحكيم ولن ألد طفلي في بلاد غريبة.

- زين أنت تتخلين عني.

- بل أنت الذي تترك يا عبد الحكيم، سافر ما شئت إلى بلاد ما وراء البحر لعلك تعالج معدتك وتتخلص من مخاوفك.

سافر عبد الحكيم مرافقًا خوفه وضعفه تاركًا زين وأهله ويامنة والظلم فيها.



في يامنة وخلال الشهرين والنصف كان عبيد الأسياد قد استحكموا في يامنة أكثر مسددين سلطتهم، وكانت أولى النوائب هي اختفاء أربع من بنات يامنة، ثلاث فتيات وامرأة، وأما المرأة فكانت نعسة ابنة جابر.

لم تطق ابنة الأكابر أن تعيش خادمة أسفل أقدام فتاة الحانة سليلة الشوارع التي اتخذها زوجها زوجة عليها، ولم يتحمل جسدها العصا ولا تحملت نفسيتها الإهانة ولازمها خوف مشوب بالبغض اتجاه زوجها فاروق، ولم يكن منها إلا أنها هربت من التعسف والقسوة، حدث ذلك ببساطة وفي هدوء، أحكمت التدثر بشالها وتسللت في عتمة بعد منتصف الليل، لم يوقظ نعسة أي شعور بالتردد أو الأسى اتجاه مصيرها المجهول الغامض إن هربت، فلم تستغرق في مراقبة المكان أو التفكير حاسمة موقفها بالرحيل.

حين تأخرت نعسة عن موعد استيقاظها ذهبت حماتها لتفقدها فلم تجدها لا بحجرتها ولا بأي مكان في الدار، وصل الخبر لجابر فقوم من الرجال خمسين للبحث عن ابنته ولكن بلا جدوى، فيهم من قال أنها انتحرت لكن المؤكد كان أنها بعدما هربت شاهدها أحد أبناء عمومتها خارج يامنة والمركز، في بلد بعيد تشحذ في أحد الأسواق، وحين واجهها وأمسك بذراعها هربت منه وزاغت عن عينه ولم يشاهدها أحد بعد ذلك إلى الأبد.

أما الفتيات الثلاث فهن بنات فقيرات يعملن في تراحيل في جني القطن، وقد اختفين في ظروف لا يعرفها أحد، وكأن الأرض انشقت وابتلعتهن لكن الحقيقة أنهن اختطفن من قبل عبيد الأسياد، وتم بيعهن لأثرياء وعواجيز ليتم الزواج بهن قسرًا وعنوة زواج متعة خارج يامنة وبلاد عائلاتهم كزوجات في السر.



-٢٦-

رئيسة وبعد صراع طويل بينها وبين نفسها قررت التجرؤ وإخبار همام بحملها، تشهدت ودخلت على همام حجرته بعد تناوله الإفطار وقبل نزوله للخمارة، قالت بلا مقدمات:

- همام أنا حامل.

ثقبت العبارة أذني همام لكنه كذبهما ولم يعلق وظل مبحلقًا في رئيسة التي واصلت حديثها:

- هل تذكر تلك الليلة التي جررت فيها قمصان وأمرته أن يضاجعني ليأتيك مني بولد؟ يومها حدث ما طلبت وها أنا أمامك حامل.

كانت رئيسة في هذا الموقف مشوشة مرتبكة إلا أنها تصنعت أنها تموت قهرًا وهي جاثية على ركبتيها طاوية رجليها أسفل جذعها، ثم بدأت في البكاء والعويل وراحت تنوح وتندب مغطية وجهها بمنديل، تنوح على الشرف الذي ضاع والكرامة التي هدرت متهمة همامًا بالتفريط فيها.

خالج همام شعور بأن ما هو فيه حلم ومضى يحدث نفسه يحسب الأيام والشهور وبعد فترة بدأ يستجمع شتاته، فرأى وضعه المهان أمام زوجته التي رفعها من على الأرض وأجلسها بجواره، ثم قال لها في صوت يتهدج بالحكمة الراسية:

- الأمر صعب علي أكثر مما هو صعب عليك يا رئيسة ولكن ما جدوى البكاء؟ إنه القضاء والقدر، عليك أن تطبقي فمك وألا تفضي بالسر، وبالنسبة لما في بطنك من الأفضل أن تفكري في إسقاطه.

هنا صرخت رئيسة:

- مستحيل.. ويرث الجمل بما حمل جابر وأبناءه وتموت يا همام أنت بلا أثر، لا، لن أسقطه وسيكتب باسمك نكاية في جابر الذي حرمك من الأبوة ليعلم أن الله مرجع الحقوق، أنت لم تكن في وعيك يا همام وأنا وعبدك كنا مأمورين ومهددين، إنها ترتيبات القدر ليهب لك غلامًا يحمل اسمك ويرث مالك، صبي سوف تربيه على يدك، قلبي يشعر أنه ذكر.

- لكنه ليس من صلبي.

- ليكن ما تشاء وليرثك أبناء أخيك.

صمت همام وكان في صمته استسلام.

ذاع الخبر بأن رئيسة حامل بعد طول انتظار.. ما بين التعجب والمفاجأة والتصديق وعدم التصديق، وحدها تهاني كانت تعرف أن أمها رئيسة خطت مسلك طريق الإثم والخطيئة بإرادتها الحرة، لتنطوي الفتاة على نفسها مرة أخرى ويستولي عليها المرض وتصبح طريحة فراشها، وقد حار في أمرها الأطباء فمنهم من شخص مرضها على أنه ذات الرئة ومن الأطباء من شخصه على أنه سل، حتى ذبلت تهاني وانطفأت وأصبحت كما الجلد على العظام.



احتجز عابد في سجن في مكان ليس بالبعيد من يامنة وذلك ما شعر به عابد، فلم يحس بطول مسافة الرحلة من المكان الذي أخذ منه حيث كان مقيدًا فيه في جذع نخلة يجلد وبين السجن. بعد خمسة أيام من اعتقال عابد انفتح باب الزنزانة ودخل رجل ليس كبيرًا في السن ربما في الخامسة والأربعين، لكن الشيب قد خط في شعره، طويل القامة وجيد البنية صاحب حركات ونظرات ثابتة وهادئة تنم عن الجلد والثقة في النفس، وكان عابد قد ضاق ذرعًا بالوحدة فقابل السجين الجديد بابتسامة فتأمله السجين الآخر من الرأس إلى القدمين ثم جلس في الركن المقابل له. كان كل من الاثنين حذرًا اتجاه الآخر بنظرات متفحصة.

جمد عابد قلبه وسأل رفيقه:

- ما جريمتك يا أخ؟

اعتدل الرجل الذي كان مستلقيًا على المصطبة الخشبية العريضة جالسًا فارد الظهر، وقال برأس مرفوع وجفون منكسرة وصوت مشروخ:

- حب مصر، حب الوطن الذي طالما حرضت على كرهه وأبى قلبي إلا أن يجرح بحبه.

صمت عابد وقد تضاءلت أمام عينه جريمته، ماذا يقول للرجل إن سأله عن جريمته هو الآخر، أيقول «حب خضرا»، أم يقول الظلم، وهل سوف يصدقه ولن يظن فيه أنه من المجرمين الذين ما إن يمسكون متلبسين حتى يصبون اللعنات والسباب على بلادهم والظروف والحياة؟ فقرر عابد أن يأخذ وحده دور السائل:

- هل أنت ممن يقال عنهم الثوريون؟

- بل أصحاب الحق والحق دائم في أي وضع أو زمان، إنما الثورة عادة ما تكون فورة سرعان ما تخمد.. يا أخي نحن رفقاء عرابي.

- لمَ أتوا بكم لهذا السجن البعيد ولم يقتلوكم؟

- أرادوا تعذيبنا وإذلالنا بالحبس والنفي، لقد قتلوا ابني أمام عيني وقالوا لتعش أنت منفيًا طوال العمر وليرجع ابنك الثاني ليخبر أمه وباقي إخوته بما حل بك وبأخيه. ربما ماتت زوجتي من القهر وربما قتلوا باقي أبنائي وربما وربما، لي ثلاث سنوات أتنقل من سجن لسجن.

تجرأ عابد وقرر أن يحكي قصته لرفيقه، ثم أنهى كلامه بقول: «لو لم أكن عبد أرض لما ظلمت، المشكلة أنني لست عبد سيد».

- هل تعلم يا عابد أن يامنة جزء من مصر وجزء من قارة كبيرة تدعى أفريقيا؟ إن أفريقيا هي الوطن الأكبر للسود والعبيد. لا تجعل مسمى عبودية يجعلك تفقد الثقة في كونك إنسانًا له حقوق، لقد خلقت العبودية يا رفيقي في البشر شعورًا بالتدني جعلهم يغفلون عن المطالبة بحقوقهم.

– ومن صاحب فكرة العبودية، الله خلقنا جميعًا في الأصل أحرارًا يا رفيقي؟

– إمبراطوريات وممالك عظيمة، سلطة وقوة ومال نشأت فوق أكتاف العبيد، لمَ إذًا لا يستعبد القوي الضعيف؟ هؤلاء العبيد تدنى مستواهم الحضاري والاجتماعي وعاشوا في ظروف غير إنسانية كالتي تعيشها أنت وأقرانك من العمال والخدم في يامنة، ليكون رغيف العيش هو حلمهم الأعظم والأهم. مع العلم أنهم لا يختلفون عنك فقد تكون حرًا وأنت بداخل السجن وقد تكون عبدًا وأنت خارجه.

سأل عابد باهتمام:

– كيف؟

– أطلق السراح لأفكارك ولقيمتك بداخل نفسك، كونك ما تزال تفكر في كونك عبدًا سيجعلك للأبد عبدًا.

– لكنني سوف أظل عبدًا على الأقل في عيون أسيادي، كيف أحرر نفسي؟

– بالطبع بالتمرد، الأغبياء وحدهم هم من لا يتمردون والحكماء يعرفون متى يتمردون.

– ومتى يتمردون؟

– حينما يكونون عصبة واحدة وليسو أفرادًا وجماعات، لم يكن عليك مواجهة سيدك بمفردك لقد تسرعت يا عابد، لو أنكم تمردتم جميعًا في نفس التوقيت لما آل بك الحال إلى السجن، كان من الممكن أن تهربوا جميعًا وليفلح الأسياد الأرض بحوافرهم إن استطاعوا، بالتأكيد سوف تبور أرضهم ويتحولون لفقراء مثلكم ثم سوف يطالبونكم بالمساواة وسوف تكونون شركاءهم بقدر مجهودكم.

– إن ما تقوله يا رفيقي ضرب من الخيال لا يتحقق في الأحلام.

- بل تحقق يا عابد، هنالك دولة بعيدة جدًا تدعى أمريكا، هي الدولة الأكبر التي كانت تحوي على عبيد على مستوى العالم، في عام ١٥٢٦ في الجنوب في منطقة تدعى كارولينا حقق التمرد هدفًا من أهدافه وفي فيرجينيا ١٦٦٣ قام تمرد آخر اشترك فيه الخدم البيض مع العبيد الأفارقة.

- وهل تحرر العبيد بالتمرد؟

- في عام ١٨٨٣ حظر البرلمان البريطاني، والبرلمان يا عابد هو مؤسسة ونظام يتداول فيه مرشحو الدوائر، والدوائر هي المراكز والقرى أو المدن، كل مرشح يكون انتخبه أهل هذه الدوائر للتحدث نيابة عنهم أمام الحكومة، والبرلمان البريطاني حظر الرق وطالب بتحرير العبيد وتعويض الملاك.

- يا لها من دولة منصفة هذه البر.. ما كان اسمها قلت؟

ضحك جمال وكان هذا اسم الرفيق.

- بريطانيا.. اسمها بريطانيا العظمى ثم من قال لك إن ذلك كان إنصافًا؟! إنها السياسة يا عابد، لقد وقعت كما وقع غيرك في الفخ. الذي حدث هو تحويل للمسارات ليس أكثر. ركز معي.. في البداية بدأ العبيد بالتمرد مطالبين بحقوقهم ونبأ هذا بخلل كبير سوف يحدث في اقتصاد الدول الكبرى، والاقتصاد هو التجارة والزراعة والصناعة وكل ما تجني منه الدولة الأموال، ثانيًا وتزامنًا مع حركات التمرد كان هنالك اكتشافات بدأت تظهر كمصادر طاقة، والطاقة هي المحرك لعجلة الاقتصاد بالإضافة إلى مناجم الذهب والماس، أين اكتشفوا تلك الكنوز؟

- أين؟

- اكتشفوها في بلاد العبيد في أفريقيا، لقد طمعت بريطانيا فيما هو أهم من العبيد، لقد طمعت في الأرض بما تحتها من كنوز وما فوقها من بشر؛ لذا فقد حرروا العبيد وحظروا تجارتهم، فيصبحون أمام باقي الشعوب

شعوبًا عادلة تحق الحق وتنصف الإنصاف، والحقيقة أنهم تحولوا من دول استعبادية تستعبد البشر لدول استعمارية تستغل ثروات الدول. سؤال آخر من سوف يستخرج الثروات لهم؟ إنهم أنفسهم من كانوا عبيدًا في السابق، شعوب تلك البلدان الغنية ما الحيلولة إذًا؟ يمنعون استيرادهم كعبيد، لمَ إذًا يصدرونهم إلى العالم الجديد ومن الممكن إبقاؤهم كأيدي عاملة تستخرج لهم الكنوز؟ ولقد قسمت الدول الكبرى فرنسا وبريطانيا وإسبانيا العالم على هذا النحو، معطين للسلطات المحلية كرؤساء الحكومات والملوك بعض الامتيازات والصلاحيات، ليس لشيء إلا لضمان وجودهم الاستعماري وإن كانت تلك البلاد في الظاهر محررة، ومن جانب آخر استخدموا الأنظمة في قمع شعوبهم إن أرادت الحياة أو أرادوا هم الاستبقاء على الحكم، وتكون المقايضة «خيانة الوطن مقابل السلطة». وكانت مصر من نصيب بريطانيا التي في نفس الوقت ترسم لاحتلالها فرنسا، وهذا ما أجاهد فيه أنا ورفاقي وهو دحض الاستعمار والانتداب.

- إنها يا رفيقي دائرة لا تنتهي.

- بل إنه الطمع البشري الذي لا ينتهي إلى أن تقوم الساعة يا عابد، وإن مشكلتك هي مشكلة قطاع أكبر وأكبر وما يامنة إلا نموذج مصغر لما نحن عليه الآن.



كل يوم كان عابد يتعلم شيئًا عن الحرية من رفيق السجن. كانا رغم التفاوت الثقافي منسجمين ربما لأنهما كانا يحملان نفس الأفكار والشجون والأحلام، أو ربما كان بسبب الظلم الذي تقاسماه في محبسهما.

أما في يامنة فإن عيون عبد الشكور عملت على تحريض أهل يامنة ضد أسيادهم نزوعًا لإثارة الفتن، مستندين على إشاعة أن عابدًا قد قتل ومثل بجثته، وكان يساعدهم في ذلك عبيد الأسياد أنفسهم، فإذا ما امتلأت صدور الناس

وثقلت بالحقد أخرجوا عابدًا ملقين على كاهله بردة البطل الثوري الذي سوف يجتمع الناس حوله يقودهم نحو الحرية، سينخدع عابد الشاب المكلوم وسوف يعود للانتقام ومن خلفه باقي أهل يامنة، وحين يتم التخلص من الجبابرة يتم التخلص من عابد في اللحظة المناسبة ثم لا يبقى سوى عبد الشكور وعبيد الأسياد.

حتى إن زيدان وفرجًا وعيدًا وجرجس أصدقاء عابد صدقوا وبدأت النفوس تغلي وتفور، بدأ الناس في التخريب، حرق حقل أو شونة، سرقة دابة أو تخريب أداة، لكن واحدًا منهم لم يتجرأ على المواجهة.

مر ثلاثة شهور آخرون، اختطاف الفتيات يزداد، كن ثلاثًا وأصبحن عشرًا، بدأت الأسر تمنع بناتها من الترحيلة أو الاضطرار لتزويجهن بأي زيجة عن قناعة ورضا مضطر عوضًا عن الاختفاء القسري.



كان سليم حفيد عبد الجبار يتطلع بأحر الشوق لامتلاك عبدين يقفان حاميين ظهره بينما يتبختر بشكل رجولي في البلدة. لكن الجد كان يؤجل ويماطل خوفًا على أحفاده من شر الطريق بعد حالات التخريب في أرضه ودوره والاختطاف، صحيح أن المختطف فتيات لكن من يدري فقد تمتد يد المخربين لأحفاده كما امتدت لزرعه، لكن مع إلحاح أبناء الابن وافق عبد الجبار على سفرهم ومعهم فضل وجوهر.

الهدف محدد وواضح بالنسبة لعبيد الأسياد ألا وهو التخلص من أبناء جابر الخمسة في رحلة العودة. كانت رحلة السفر طويلة وشاقة تكبدوها بداخل عربات تجرها الخيول، لم تمنع العربات وهج الشمس الحارق ولا دوامات الرياح المغبرة في الطرق الرملية المختصرة لكنهم وصلوا بسلام.

اختاروا من العبيد خمسة أزواج وقد راقت لهم ثلاث فتيات حسناوات فقرروا أخذهن. وقبل رجوعهم ليامنة اتجهوا للأسواق، وكان السوق الكبير اسمه «سوق أفريقيا» حيث صبت فيه منتجات من كل جنوب وغرب وشرق بقاع القارة السمراء، حملوا على البغال كل ما صادفتهم عيونهم.

من العطارين اشتروا بهارات وتوابل وكركاديه وخروبًا وحناءً وكحلًا ومسكًا ودهانات عطرية وبخورًا وكثيرًا من الزيوت، ومن سوق آخر تبضعوا من المشغولات اليدوية قدرًا لا بأس به من أساور وعقود وطواقي ومسابح ومنمنمات مصنوعة بالصلصال، وقد أعجبتهم قرون الوعل والغزال فاشتروا منها ولم يبخلوا على أنفسهم، ولفت نظر سليم بوق مصنوع من قرن جاموس وحشي وعقد من الصدف فاشتراه، ولم ينسوا نساء العائلة فاشتروا لهن مكاحل من النحاس، وواحدة لأمهم سنية مصنوعة من الذهب الخالص بيضاوية الشكل ذات عنق طويل، منقوش عليها بدقة حيوانات برية تطير فوقها عصافير، وكان غطاؤها على شكل رمح، وقد جلبوا معهم هدية خاصة لجدهم وهي رداء يوضع على الكتف عبارة عن جلد نمر كلفهم آخر ما يمتلكون من مال وقطع ذهبية.

وطوال الرحلة منذ بداية الخروج من يامنة إلى رحلة الرجوع كان فضل وجوهر يضعان بذور نبتة الخروع في طعام أبناء جابر، وكان لأثر تلك النبتة مفعول السم البطيء إذ إن تناولها سبب إسهالًا شديدًا مصحوبًا أحيانًا بقيء جعل أجساد الفتية تهزل وتجف يومًا بعد يوم، إلى أن وصلوا يامنة اثنان منهم قد فاضت روحهما على مشارفها والثلاثة الباقين ماتوا واحدًا تلو الآخر فوق فراشهم. من أثر الصدمة شل جابر، ضياع ابنته ومن ثم موت أبنائه الخمسة كان ضربة قاضية عليه، أما سنية فمن الحزن خف عقلها، تهتف ليل نهار على أبنائها وأحيانًا تهمهم كأنها تحكي معهم في الواقع وهي تحاكيهم في الخيال.

أظلم دار جابر بعدما نعق بوم الموت فوق حيطانه وأمسى أهله وزواره أشباحًا تلتصق بصمات أصحابها بالمقاعد والفرش والأواني. طردت سنية جميع الخدم والعبيد مكتفية بخادمة وخادم كانا يساعدانها في خدمة جابر بعدما شل وعجزت أطرافه، أغلقت بابها في وجه عبد الجبار ورئيسة وهمام وأي واحد من أهل يامنة، ونظرًا لما هي فيه هي وجابر فقد انصاع الجميع لرغبتها خوفًا وامتهانًا، دار جابر الذي لم تكن الضيوف والمضايف تنقطع عنه أمسى مهجورًا لا يسمع فيه صوت إنسان.

العبيد العشرة الجدد وزعوا ما بين دوار عبد الجبار ومنزل همام في الكرم ولكنهم في الأصل كانوا تحت إمرة عبيد الأسياد القدامى، ولاؤهم وطاعتهم لهم وحدهم وحتى الثلاث عبدات لم يفلتن من قبضة عبيد الأسياد، تزوجهن جوهر وريحان وخبير ولم يبخل عليهم عبد الجبار بثلاثة بيوت خاصة لهم، بل وأغدق على كل العبيد المال والصلاحيات واهمًا أنهم أصبحوا سنده في يامنة ضد أهلها الذين بدأوا في التمرد عليه، وعلى ذلك صار صوتهم مسموعًا.

فضل الذي وعده همام إن تم ومات أبناء جابر الخمسة كما تنبأ لهم فإنه سوف يهبه ما يشاء وكل ما يشاء، وكان فضل يضع عينه على تهاني أن يزوجها له همام. بداخل الخمارة جلس فضل بجوار همام على طاولته الخاصة وهمس بصوت مسموع:

- مبارك لك موت أبناء أخيك.

- بل أنت المبارك يا فضل إنها نبوءتك أسفل القمر.

- أذكر يا سيدي كما أذكر وعدك لي.

- بم وعدتك يا فضل؟

- وعدتني بكل ما أريد.

- وماذا تريد قل ولك ما تشاء؟

- أريد قطعة منكم يا سيدي؟

- أرض أم ديار؟

- بل تهاني.

هز همام رأسه ثم نظر نحو فضل وقال:

- تريد الزواج من ابنتي، من تهاني، من ستك تهاني؟

أطرق فضل.

- كنت أمزح معك.. تعال يا فضل لنقرأ الفاتحة أمام الجمع كله.

جمع همام كل من في الخمارة من حوله:

- يا أهل يامنة ويا أهل البلاد، أيها الأشراف والفضلاء والحكماء تجمعوا.

تجمع الكل ثم صاح همام فيهم:

- - اقرأوا فاتحة فضل. ارفع يديك واقرأ الفاتحة يا فضل.

رفع فضل يديه وقرأوا جميعًا الفاتحة وبعد قول: آمين، كان الخنجر يخترق رأس فضل بعدما قرأ الفاتحة على روحه.



-٢٧-

ازداد حقد باقي العبيد على الجبابرة حيث لم يحقق المركز في الجريمة معتبرين صديقهم كلبًا. ركن العبيد إلى الحقيقة وهي أنهم جميعًا رغم ما حظوا من مزايا وإكراميات ما هم إلا كلاب أسيادهم الذين لا يرقون لدرجة النسب، هنا فقط رأوا وضعهم في صورته الحقيقية وعندها أدركوا أنهم لا يمكن أن ينولوا تقدير واحترام أسيادهم كبشر عاديين، وسوف ينظرون لهم نظرة العبيد في قرارة أنفسهم.

ازداد عبيد الأسياد تسعرًا وراحوا يحرضون أكثر وأكثر على التخريب، انعكس الحقد نيرانًا مشتعلة، وانضم لهم الثعلب وشبيحته وبذلك أصبح الجبابرة مطوقين. عبد الجبار كان كمن يحارب أشباحًا من معه ومن ضده؟ لا يفهم شيئًا. قاد عبد الشكور الفلاحين بلا هوادة جعلهم يغضون أبصارهم عن الأرض، في حملة تخريب غير منظمة حتى عجفت الدواب وتشققت الأرض جدباء يتطاير منها الغبار، وبدأت الفئران تمرح في الأرض.

همام كسر عينه ولد قمصان، حين وضعت رئيسة طفلًا ذكرًا أسود وراحت الأقاويل تنسج القصص والألسن تغتاب وتنم، حتى إنهم آمنوا فيما بينهم أن ابن همام هو من صلب أحد العبيد. راحت هيبة همام فلم يعد الأقارب والأصدقاء ينهضون عند رؤيته أو يحظى بنفس قدر الاحترام، وكان الخدم والعمال من خلف ظهره يسخرون منه وينكتون عليه مؤلفين عه الحكايات في جلسات المقاهي وقعدات النسوة بعضهن مع بعض.

منذ أن انطلقت شائعة موت عابد أصبحت خضرا شبه متبلدة لا يفرق معها شيء، لا تدمع عيونها ولا يشكي لسانها، تقوم بالخدمة في الدار مثلها مثل أي خادمة بدون أن تأبه لكلمات رئيسة وأوامرها التي لا تنتهي، كانت خضرا تعتني بالأطفال وتغسل وتكنس وتنظف الغرف وترتبها بلا عطف صادق نحوها.

في يوم كان الجو فيه خانقًا في حجرتها قبيل الغروب حيث أطبقت السماء على الأرض فجأة، خرجت خضرا منقبضة النفس تستدعي بعض الهواء في الفناء، وأثناء مشيها جفلت المرأة الشابة فشيء بداخل بطنها لكزها في خاصرتها، وشعرت بأن الأرض تدور أسفل قدمها، أغمضت خضرا عينيها وقالت بمرارة «يا للطفل التعيس!».

الليل كان هادئًا ورطوبة الجو عالية لذا قرر همام ترك الخمارة والذهاب مبكرًا لمنزله، أمر برش الماء أمام إحدى المصاطب العريضة المفروشة بلحافين قطنيين، استلقى فوقها همام واضعًا وسادة أسفل رأسه مستقبلًا بوجهه السماء، همام لا تثير السماء فيه من شيء هي مجرد قبة سماوية تتراص فوقها النجوم والقمر، لم يكن لهمام عقل يفكر، هو الاحتياج كان يحركه ولا غير. أسبل عينيه وكاد يغفو لكن صوت رئيسة أفاقه:

- رجعت مبكرًا الليلة.

- اختنقت.. كيف حال تهاني؟

- كما هي لا هي حية ولا هي ميتة، بالكاد تقف على رجليها كي تقدر على الجلوس على الكرسي المتحرك للذهاب للحمام وغير ذلك فهي راقدة، حتى الكرسي ذو العجلات الذي أحضرته لها لتتمشى به في البيت مركون

بجانب السرير، أقول لها لتخرجي من حجرتك تقول لي حين أقدر على المشي على قدميّ وعلى هذا الحال كل يوم، أسمع من حجرتي شهقاتها بالليل وهي تحاول التنفس فأهرع إليها أفتح النوافذ، ما إن يدخل الهواء رئتيها حتى يخرج بالسعال.

- لا تقلقي فالطبيب قال ما دامت لا تنزف من فمها فهي بخير.

- أتمنى أن تكون كذلك.

- وكيف حال أمنا المصونة خضرا؟

- تتظاهر بالمرض كي تتملص من خدمة زوجها. وكل هذا ما هو إلا تدلل ولكن للحق بعض النساء يضعفن أثناء الحمل، لقد بدأ معها الوحام وأصبح ظاهرًا لكنها لا تقول.

انتفض همام من مكانه ورفع رأسه قائلًا:

- ماذا تقولين، حامل؟

لم تعقب رئيسة إلا أنها ابتسمت وربتت بكفها على بطنها.

قال همام:

- قريبًا سنحاط بإخوة وأخوات من عمر الأحفاد.

شعر همام بمغص في بطنه من جراء ما سمع وراح يفكر، لأول مرة في حياته يفكر، ماذا بعد؟ تلك أولى قطراتها إنها تتدلل اليوم وغدًا سوف تركب فوق أكتافهم جميعًا، وها هو لم يكد يتخلص من أبناء أخيه بعد سفر عبد الحكيم وهجرته حتى لطمه القدر بحمل خضرا، هل عليه أن يصدع بالأمر؟ أم ماذا يفعل؟

في اليوم التالي خرج همام وعاد ليجلس على نفس المصطبة التي كان يجلس فيها، استفسر عن أبيه من أحد العمال العائدين من الدوار فقيل له إنه خرج لتفقد ما خربه المخربون اليوم، فكل يوم كان عبد الجبار يصحو على الخراب في أرض من أرضه، دخل همام البيت، أحضر زجاجة نبيذ ووضعها بجوار سلطنية الشُربة بجوار طبق فيه نصف إوزة مشوحة في السمن، لعب لحم الإوز مع الخمر والحر في عقل همام.

حين خرج همام في الصباح مر بالعطار واشترى سمًا كان يعرف جيدًا ما ينوي أن يفعله به. ذهب إلى الدوار سريعًا كي ينفذ جريمته. دخل إلى الدار الكبير كان المدخل ساكنًا لا يوحي بأن البيت مسكون من الأساس، مشى الهوينى يتفحص الطرقات، لا أثر أيضًا لأي أحد، جاءه صوت:

- سيدي همام.

فزع همام ولما التفت وجدها فرحة، أشار لها أن تأتي فهرولت نحوه:

- ألا يوجد أحد بالمنزل يا فرحة؟

- بل يوجد، ستي خضرا على سطح المنزل تنشر الأغطية وخالتي أم خضرا في المطبخ تطبخ لها عصيدة قالت ستي خضرا أنها تشتهيها.

- أصبحت خضرا ستك! حسنًا اذهبي إلى دار سيدك جابر وأخبريهم أني سوف أمر عليهم بعد الظهر.

دخل همام المطبخ حيث كانت عوالي تتوسطه محاولًا إخفاء القلق، قال لها:

- كيف حالك يا خالة وحال زوجة أبينا؟

- بخير يا سيدي همام.

تلفت همام حوله:

- هل تبحث عن شيء؟

تلبك قليلًا همام ثم قال:

- هنالك رائحة طيبة لم أشمها من زمن.

- أنا أعد العصيدة، هل أغرف لك طبقًا؟

- نعم يا خالة، اغرفي لي طبقًا.

- خذ هذا الطبق كنت غرفته لخضرا، إنه من نصيبك وسوف أغرف لها واحدًا آخر.

- خالة، لقد سمعت صوت عم خليل يهتف عليك، اذهبي وانظري ماذا يريد منك.

- لكني لم أسمع.

- سلامة سمعك يا خالة، ربما لم تنتبهي.

خرجت عوالي لزوجها كما أقنعها همام، وسريعًا فض همام كيس السم في طبق خضرا وقلبه. وخرج بطبقه مسرعًا. رمى الطبق بما فيه فوق صينية طعام الدجاج في الفناء الخارجي وخرج من الدوار منطلقًا لدار جابر.



طوت خضرا البياضات التى غسلتها وجفت ثم انكفت تعبة تلهث على الألحفة، تعدل وضعها فوق جدار السور نصف المكتمل فوق سطح المنزل ومن أمامها «يامنة» تسبح بيوتها في ضياء الشمس وعلى المدى البعيد الحقول والبساتين الممتدة بلا نهاية، والتي اندمجت فيها تدرجات الأخضر متناغمة في مناطق ومختلطة في مناطق أخرى، وقد تراص الشجر والنخيل في نسق واحد باسق رؤوسه نحو السماء المزركشة بسحابات شفافة متقطعة، تتباعد بعضها عن بعضٍ رويدًا رويدًا لتقترب متلاصقة بغيرها، للحظات امتلأ قلب خضرا بالأمل تود لو تقبل السماء وهي تسبح متأملة وكأن أمانيها تفتحت «سبحان الله إن أبدع هذا أليس بقادر على إمدادي بالحياة!».

جاءتها أمها بطبق العصيدة الساخن، وضعته خضرا جانبًا وقالت لأمها أن ليس لها شهية للطعام، لكن الأم صممت واستحلفتها بكل الأيمان لأنها إن لم تتناول طبق العصيدة لعدمتها في نفس العام. ابتسمت خضرا أمام وجه أمها وعانقتها بمحبة، لم يكن في عيني خضرا دموع باقية ولولا هذا لذرفت سيلًا من الدموع يلائم حجم مشاعر عاطفتها في تلك اللحظة.

لم تشأ خضرا إزعال والدتها وتناولت طبق العصيدة وراحت تأكل منه، ولم تكن يومها قد ذاقت الزاد لكنها لم تأكل إلا نصف الطبق وأحست على الفور بمغص في معدتها، مر بعض الوقت وكان المغص وصل بها بأن لم تستطع الجلوس فارتمت على حجر أمها تصرخ، وبدا لها أن النهار قد أظلم وكأن عينيها صبغتا بغشاوة من الضباب، فزعت عوالي وراحت تقلب وجه ابنتها وهي تنادي عليها باسمها، انزلقت رأس خضرا من على حجر أمها أثناء تشنجها وهي تصرخ بكل عزمها، والأم تصرخ معها وقد عقد منظر ابنتها لسانها وهي تتلوى بأكملها.

ركضت تنادي على الخدم لكن أحدًا لم يسعفها فخرجت إلى الدوار فوجدت واحدًا من العمال طلبت منه أن يأتي بعبد الجبار، ثم تراجعت وطلبت أن يأتي بخليل ثم تراجعت مرة أخرى وطلبت منه أن يأتيها بالعطارة أولًا. رجعت عوالي لابنتها فوجدتها هامدة شفتاها ووجهها وقد ازرقا وانكتم صوتها ليتحول لحشرجة غير مفهومة، صرخت عوالي:

- إنه السم، لقد سمم همام ابنتي.

نظرت الأم لابنتها التي تنازع الموت ليس بيدها حيلة، هبطت إلى الطابق الأول تتدحرج على السلم وهي تلطم وتولول لتجلب ماءً، كانت فرحة قد رجعت من دار جابر لكنها لم تستطع أن تستوضح كلمة من عوالي فراحت تجري وراءها، وعندما أحضرت عوالي الماء لخضرا، أطلقت صرخة ملتاعة وهي تحدق في عيني خضرا الثابتتين والنصف مفتوحتين، هوت عوالي نحو ابنتها وضمتها إلى صدرها تصرخ بوحشية أنثى حيوان ضارٍ ملتاعة.



ربما قد أحس خليل وهو يدفن ابنته بيده بما جناه عليها فراح يقبل رأسها ويستسمحها باكيًا، محتضنها ماسحًا وجهه بتراب قبرها، أما عوالي فقد صرعها موت ابنتها حتى أغشاها. لم يتأثر عبد الجبار ولم تقطر عيناه ولو بدمعة واحدة متقبلًا موتها ببرود تام، وكان قد فهم أن همامًا هو الذي سمم زوجته لكن خضرا لم تكن أغلى عنده من ابنه، فقال وهو واقف على قبرها أمام الناس جميعًا:

- زوجتي قد ماتت ميتة ربها، قضاؤها وقدرها أن تحمل رحمة في رحمها وتصعد بها لبارئها.

وقد لزم خليل الصمت لكنه لم يستحمل الكلام فعبد الجبار متأكد من أن همامًا هو من قتل خضرا، صمته لم يدم طويلًا إذ إنه وهو يتقبل العزاء من همام أغمد منجله في صدر همام ناحية قلبه، وحركه ليلف بداخل قلبه ويتكور بهذا همام هامدًا. أمسك الغفر وعبيد الأسياد بخليل الذي كان يصرخ «سامحيني يا خضرا، سامحيني يا ابنتي». ولم يستطع عبد الجبار التماسك فسقط.

مر شهر على الحادثة وقد قتل خليل ملحقًا بابنته في نفس اليوم، عبد الجبار أصبح كالأسد العجوز بدون أبنائه، وقد وضعه عبيده تحت الإقامة الجبرية في حجرته، بعدما أصبحت السلطة في يدهم برضوخ أهل يامنة لهم معتبرينهم المخلصين والمنقذين بمساعدة عبد الشكور وأعوانه، فتحت الخمارة لعامة الناس واستقدمت راقصات جديدات، زودوا أجرة العمال وضاعفوا كسوتهم، وقد انخدع أهل يامنة يمشون فرحين تكاد قلوبهم تطير من صدورهم، لكن رفقاء عابد لم يقتنعوا وحين راحوا يقنعون الناس بأن ذلك فخ منصوب لهم إلى أن يقتلوا عبد الجبار وجابرًا فلا يبقى من الجبابرة من أحد، لم يقتنعوا ووصفوهم بالخنوع والحنين إلى الذل.

باقي الجبابرة وأثرياء يامنة لم يجدوا مانعًا في أن يضعوا يدهم بيد عبيد الأسياد لأنهم وجدوا أن السلطة الحقيقية بيد عبيد الأسياد الذين امتلكوا الناس، وأنهم إن لم يعقدوا السلم مع عبيد الأسياد فإن ثورة عارمة قد تحدث، ولن يتوانى الناس عن الشرب من دمائهم بما ظلموا في كل مكان في داخل وخارج يامنة.

وإن ما هيج الناس وقواهم هي خطبة عبد الشكور فيهم بعدما تم حشدهم حين قال:

- يا معشر الفلاحين والخدم والعمال، إلى متى سيؤول عرقكم المالح ودماؤكم الطاهرة لجسد أسيادكم وأنتم أقوى منهم وهم المحتاجون لكم وليس العكس؟ اسمعوا كلام هؤلاء العبيد، إنهم أكثر من يشعر بكم وإنهم لن يضلوكم أو يضيعوكم، أيها الناس لمن هذه الأرض؟ إنها لكم فأنتم من حرثتموها وزرعتموها وحصدتموها، أيها الناس لا تخضعوا فلقد ملأتم أكياس الجبابرة بالمال والذهب لتغتسلوا بدم بعضكم البعض ولا تجعلوا يامنة تضيع من بين أيديكم.

كان الناس يسمعون مرفوعي الرأس مصدقين، إلا رفقاء عابد كانوا يدركون الخطة واللعبة التي كان يلعبها عبد الشكور وعبيد الأسياد على الناس، حاولوا إفهامهم لكن الناس ثارت عليهم بالضرب والتنكيل والتهديد بالطرد بل وامتد الأمر للتهديد بالقتل.. لقد عاش أهل يامنة حلمًا بأن يكونوا هم الآخرون جبابرة وأن الأرض سوف توزع على الفقراء، وأنهم سوف يأخذون حقوقهم المتأخرة والأموال في أجولة، لكن ذلك لم يكن ليحدث قط إذ إنهم لم يكونوا إلا قطيعًا من الخراف يقودها عبيد الأسياد.

تهاني وقد وُضعت هي وأمها وجابر تحت الحراسة أيضًا أيقنت أن مصيرها أصبح محتومًا بالزواج من بشير ولو على عدم رغبتها، وقد تم أن كتب بشير كتابها واضعًا يده في يد عبد الجبار المكسورة نفسه إلا من عينين تحدجان نارًا. أقام بشير فرحًا كبيرًا كما لو كان وجيهًا من الوجهاء أو ثريًا من الأثرياء.

آخر الليل دخل بشير حجرة تهاني التي كانت جالسة على كرسيها المتحرك وقد ألبستها الخادمات فستان الزفاف إكراهًا. ابتسم بشير وقال في برود:

- لمَ تكرهينني يا تهاني؟

- لا أكرهك فقط إنما أحتقرك.

آبية عليه أن تكتمل ابتسامته أخرجت سكينًا وهوت به على نفسها لتختار الموت عن بشير، لكن الموت لم يدرك تهاني إذ انتشل بشير السكين من يدها في وقت فارق ربما كان جزءًا من الثانية، لم يكن أمام تهاني وللمرة الألف سوى استخدام مكرها أمام بشير فأوقعت نفسها تحت قدميه لثمتهما مستجدية إياه أن يتركها الليلة، وقد تكرر فعلها هذا لثلاث ليالٍ متتالية ولما شعرت بقرب نفاد صبره قررت الهروب.

كانت تهاني تحت حراسة عبدة من العبدات اللائي جلبن ولم يكن بشير يأمن على حراسة تهاني أي خادمة من خادماتها القدامى. استطاعت تهاني بطريقة ما الاستفراد بفرحة خطيبة زيدان، بدلت معها ملابسها وجعلتها تنام مكانها على فراشها، ثم نبهت عليها أن لا تقول سوى أنها أجبرت وهددت من قبلها ولا تعلم إلى أين هي ذهبت.

خرجت تهاني ومن حسن حظها أنها لم تتقابل بأحد حتى خرجت من الدوار، كانت تهاني ضعيفة بدنيًا ولكنها تحاملت على نفسها بعدما نافست عزيمة إرادتها قوة جسدها، ها هي تقف في قلب القرية أمام الجسر لا تعرف لأين تذهب، جدتها آمال تسكن بعيدًا عند أطراف القرية بجوار ضفة النهر والطريق بعيدة وشاقة عليها إذًا ليس أمامها سوى دار زيدان، ورغم أنها ستكون الأقرب للدوار ولعيون العبيد فإنها الأكثر أمانًا، رجعت تهاني أدراجها وذهبت إلى دار زيدان، لم يكن زيدان في المنزل ولا فتحية، والوالد العجوز قعيد لن يفتح لها، خافت تهاني من أن

تلفت النظر إليها فاتجهت ناحية النافذة وألقت بنفسها منها إلى المنزل فوقعت على طبق فخار مكسور شج كاحلها، نزفت إثر ذلك ولم يكن من تهاني إلا أن تأخذ خرقة شقتها وربطت بها قدمها ثم انزوت في أحد أركان البيت.

فرحة كانت خائفة فلم تطق الانتظار فما إن رحلت تهاني حتى لحقت بها حتى دخلت لبيت زيدان، وهنا طرقت على الباب وهي تقول بعزم صوتها «ستي تهاني لا تخافي أنا فرحة افتحي». تهاني هبت وفتحت الباب كي لا تفضحها.

- هل أنت خرقاء أيتها الفتاة؟

- نسيت ما قلتِه لي فجئت أسألك ماذا أفعل حتى أرجع لحجرتك وأنفذه.

- اذهبي وبلغي عني يا فرحة، اذهبي.

- حاضر.

- إلى أين أنت ذاهبة يا هبلة؟

- لأنفذ ما قلتِه لي.

- الرحمة من عندك يا رب! ستشلين زيدان عن قريب. خذي ملابسك واذهبي وابحثي عن زيدان وتعالي به ولا تنطقي بأي كلمة، وإن سألك أحد عني قولي لا أعرف.

- حتى زيدان؟

- يا الله! زيدان فقط هو من تخبريه وغيره لا، هل فهمت؟

- نعم فهمت وهل أنا لا أفهم؟

زيدان لما عرف أن تهاني في بيتهم حاول أن يكون على طبيعته وآثر أن لا يرجع على الفور للمنزل وينجز كل ما عليه حتى لا يلفت أنظار العبيد في أبراج مراقبتهم، ولما بدأت الشمس تنتصف السماء رجع زيدان إلى منزله، وقبلها تعمد أن يحدث خبيرًا فاخترع أمرًا وهو أنه يريد مساعدًا له حيث إن منازل العبيد المراد منه أن يسقيها أصبحت أكثر من منازل أسيادهم ذات أنفسهم، ثم راح يتحدث عن متاعب السقاية في الشتاء وفي الصيف حتى طلب منه خبير أن يكف ويرحل عنه.

في منزله جلس زيدان إلى جانب تهاني التي راحت تبثه شكواها:

- لقد عقد بشير عليّ إكراهًا، وأحوالنا صارت صعبة تصعب على الكافر، منازلنا صارت قفرًا ومجالسنا استوطنها العبيد، جدي يلكزه بشير ويعامله كرجل خرف، وأمي بعد موت أبي صارت عبدة لقمصان تغسل له رجليه ولم يشفع لها حتى وليدها، أما عمي وزوجته فلم أعد أسمع عنهما شيئًا من زمن، يقال أنهما بعدما فقدا جميع أبنائهما وضياع نعسة زوجته سنية فقدت عقلها بالكامل وهو كما هو مشلول طريح الفراش، لا أحد يزورنا ولا أحد يسأل عنا، لم أر طرف جلباب عبد الشكور قرد الجبابرة إن صح وصفه أيام عزنا.. وما أحوال يامنة يا زيدان؟

- بل قولي بلد البقر بعدما نبتت لأهلها قرون في رؤوسهم، إنهم يعيشون الآن في غفلة السكرة، وغدًا سيتمرغون في الوحل والندم حينما يتخلص العبيد من الأسياد تخلصًا تامًا ولا يبقى من نسلهم أحد. هذا المهردار الذي طلع لنا في البخت يتبختر هنا وهناك في حقول قطن عبد الجبار بعد أن رجع الفلاحون يزرعونها تحت إمرة عبيد الأسياد، ويعطي الأوامر الخرقاء وهو جاهل بالأرض، وكأنه مزارع أصيل وهو لا يفهم شيئًا في زراعة القطن،

يتحدث عن بذور نسيت اسمها يسميها اسمًا غريبًا عبارة عن تزاوج نوعين من البذور، أو مهجنة لا أعلم يا أختي لكن بوار الأرض وفساد زراعة القطن سيكون على يده، بشائر المحصول بينة الزهرات معظمها فارغة.. تهاني دعك من يامنة فكري في نفسك هل تظنين أن مكوثك هنا آمن؟

- سوف أرحل إلى الجبل.

- الجبل؟

- نعم إنه المكان الوحيد الملائم لي.

- لكن الذئاب والثعالب والعقارب، ألا تخافين على نفسك؟

- سأتولى أمري معهم يا زيدان فهم أرحم من عبيد الأسياد، على الأقل وحشيتهم فطرة وليس لهم فيها يد. سأرتدي جلبابك وألف عمامة فوق رأسي ولن يعرفني أحد.

مع غروب الشمس خرجت تهاني في زي الرجال، لم تكن تحمل من المؤن والمتاع سوى صرة صغيرة بها جرة ماء وخبز وجبن وسكين. ظلت تسير حتى تحسست مغارة آمنة دخلتها وآوت فيها، لم تنم ليلتها فقد كانت أصوات الذئاب تتدفق كسلسال غير منقطع، نامت قليلًا بعد شروق الشمس وعلى الظهيرة استيقظت جائعة لكن بصحة أحسن عن ذي قبل، تجولت بين الهضاب نظرت إلى يامنة متفحصة، كان النيل أقرب لها من القرية، فكرت في أنها تستطيع أن تملأ قربة الماء في الليل وتغتسل وتقدر على أن تلتقط من ثمار الشجر المزروع في الحقول.

شهر، شهران، ثلاثة أشهر، خمسة أعوام كاملة مرت..

انتشرت شائعات تقول أنه عند ضفة نهر النيل يظهر في الليالي شبح يامنة، في البداية لمحها أحد أهل يامنة تملأ القربة من النهر، تسمر مصعوقًا مصيبه الفزع لحظتها وراح يشيع في البلد أنه رأى جنية يامنة، وأن يامنة رجعت القرية، ومنذ ذلك الحين أصبحت تهاني جنية يامنة لا أحد يجرؤ أن يقترب منها خوفًا من أن تصيبه لعنتها كما أصابت الجبابرة، ولو رآها أحد من أهل القرية فإنه يسر بما يحفظ من القرآن ويطلب السماح ثم يرحل بكل قواه ولا يخبر أحدًا.

وحده زيدان كان يعرف أن جنية يامنة ليست بيامنة الحقيقية إنما هي تهاني. أحيانًا يأخذه الحنين فينتظرها عند ضفة النهر، يتحدثان سريعًا ويعطيها صرة بها طعام وأحيانًا أخرى ثياب ومرة لحاف ومرة أواني ولكن ليس بشكل متكرر، ربما يقابلها في كل عام أربع مرات لا غير.



-٢٩-

كان عابد ورفيقه جمال قد خططا للهروب ولكنهما كان ينتظران اللحظة الحاسمة والتي لم تأت ولمدة الخمس سنوات، حتى تلاشت الفكرة تدريجيًا وطوقهما اليأس بأنهما سوف يقضيان نحبهما معتقلين في محبسهما. وكان جمال يراعي عابدًا مراعاة الابن يشرح له الحياة من منظوره وما اكتسب من خبرة وقرأ في الكتب مقدمًا له فكرًا جديدًا للدنيا.

إن السنوات التي قضاها عابد في السجن لم تضع هباءً وغيرت بداخله معاني عدة أهمها الحكمة وحقيقة الخلق والمبدأ الوجودي الأهم ألا وهو الصراع، صراع الإنسان مع نفسه وصراعه مع الآخر وصراعه مع عوامل الطبيعة وكيف أن الذكي وحده هو الذي ينتصر، تعلم كيف أن الإرادة تصنع المعجزات يكفيه أن يريد ليصل، وأن يؤمن بكونه حرًا ليكون بالفعل حرًا.

في مارس ١٩١٠ حدثت انتفاضة ضد الحكم العثماني في ألبانيا، وقبلها تم اغتيال بطرس غالي أول وزير مصري في مصر على خلفية تعاونه مع الجانب الإنجليزي، بداية من صياغته وإمضائه أول اتفاقية لتقسيم السودان مرورًا بموافقته تمديد امتيازات قناة السويس أربعين عامًا إضافية، انتهاءً بحادثة دنشواي التي ترأس محاكمة المصريين فيها بصفته القائم على أعمال نظارة الحقانية، وكان على الخديوي عباس حلمي الثاني أن يسوي أموره مع الثوريين منتهجًا سياسة الإصلاح والتقرب من المصريين على حساب الجانب الإنجليزي كي لا يثور عليه الشعب، فها

هي الخلافة ذات نفسها يثار عليها، فأمر بالعفو عن المسجونين لأسباب سياسية، محاولًا تهدئة دماء المصريين والتي منذ حادثة دنشواي لم تبرد.

وكان جمال من ضمن المعفو عنهم، جمال رفيق عابد في السجن، وقد تغير المأمور في وقت سابق ولم يكن هنالك تحقيق معتمد مع عابد لذا اعتبر عابد من ضمن المعتقلين سياسيًا فأفرج عنه من ضمن من أفرج عنهم.

خرج عابد وحلم الثورة في قلبه نقيًا كالألماس طاهرًا كماء النيل، ينازعه حلم الحرية والعدالة الاجتماعية، إنه على كل من يحمل منجلًا أو مطرقة أو معولًا أن يطيحوا بالظلم، يجب البدء بتنوير الناس لكن الكلمات الطنانة وحدها لا تكفي لمحو التاريخ المخزي بعار الخنوع ولا تكفي لشحذ العزيمة.. الحرية يلزمها إيمان، إيمان قوي بأن الحق هو الغالب، ولم يكن عابد يعلم أن يامنة وقعت هي وأهلها في قبضة الشيطان نفسه، وأن ظلم الأسياد ما هو إلا قطرة في بحر ظلم عبيد الأسياد فأصبح البطش بينًا، إن من كان يملك دابة ما عاد يملكها ومن كان عنده دار لزم عليه أن يشارك أخاه فيها، والفتيات اللائي كن يخطفن أصبحن يؤخذن عنوة من ديارهن لتزويجهن لمن يقدر على دفع المهر، لكل فتاة ولكل عمر تسعيرة.

خرج عابد مع رفيقه ولما وصلا لمدخل القرية قررا سلك شوارع متفرعة وأزقة، رأى عابد أن الهم ما زال لم يفارق الوجوه فلم يدهشه ذلك، ولما مر بمجموعة من الصبية استوقفهم عابد:

- هل لا يزال عبد الجبار على قيد الحياة؟

- ربما مات لا نعرف. لكن هماما ابنه قتله خليل.

- لماذا؟

- دعني وحالي أيها الغريب فالتأخر عن الترحيلة يعني الجلد وسيدنا بشير لا يرحم في هذا.

- سيدك بشير، الحر يقول للعبد يا سيدي!

- إنك غريب وسوف توقع بي لعل البصاصين يراقبوننا الآن، اسمع يا هذا البشير هو سيدي وتاج رأسي واتركني أمضي.

سأل عابد نفسه «ترى ما الذي حصل في يامنة؟» واصل عابد وجمال السير حتى وصلا لدار زيدان، دق على الباب ففتح الباب مندفعًا منه طفلان يزاحمان امرأة حاملًا.

- فرحة، مبارك زواجك بزيدان.

نظرت المرأة نحو بطنها المرتفع والطفلين وقالت:

- بارك الله لك.

- أنا عابد ألا تذكرينني؟

أطرقت المرأة تفكر ثم رفعت حاجبيها وصرخت:

- المقتول؟

- لا بل المحبوس، لقد كنت محبوسًا يا فرحة.

- يا سبحان الله الذي يحيي الميت لقد أخبرونا أنك قتلت ولكن هيئتك تلك غريبة وغير آدمية إنها تخيف الكلاب.

- الكلاب يا فرحة، سامحك اللّه. لم يكن لدي وقت لحلق لحيتي وقص شعري. ألا سمحت لنا بالدخول. لا أساءك اللّه؟

أفسحت المرأة الطريق للرجلين وأجلستهما بجوار قروانة كانت تشعل فيها النار. صبت الشاي لهما ووضعت بجانب الشاي قطعتي جبن ورغيف حف سطحه العطب، قالت باستحياء:

- الموجود.

قال جمال:

- فضل ونعمة يا أختي، استريحي.

سأل عابد:

- وكيف حال خالتي فتحية وعمي أبي زيدان؟

- أبو زيدان مات وخالتي فتحية رقدت مكانه على فراش المرض.

بعد تفكير سأل عابد بصوت مرتعش:

- وخضرا أقصد الست خضرا ألا ترينها؟

صمتت فرحة لثوانٍ وقالت:

- ليخبرك زيدان بما حدث، سوف أذهب لخاله فتحية إنها تنادي عليّ.

لما رجع زيدان وبدون أن يُعرِف عابد نفسه رمى الصديق بذراعيه حول كتفي صديقه تبللها دموعه.

- اعذرني يا صديقي إن كنت صدقت موتك كان علي أن أشعر بوجودك وأبحث عنك. لعن الله الجبابرة وعبيد الأسياد في يوم واحد. قال لنا عبد الشكور مع عبيد الأسياد غدًا أجمل وها قد مر مليون غد وما زال يقول غدًا أجمل ولا نزال جميعنا ننتظر.

شرب عابد الشاي مرة أخرى مع صديقه وغط جمال في النوم بجوار النار المتقدة فلم يكن هنالك غطاء فائض عن حاجة الأطفال، ولو كان لكان زيدان دثر الضيفين به، سأل عابد:

- ما الذي حدث في يامنة يا عابد؟

- مصيبة تلو مصيبة يا أخي أبدأ من أين إلى أين. إننا بالكاد نجر أقدامنا نجاهد للتنفس، إن النفس الذي يدخل لا يريد أن يطلع. الأوضاع صعبة حتى على الأرض التي لم تعد تعطي خيرها كما في السابق.

- كل هذا من الظلم يا زيدان، إن الشكوى لن تغير الحال، على الناس أن تفيق.

تنهد زيدان:

- كلامك مثل الذهب لكن من يده في الماء ليس كمن يده في النار، لقد امتلأت يامنة بالعبيد الموالين لعبيد الأسياد، ماذا أقول لك يا صديق؟

- قل لي كل شيء.

لم ينم عابد ليلة سماعه الأخبار منذ حبسه إلى اليوم، يبكي على ماذا أم ماذا، خضرا المغدور بها، أم زين أخته التي ربما سافرت لأبعد وأبعد، أم خليل أم تهاني

أم فرج الذي حين قال قولة حق أما أهل يامنة كانوا هم أول من صدوه وكذبوه وأخرجوه من البلد هو وزوجه وأبناءه بدون حتى جرة ماء في يده، أم يبكي أهل يامنة الذين ظلموا أنفسهم بأن أغلقوا عقولهم عن فهم الحبكة التي وضعها عبد الشكور مع عبيد الأسياد وورطوا بها أنفسهم في الخيبة. وضع جمال يده فوق كتف عابد الذي بثه شجونه.

- أنا يائس لأقصى الحدود يا رفيقي فكلما بحثت في الحياة عن العدل تعثرت أكثر بالظلم، وكلما بحثت عن النجاة ما ازددت إلا غرقًا وكلما بحثت وبحثت أصبت بخيبة الأمل.. لعله لا أمل على الإطلاق.

- ليس معنى أنك وصلت للب الحقيقة أن تيأس يا عابد، أنت لن تنفع بين قوم يلقون أنفسهم نحو الأسفل، لو أنهم كانوا يمتلكون روح الحرية لاستطعنا معهم سبيلًا.

- والغاية والحلم الأكبر يا رفيق السجن؟

- لن يثمر تعبك مع قوم سقف طموحاتهم يوازي سقف العشش التي يعيشون فيها، كانوا يحلمون بلحم الضأن واليوم باتوا يتمنون رغيف العيش لا أكثر، تعال وسافر معي، انضم لنا شارك حلمك مع أقران يحلمون معك.

- علمتني أن السلبية والتواكل وعدم الانتماء سبب الهزيمة.

- وهذا ما يعاني منه أهل يامنة، إنهم مهزومون بالفعل يا عابد، لنرحل، على الأقل، تكسب نفسك، أنت إن عرف أحد العبيد بوجودك فإنك هالك لا محالة.

فكر عابد قليلًا ثم قال:

- لنبق هنا إلى الليل، أريد توديع فتاة هي الأشجع والأكثر فهمًا في يامنة ولفرط فهمها عانت.

حل الليل ساكنًا مخيفًا كأن ليس له صباح، ودع عابد أبناء زيدان وأمه وزوجته، ثم تحرك الثلاثة زيدان وعابد وجمال حتى وصلوا إلى ضفة النيل الشرقية في مكان معين اعتادت تهاني الهبوط فيه. انتظروا ساعتين بقرب النهر حتى اقتربت الفتاة، لم تكن هي تلك تهاني التي اعتاد عابد على رؤيتها، إن شعرها الأسود الطويل جدًا كان مفرودًا يكاد يصل إلى أسفل ركبتيها، عيناها اللوزيتان تلمعان، ووجهها ما يزال جميلًا لكن عظامه كانت بارزة فأظهرت جبهتها أعرض عن السابق، ظهر لعابد أنها ازدادت طولًا ربما لأنها كانت أنحف أو لأن الجلباب يعطي طولًا للمرء وهو منساب.

مشت تهاني بمحاذاة النهر تمسك قربة جلدية بيدها، لم تكن تلك مشية تهاني المتبخترة كغزال بري، إن مشيتها اليوم تشبه تيار الماء الهادىء في مجرى النيل، رائق هو ومستمر في مساره الثابت. انسحب عابد من بين صديقيه متجهًا ناحيتها.

- تهاني.

- عابد؟

لم تكن تهاني مندهشة أو مصدومة، كانت نفسيتها بعد كل ما حدث مؤهلة لاستقبال كل شيء الى درجة استقبال رجوع الأموات والضالين.

- تغيرت يا تهاني.

- لم تحدثني عبارتين على بعضهما وتتهمني بالتغير. لم أتغير يا عابد هذه أنا لكنك لم تكن تلاحظ إلا تهاني التي كنت تظن بأنها فتاة محتالة طائشة.

- جئت لإنقاذك، سوف أسافر تعالي معي، لنهرب سويًا.

ابتسمت تهاني وانحنت تملأ القربة، فرفض بجوارها عابد.

- هل تذكر يا عابد تلك الليلة المقمرة التي أتيتك فيها أطلب منك الهروب معي من يامنة؟ لقد تبدلت الأدوار اليوم. في حياة القفر وسط الصحراء اكتشفت أن الدنيا بكل ما فيها لا تستحق فسامحت ملء نفسي وأحببت ملء قلبي، أنت إن تجردت من الدنيا لم تجد مكانًا للكره والغيرة وسوف تتغاضى عن كل حقارة وحقير وصغيرة وصغير وتزهد في كل ما هو مادي وكل من هو دنيوي دنيء، فلا يتبقى بداخلك سوى إيمانك وفضيلتك وما منحه ربك لك سواء من علم أو حكمة أو قدرة وبصيرة، لتكون دنياك بهذا سلسة سهلة فلا أنت أجرمت ولا استلبت حقًا ولا عكر صفو حياتك شائبة، حينها سوف تحلو.. تلك نصيحتي لك.. سافر بكل أمان.

- تهاني، لقد تغير الوضع، أنا تغيرت وكذلك أنتِ.

- عابد، إن عيشة الجبل تشبهني، أنا ابنة تلك الحياة، أخت الذئاب وصديقة الأفاعي، لقد انتشلت منذ سنوات ثلاثة ذئاب صغار تائهين واليوم أصبح عندي قطيع، أعيش في حماهم ويعيشون في جواري.

- لكنهم يظلون حيوانات.

- صحيح أنه يظل الحيوان حيوانًا لكن الناس لا يظلون آدميين، الحكمة تكمن في من سوف يظل على حاله، ارحل يا عابد وادع من أجلي، إن دعاءك سوف يحميني من السقوط في كل مرة تذكرني فيها، اجعل تهاني في عقلك حين تمر فوق جدران ذاكرتك ذكرياتك مع خضرا وزين وزيدان ويامنة وأهلها جميعًا.. ارحل ولا تنسني فالذكريات وحدها تجعل الإنسان حيًا.

ثم أخرجت تهاني من جيبها حجرًا أزرق لامعًا ومدت يدها به لعابد:

- خذ هذا الحجر، وجدته وسط الصخور في الجبل، من الممكن أن يساعدك في تذكري فقد لا نلتقي مرة أخرى.

أخذ عابد الحجر من تهاني.. وقفت تهاني معتدلة واضعة القربة خلف ظهرها متأهبة للرجوع للمغارة في حضن الجبل وسط الذئاب، في الطريق لاحقتها يمامة حطت فوق رأسها لثوانٍ ثم طارت تسبقها حتى اختفيتا الاثنتان.

في القاهرة توقف عابد يومًا بليلته في بيت رفيقه جمال. اغتسل هناك وقص شعره وهذب لحيته، أعطاه جمال ملابس ارتداها وذهب إلى الحي الفرنساوي، كان يحفظ عنوان منزل زين الذي أخذه من عبد الحكيم قبيل سفره عن ظهر قلب. كأنه مكتوب على سطح قلبه، الحي، الشارع، رقم المنزل. وقف أمام الباب وطرق ثلاثًا، فتح له رجل أجنبي أصفر اللون يفهم العربية حيث فهم حينما سأله «هل هذا منزل عبد الحكيم؟» قال الرجل بلهجة متكسرة وهو يشير لمنزل ديمتري وفيولا «لا، لكن في هذا البيت من يقدر أن يدلك». في منزل فيولا وديمتري عرف عابد نفسه للأسرة التي رحبت به، قصت له فيولا غير مسهبة عن ما حدث لزين بعد سفر عبد الحكيم «عبد الحكيم مسافر وزين تعمل مع الآنسة جوزال في المستشفى الفرنساوي، وقد استأجرت منزلًا بالقرب من عملها سأرشدك إلى عنوانه، فأنا أزورها من حين لحين وقد حدثتني عنك كثيرًا، ومما لا شك فيه أنها ستسعد جدًا برؤياك».

ذهب ديمتري مع عابد لمنزل زين الجديد. فتح لهم الباب صبي صغير قمحي اللون يتقاسم ملامح زين وعبد الحكيم، ركض الصغير للداخل ينادي والدته «أمي هنالك رجل يشبهك». خرجت زين من إحدى الحجرات ولما شاهدت عابدًا لم تعط فرصة لا لدموعها ولا كلماتها للخروج، إنما رمت نفسها في حضن أخيها، وقد كان لقاؤهما كالتقاء إعصارين محملين بذكريات الطفولة والصبا والحزن والفرح، دار عابد بزين كما دارت بهما الدنيا التي جمعتهما ثم أبعدتهما وأخيرًا جمعتهما.. عصفوران متعانقان فرحان بالحرية خارج القفص.

جلست زين بالقرب من أخيها تسرد له ما حل بها وكان من عبد الحكيم:

- الخوف فرق بيني وبين وليفي يا أخي، لقد خيرت عبد الحكيم بيني وابنه وبين الهروب ولكنه اختار الاختيار الثاني، سافر وفي رحمي نطفة منه. كانت الآنسة جوزال دائمًا بالقرب، ساعدتني في التغلب على وحشة الغياب تبثني أملًا في عودة عبد الحكيم، حتى عاد بعد عامين، كان فرحًا بابنه فوق ما كنت أتصور لكنه لم يطق البقاء، وخيرني مرة أخرى واخترت البقاء واختار هو الرحيل، ومنذ ذلك الحين لا تجمعنا به سوى الرسائل المتباعدة، وإلى يومنا هذا وفي كل رسالة يبعثها لي ما يزال يطلب مني الذهاب إليه وأطلب أنا منه العودة لي، لا هو يعود ولا أنا أروح.

- هل تزوج بأخرى؟

- لا، لم يفعل، إن عبد الحكيم يا عابد يكن لي حبًا وتقديرًا كبيرين وهو لن يستبدل أخرى بي فلا تظن فيه شرًا يا أخي، إنه يعاني ما هو فوق احتماله، معاناة هو وحده أدرى بها، وهل من السهل أن يترك المرء ابنه

وزوجه وخاصة إن كان شخصًا بمشاعر عبد الحكيم الحانية؟ إنه لو رأى طفلًا يبكي لبكى معه، ليس من الممكن أن يجمد قلبه لهذه الدرجة وإني لموقنة أنه يتعذب أضعاف ما أتعذب، وجل ما يمكنني تقديمه لعبد الحكيم هو تربية ابنه شجاعًا لا يقبل الضيم ولا يؤذيه الظلم. وكيف هي أحوال يامنة، كانت الأخبار تأتي أولًا بأول مع رسائل تهاني لكن الأخبار انقطعت مع انقطاع الرسائل. بالمناسبة كيف هو حال خضرا؟

- خضرا وتهاني في أحسن أحوالهما يا زين، فلقد وجدتا الحياة المناسبة لهما، خضرا استسلمت للسماء وتهاني تمردت وتحررت من قيدها، إنها تسير الآن في الطريق الذي اختارت بمحض إرادتها.

بالنسبة لجوزال فطوال الأعوام السابقة تصادقت مع زين وصارا كأختين، بعدما تركت منزل والديها مستقلة كممرضة مقيمة في أحد المستشفيات العامة، في البداية خاضت جوزال حربًا مع والديها خلالها ساءت حالتها النفسية، خاصةً حين حبستها والدتها في حجرتها كي لا تترك المنزل فما كان من جوزال إلا أن ألقت بنفسها من شرفة حجرتها لتكسب الحرب بعدها. ما دفع جوزال لطلب الاستقلال هو رفضها ما يحدث في يامنة، فبعدما زارت جوزال يامنة مع والدها ووالدتها لمرة واحدة كانت هي الوحيدة ورأت ما رأت من الجور والظلم قررت التطوع في العمل الخيري والميداني كبديل عن حياة الرفاهية والثراء والرقة، وقد تشجعت زين لأفكارها وانضمت هي الأخرى للعمل معها تطوعًا بلا أجر فلم تكن زين في حاجة للمال، وذلك لأن عبد الحكيم كان مداومًا على إرسال الحوالات النقدية لزين متكفلًا بنفقاتها وابنه ولم يبخل.

عابد في بداية إقامته عمل كحمال في السوق ولما استطاع توفير المال أصبح يتاجر في الفاكهة، وكانت السبل متفتحة أمامه فأصبح لديه حانوته الخاص ومكانته وسط التجار كتاجر خلوق متكسب بالحلال، النزاهة والصدق كانا أسلوبه في التعامل والعمل وكان الناس فوق هذا وذاك يكنون له تقديرًا خاصًا وارتياحًا تامًا، فمن كان بالأمس عبدًا مشترى بالمال أصبح اليوم تاجرًا كبيرًا وشيخًا حكيمًا.

ولم يتخل عابد عن أفكاره الثورية وتطلعاته نحو الحرية، فانضم إلى جماعة رفقاء عرابي مع جمال والكثير من المناضلين في حركات الدفاع عن الوطن ضد الطغيان والطغاة، وأبرز مواقفه كانت في ثورة ١٩١٩ إذ منَّ القدر عليه برؤية براعم الحرية تتفتح أمامه وهو محمول فوق الأكتاف يهتف «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

تمت بحمد الله